عِنْدَمَا يَعْزِفُ الشَّيْطَانُ النَّايَ

عِنْدَمَا يَعْزِفُ الشَّيْطَانُ النَّايَ

مسابقة التكية للتاريخ البديل (٢٠١٢)

تدقيق لغوي : د.إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف : عمرو الحو

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٧٩٧٧

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٢٣٨-٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ٢٠١٣م

عِنْدَمَا يَعْزِفُ الشَّيْطَانُ النَّايَ

مسابقة التكية للتاريخ البديل ٢٠١٢ م

روايات قصيرة



دار اكتب للنشر والتوزيع



حجر الزمن
(المركز الأول)

أمل علي

-١-

كثيرا ما نحلم، نتمنى أن نجد طريق يساعدنا للعودة للوراء في حياتنا، لنصحح ما اقترفته أيدينا، ونعيد مسار حياتنا كما نتمنى حقا أن تكون.

يتمنى ويحلم الكثيرون بهذه العودة الزمنية للماضي، ولا يملك أي منا وسيلة تحقق مبتغاه.. ولكن الأمر يختلف معي، فأنا القرينة، من تملك حجر الزمن.

قلادة أثرية، بها زمردة خضراء، تنتقل من جيل إلى آخر. يعلم جميع أفراد عائلتي قصتها، ولا تصدق عقولهم أسطورتها، التي تخبرعن زمن بعيد، كانت جدتي جولينار فيه، تعيش في تعاسة، تقتل روحها آلام الضمير، لذنب مهيب اقترفته في ماضيها. تمنت وسعت كثيرا، لتصل إلى حل يخفف عنها عذاب الضمير القاتل، حتى وجدته لدى ساحر هندي، قدم لها زمردة خضراء، أخبرها أنها حجر الزمن، وأن بإمكانها عند استخدامه العودة للماضي لمرة واحدة فقط، لتصحح خطأها ويشفى ضميرها. كما أخبرها أن حجر الزمن سوف يفقد قدرته بعد ذلك، ليعود له سحره من جديد، عند مولد القرينة.. فتاة من نسلها، تشبهها تماما في الشكل والدم، لتستخدمه إذا أرادت لمرة واحدة فقط.

أنا جانانيار.. سميت تيمنًا بجدتي جانانيار هانم، الزوجة الخامسة للخديوي إسماعيل ابن إبراهيم باشا، حفيدة محمد علي باشا، والي مصر

ومؤسس نهضتها الحديثة. ولدت بعد سنوات عديدة من ضياع ملك عائلتي، حتى أبي وأمي لم يلحقا بالملك الزائل. لم نكن ملوكا أو أمراء، ولكننا نشأنا على نهج أسلافنا، نلتزم العادات والتقاليد السحيقة، ونحيا كأمراء الأنفس. لم أكن كأجدادي أبكي على اللبن المسكوب وضياع الملك.. لقد درست التاريخ الحق لعائلتي، وأعلم أنه مهما كثرت الإيجابيات، التي قدمها محمد علي باشا ومن تبعه لنهضة مصر، هناك أيضا سلبيات وأخطاء لا تغتفر، ارتكبها الملوك بأيديهم، وكانت هي السبب الرئيسي لما آل إليه الحال.

منذ ما يقرب من خمس سنوات، يعلم الكبار بعائلتي أنني أنا القرينة. تأكد للجميع هذا، عندما أهدتني جدتي، الأميرة شفق نور، قلادة الزمرد الخضراء. توهُّجُها وإشعاعُها عندما لمستها يدي أكد لي وللجميع هذا. ومنذ ذلك الوقت، والجميع يلاحقونني بطلب وحيد.. أن أعود بالزمن، وأقوم بتنبيه الملك فاروق بمخططات ضباط الجيش، لينتبه لهم. ولكني لا أريد ضياع فرصتي الوحيدة، لإنقاذ عائلتي فقط. كما أني لا أثق أن تحذيري للملك فاروق سوف يحدث فرقًا.

في دراستي تاريخ عائلتي، وجدت العديد من الأخطاء الجسيمة، التي تراكمت مع مرور السنوات، وكانت نتيجتها ليس فقط ما حدث لعائلتي وفقدان الملك؛ ولكن كانت الأضرار لبلد وشعب بأكمله. لم يكن الملك فاروق هو بداية الانهيار، ولكن البداية، لهذه النهاية المؤسفة، قبل ذلك بكثير. كم تمنيت لو واصل أجدادي ما بدأه محمد علي باشا من نهضة، إذًا كنا لنصبح الآن كدولة مثل اليابان، في تقدمها واستقرارها ورقيها. لهذا، كان قراري هو العودة بالزمن لعصر جدي الخديوي إسماعيل.. هناك انطلقت البداية لهذه النهاية.

رغم ما تمتع به الخديوي إسماعيل من ذكاء وفهم سريع وقوة شخصية، فهو -كما يصفه الكثيرون- كان يدرك الأشياء بسرعة خاطر، تشبه البرق الخاطف. لكنه خالف العهد الذي اتخذه محمد علي باشا بعدم اللجوء للغرب للاقتراض أو الاستدانة.. كان هم محمد علي باشا موجه إلى تطورهم العلمي والحضاري، يأخذ منهم العلم فقط؛ ولكن الخديوي إسماعيل كانت آفته الإسراف والتبذير في حياته العامة والخاصة. أراد إعمار مصر وتخطيط مدنها، لتشبه المدن الأوربية، وبناء القصورالملكية الفخمة، وإقامة الاحتفالات وإعطاء الهبات لحاشيته والمحيطين به. ثمانية عشرعام قضاها الخديوي إسماعيل في حكم مصر، تمكن خلالها بذكاء خارق أن يمد السيطرة المصرية لتتوغل داخل القارة الأفريقية. وفي سبيله لتحقيق أهدافه التقدمية، احتاج للكثير من المال، ولم ينظر للحظة واحدة، لتدبير ما يحتاج من خيرات بلاده، ولجأ للاستدانة بصورة سنوية. كان يحصل على قروض، نصفها يذهب لاستغلال السماسرة وأصحاب البنوك، وما يتبقى منها لا يسعفه لتحقيق ما يتمنى. وجدت إنجلترا وفرنسا الطوق الحديدي الذي أحكمتاه حول رقبته بقوة، مما أدى لنهايته، وقرار السلطان العثماني بعزله ونفيه. يخبرني عقلي أن نجاحي في منع وصول الخديوي إسماعيل لهذه النهاية المؤسفة، وإعادته للطريق الذي رسمه محمد علي قد يغير الكثير. لهذا، سوف أعود لعهد إسماعيل، فبداية الانهيار كانت عنده.

***

الجميع في عائلتي يرون في العودة للماضي أمرًا ضروريا وملحًا، ولا يقبل النقاش؛ عدا أمي وأبي، يصعب عليهما تقبل أن تذهب ابنتهما الوحيدة في رحلة إلى المجهول. تحدث أبي كثيرا معي، لأعدل عن قراري، قال أن لا أحد يملك أن يدفعني لتنفيذ شيء خارج عن إرادتي. كما أصرت أمي كثيرا محاولة إقناعي بخوفها الشديد على سلامتي. ولكني رددت بأن رحلتي إلى الماضي ضرورة لا مفر منها، وأن قراري هذا عن اقتناع، وليس

نتيجة لإلحاح الآخرين. حديث أبي وأمي الدائم كان يقابله صمت تام من قبل يوسف، زوجي المستقبلي. عيناه تتحدث كثيرا، لتخبرني عن خوفه وقلقه.. حتى خرج عن صمته، واقترب مني وأمسك يدي، ووضعها على قلبه، وقال: قد لا يجمعنا حاضر جديد، إذا اختلف الماضي.. جنى، كيف تسمحين لهذا أن يحدث؟

قلت: لن يحدث.. تاريخ عودتي للماضي سيكون بعد مولد أسلافنا الأمير إبراهيم حلمي والأميرة زينب هانم، أبناء جدتنا جانانيار، وبهذا سأضمن وجودنا في الحاضر

رد: قد نكون في حاضرك الجديد أقرباء، ولكن هل سنكون أحباء؟.. هل سيكون قلبي ملكا لك؟

ابتسمت قائلة: سأحارب من أجل هذا، ثق في ذلك

قال: وإن كنت زوجا ولدي أبناء، ماذا ستفعلين؟

قلت: لا تكن متشائما.. أنت لي يا أميري، مهما تغير الماضي أو اختلف الحاضر

قطع حديثنا حضورأقربائنا وأصدقائنا، نورسان وفارس ومراد. جلس فارس إلى جواري وقال: لقد توصلنا إلى خطة لدخولك إلى سراي عابدين

قاطعته نورسان مضيفة: يجب عند عودتك للماضي أن تكوني على مقربة من مكان تواجد الخديوي إسماعيل، حتى تصلي له بسهولة. قصرعابدين متواجد الآن، كما هو في عهد الخديوي، لأنه من قام بإنشائه، واتخذه مقرا لإقامته وحكمه. لديك سبع أيام فقط – كما تخبر أسطورة حجر الزمن– ويجب عدم إضاعتها في البحث ومحاولة لقاء الخديوي.

هنا قال مراد: من المحال اقتراب أحفاد محمد علي، ودخولهم قصرعابدين بصورة رسمية. ولكن من السهل دخولنا لزيارة المتاحف المقامة بجزء داخل حدود السراي. حقيقي أنها قد تكون مناطق لإقامة الخدم في الماضي، ولكنها سوف تضمن ظهورك داخل حدود سراي عابدين، وعلى مقربة من القصر.. هل حددتِ موعدًا لرحلتك الزمنية؟

قلت في ثقة: نعم، بعد غدٍ

نهض فارس من مجلسه وقال: إذًا لنلتقي بعد غد، الخميس، لنغيرحاضرنا كما نتمنى

***

صباح اليوم المحدد لذهابي إلى متاحف قصرعابدين، والعودة بالزمن إلى عهد جدي الخديوي إسماعيل، استيقظت باكرا، وأعددت حقيبة صغيرة، حملت بها مفكرتي الإلكترونية، التي تلازمني وأدون بها تاريخ عائلتي منذ عهد محمد علي، وحتى نهايته في عهد الملك فاروق. ذكرت فيها أحداثا كثيرة، وكنت أضيف تعليقا خاصا، لكل حدث أرى فيه سببا رئيسيا في انهيار تاريخ عائلتي. حملت بحقيبتي كاميرا حديثة، سوف تساعدني وتؤرخ رحلتي العجيبة. وارتديت قلادة الزمرد الخضراء.. يجب أن تظل معلقة برقبتي طوال رحلتي، فهي سبيلي للعودة.

سبع أيام فقط، بعدها ينتهي سحر القلادة، وأعود إلى حاضر جديد، كما أتمنى. جلست بصحبة أبي وأمي، وتحدثنا كثيرا قبل مغادرتي. شجعني أبي قائلا إنه يثق في قدرتي على التعامل مع هذا الموقف النادر والفريد من نوعه، وأن الأقدار اختارتني لهذه المهمة، لأني أملك مهارات إنجازها بنجاح.

حين حضر يوسف لاصطحابي، كان الرفاق فارس ومراد ونورسان في الانتظار عند أبواب سراي عابدين. أخذنا نتجول داخل المتحف المخصص للأسلحة.. أحب أجدادي اقتناء الأسلحة؛ هواية يشترك بها كل ملوك عائلتي. كان المتحف خالٍ من الزوار، ليس هناك أحد سوى نحن الخمسة فقط، نتجول، لنجد مكانا مناسبا، لا تكشفه كاميرات المراقبة.. حتى عثر مراد على بقعة مناسبة، توقفت بها، ووضعت يدي لأمسك الحجر الأخضر. كل ما يتطلبه الأمر أن أمسك الحجر بيديّ الاثنتين، وأردد التاريخ الذي أريد العودة له.

قبل أن ينطق لساني، توقفت على صوت يوسف وهو يقول: انتظري جنى.. تقدم نحوي، وقدم لي مفكرة ورقية صغيرة، وقال: عند عودتك، إذا تغير الحاضر، سوف يساعدني كثيرا أن أقرأ كلماتي، التي سطرتها بخط يدي، معبرا عن حبي وعشقي لك، لأتذكر ما تعنيه لي.. لأتذكر أنك حبيبتي.

نظرت لعينيه، وقلبي يخبرني أني أضحي بالكثير، من أجل حاضرمختلف. أخذت أردد التاريخ مرة ومرة أخرى، حتى توهجت الزمردة الخضراء، وصدر ضوء أخضر كثيف، غمرني كليا، ولم تعد عيني ترى سواه.

-٢-

اختفى الضوء الأخضر، فإذا بي أقف وسط غرفة نوم كبيرة، بها ستة أسرة، وعدد من الصناديق الخشبية، ومائدة طعام. بحثت بداخل أحد الصناديق، وأخرجت رداءً مخصصا للخدم. أمتلك مجلد صور كبير للملابس العاملين بالقصور الملكية لعصور عدة.. الرداء هذا ولونه الأخضر يخص العاملين بمطبخ القصر. ارتديته سريعا، وأخفيت ملابسي العصرية بحقيبتي، وغادرت الغرفة. لم تكن فكرة سديدة، التخفي بزي خادمة مطبخ.. قد يعيق هذا دخولي القصر. تجولت كثيرا، وسلكت ممرات عديدة، وفتحت أبواب العديد من الغرف.. كان يمر إلى جواري الكثير من الفتيات، بزي موحد، مع اختلاف اللون. مازلت أبحث عن الرداء ذي اللون الأزرق، فهو المخصص للمسئولين عن رعاية الأمراء الصغار. توصلت أخيرا إلى غرفة كبيرة مخصصة لتنظيف الملابس، وحصلت على الرداء الأزرق، ارتديته، وأخذت طريقي لمغادرة سكن الخادمات. توقفت على صوت يقول:

- انتظري.. إلى أين؟

نظرت خلفي، لأجد سيدة في الثلاثينات من عمرها، أدركت من ملابسها أنها أحد المسئولين عن العاملات بالقصر. اقتربت وقالت بلهجة حازمة:

- لماذا أنتِ هنا حتى الآن؟

أجبتها قائلة: شعرت بالمرض، فارتحت لبعض الوقت، وكنت في طريق العودة للقصر الآن

قالت: ما هي مهامك اليوم؟

أجبت: رعاية الأميرة زينب، ابنة حضرة خديوي حفظه الله

أخذت تنظر لي بعيون فاحصة، ثم قالت:

- من أنت؟! لا أتذكر وجهك.. أنت خادمة جديدة، أليس كذلك؟.. مرأسبوع كامل على إحضاركم، ومازلت أعجز عن تذكر ملامحكم وأسماءكم. ذكريني باسمك

قلت بصوت واثق: خديجة...خديجة قاسم

قالت وهى مازالت تتفحص وجهي:

- اذهبي خديجة لرعاية الأميرة فاطمة، الأميرة زينب لديها من يرعاها. العربة تقف بالخارج، لتصلي إلى القصر سريعا، هيا اذهبي

غادرت بوابة البناية، لأجد عربة خشبية، بها مقعدان كبيران متقابلان، يجلس قائدها على مقعد منفرد في مقدمتها، ويمسك لجام الحصان. صعدت العربة، وانطلقت نحو القصر. رعاية الأميرة فاطمة إسماعيل لم تكن ضمن مخططي، ولكنه ليس بالأمر السيئ. سوف أتجه إلى الحرملك، وهناك سأجد طريقي لجناح جدتي جانانيار.

توقفت العربة أمام الأبواب الخلفية لقصرعابدين.. لأول مرة تطأ قدماي القصر. أخذت أتطلع إلى الحوائط والأسقف.. الإبداع الفني ينطق

به كل جزء. لم تر عيني القصر من قبل، سوى عبر الصور، ولكن داخل عقلي أحفظ مخططات القصر، أعلم إلى أين تقود كل درجة سلم به. لهذا اتخذت طريقي نحو الحرملك، وهو المكان المخصص لإقامة سيدات العائلة الحاكمة، يضم العديد من الأجنحة لإقامة زوجات الخديوي وأبنائهم الصغار، كما تقيم به والدته وأخواته. تجولت بين طرقات الحرملك، أنظر إلى الأبواب المغلقة، لا أملك القدرة على الاقتراب. يجب أن أهتدي لجناح جدتي جانانيار.. هي فقط من سيصدق قولي.

شاهدت خادمة تغادر أحد الأجنحة، اقتربت وحدثتها بصوت هادئ قائلة:

– جئت لرعاية الأميرة زينب ابنة جانانيار هانم، ولكن أجهل مكان إقامتها. إنه يومي الأول بالعمل.

ابتسمت الخادمة وهي تقول: لا داعي للقلق. إنه قصر كبير، وكثيرا ما نضل الطريق. جانانيار هانم، جناح إقامتها هو الخامس على اليسار.

اتجهت نحو جناح جدتي، وأمسكت مقبض الباب، وترددت كثيرا.. أعقد أمالا كبيرة على مساعدتها. فتحت الباب بهدوء، ودخلت وأغلقته. أسرت عيني فخامة المكان، رسومات الأسقف، الأثاث الذهبي، مائدة الطعام الفرنسية، المرايا الرائعة، اللوحات التي تزين الحوائط، والستائر الخلابة على النوافذ. كانت غرفة الاستقبال بالجناح دليلا على ما ذكره التاريخ عن عشق الخديوي إسماعيل لكل ما هو فاخر وأنيق وثقيل ثمنه.. يقال إن ثمن الستائر يتعدى الألف جنيه للواحدة فقط. توقفت أمام جدار يضم ثلاثة أبواب، تقود إلى غرف النوم بالجناح. فجأة فتح باب الغرفة على يمين الجدار، وظهرت أمامي سيدة في منتصف العشرينات من العمر،

بيضاء، كستنائية الشعر، تدل ملامحها على النبل والوقار، ترتدي رداء أنيقا، تتداخل به الأقمشة الحمراء والسوداء، في تناسق بديع. كانت عيني تتفحصها بفضول، كما كانت هي تنظر نحوي بدهشة، حتى قالت: ما بك؟ لما تنظرين هكذا؟

قلت: آسفة سيدتي.. لم أقصد

قالت: هل جئت لرعاية الصغار؟

قلت: لا.. أردت مقابلتك لأمر هام

اتجهت بخطوات هادئة نحو مقعد وجلست، ثم قالت: ما هو الأمر الهام؟

أظهرت قلادة الزمرد الخضراء. أخذت تنظر لها، ثم وقفت من مجلسها، وقالت:

– كيف وصلت هذه القلادة لك؟ إنها تخص أمي، وهي تحكم الإغلاق عليها بخزينة سرية، داخل قصرأبي.

قلت: أؤكد لك أن قلادة والدتك مازالت بخزنتها، أما هذه فهي ملك لي

قالت بدهشة: كيف؟! هذه قلادة أثرية قديمة، ليس لها مثيل، وهي تخص جدة جدتي، وتتوارثها النساء بعائلتي

قلت: أعلم، وأنا آخر من حصل عليها...أنا جانانيار القرينة.

نظرت إلى وجهي وهي تتفحصه، ثم قالت:

– ماذا؟! كيف؟ أسطورة القرينة قصة خيالية، ليس هناك دليل على صدقها

قلت: أنا الدليل على صدقها، جئت لك من مستقبل بعيد، لمقابلة الخديوي إسماعيل لأمر هام

أخذت تضحك، ثم قالت: أنت مختلة.. مقابلة الخديوي!.. ماذا أقول له؟ قصة خيالية تتوارثها عائلتي عن جدتي، التي عادت بالزمن إلى الماضي بواسطة قلادة سحرية، وأقدم لك القرينة التي حضرت من المستقبل، وتريد لقاءك!

حدثتها برجاء قائلة:

– معك كل الحق.. هناك الكثيرون في العائلة، ولوقت قريب، ينظرون لقصة حجر الزمن على كونها خيال. ولكن رجاءً "جانانيار هانم" أعلم أن العائلة تمتلك صورة لجدتي، رسمت لها وهي ترتدى القلادة الخضراء.. انظري للتشابه بيني وبين صاحبة الصورة، كذلك تأكدي من وجود القلادة بخزانة والدتك. كلانا يعلم أن هذه القلادة نادرة وفريدة من نوعها، وليس لها نظير. أحضري صائغ العائلة الملكية لفحص القلادتين، سيؤكد لك أنهما صورة طبق الأصل. لقد عدت بالزمن لأمر هام، أقسم لك بصدق قولي.. أنا جانانيار القرينة، حفيدتك من نسل ابنتك الأميرة زينب

التزمت جانانيار هانم الصمت لبعض الوقت، ثم تقدمت واتجهت نحو غرفتها، وفتحت بابها ودخلت وهي تقول: اتبعيني.. يجب أن ترتدي ملابس لائقة، سنذهب إلى قصر أبي الآن.

***

القاهرة.. عجيب ما تراه عيني عبرنافذة العربة الملكية. أربعة أحصنة تقود العربة، منطلقة عبر الشوارع. لم تكن كما تصورها أفلام الغرب،

صحراء جرداء وجمال ظمأى تمتلىء بأناس رثة الملبس.. ها هي تراها عيني، عروسا يزينها معمار أنيق، وأشجار خضراء، طرق مستوية نظيفة، وقصور تحيطها حدائق غناء.

وصلت بصحبة جانانيار هانم لقصر والدها. طلبت مني الانتظار في بهو الضيافة، وذهبت تخبر والدها. تغيبت لوقت طويل، فتجولت ببهو القصر، أتفحص اللوحات. توقفت أمام لوحة حقا رائعة، تصور فتاة ترفع يدها، كأنها تدعو، تنظر صوب الشمس، والآشعة تتسلل عبر أصابع يديها. شرد فكري فيما تعنيه، حتى أفقت على صوت خلفي يقول: هل أعجبتك؟

التفت، ولمعت عيناي، لا أصدق.. قلت بدهشة:

– يوسف!...كيف؟! أنت هنا!

ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة، لم أفهم ما تعنيه، وقال:

– أتمنى من قلبي أن أكون يوسف، ولكن قدري أن أكون كمال. هل سبق والتقينا من قبل؟ من المستحيل أن تنسى عيناي رؤيتك.. إذا جمعنا مكان واحد، كنت سأتذكر هذه العيون الساحرة.

أستمع لكلماته وغزله، وأنظر إلى ملامح وجهه.. يذكرني به كأن يوسف يقف أمامي. أفقت على صوت جانانيار هانم، وهي تقول: كمال!.. جيد وصولك الآن.. هناك أمر هام

قال وهو مازال ينظر نحوي: من حسن حظي وصولي الآن.

كان بصحبة جانانيار هانم سيدة في منتصف الأربعين من العمر، تمسك لوحة صغيرة بيدها، تنظر لها تارة، وتنظر نحوي تارة أخرى. فتحت جدتي جانانيار صندوقا صدفي، لتظهر قلادة الزمرد الخضراء داخله، وقالت:

– الصورة والقلادة تؤكد على أنك القرينة.. ماذا نفعل الآن؟!

اقتربت السيدة وهي تحمل اللوحة بين يديها، وقالت:

– كنت على ثقة من صدق الأسطورة.. أنا نازك هانم، والدة جانانيار.. هل أنت حفيدتي؟!

أجبتها: نعم، اسمي جانانيار، سميت باسم جدتي، ابنتك

ضحكت وقالت:

– أنت وجانانيار بنفس العمر تقريبا، وهي جدتك! من أي العصور أنت؟

قلت: القرن الواحد وعشرين، في عامه الثاني عشر

هنا قال كمال: انتظرن...ماذا؟!...هل أنا أحلم؟

أجابته جانانيار هانم: اعتقدت أنك ستكون من أول المرحبين بالقرينة. أنت من أشد المؤمنين بحجر الزمن، وأسطورة الجدة

قال كمال: أصدقها شيء، ولكن أن تتحقق أمامي أمرًا آخرا!.. إنها تشبه الجدة تماما، كأنهما شخص واحد. انظري للوحة.

قالت جانانيار هانم: تفحصت اللوحة ورسم الجدة جيدا. أعلم أنها تشبهها، وأصدق أنها القرينة؛ ولكن ماذا بعد ذلك؟

تحدثت قائلة: أريد لقاء الخديوي.. هناك أمر هام يجب أن يعرفه

قالت جانانيار هانم بلهجة قاطعة:

– مستحيل.. لن يصدق، وسينتهي أمري.. سيظن أن عقلي قد ذهب.

كانت نازك هانم تمسك يدي، وتنظر لوجهي، كأنها بعالم آخر، حتى قالت:

- أيهم جدك من أبناء جانانيار؟

تحدثت جانانيار هانم بحدة، وقالت:

- أمي!.. ليس هذا هو المهم.. إنها حضرت للقاء إسماعيل

نظرت نحوها نازك هانم وقالت:

- ويجب علينا مساعدتها للقائه. كونها هنا يعني أن هناك أمرًا جلل، أتت لإصلاحه

ثم نظرت نحوي، وأكملت بصوت حنون: أليس كذلك حبيبتي؟

حدثتها بصوت يائس قائلة:

- نعم.. استخدمت حجر الزمن، لأنني أتمنى إصلاح الحال، الذي وصلت إليه البلاد، وعائلتي أيضا تمر بضيق شديد.. ساعديني، أرجوك

كان الصمت هو سيد الموقف لوقت طويل.. جدتي نازك هانم تمسك يدي.. وكمال، الصدمة على وجهه.. وجانانيار هانم شاردة الذهن، تفكر. حتى كسرت الصمت، ووقفت من مجلسها قائلة:

- سوف أتركك هنا اليوم، وغدا يأتي بك كمال إلى سراي عابدين. لا مفر، لابد من إخبار حضرة خديوي بحجر الزمن وقصته، إذا كان في مساعدتك ما سينقذ أحفادي في المستقبل، فيجب على الجدة جانانيار أن تقدم لهم كل ما في قدرتها لمساعدتهم.

غادرت جانانيار هانم قصر والدها، وتركتني بصحبة والدها وأخيها الأصغر كمال. لم أشعر بالغربة، نازك هانم كانت تدللني بود وحب، كأنها تعرفني منذ الأزل.

اصطحبني كمال في جولة بحديقة القصر. كانت تضم الكثير من الأشجار والنباتات النادرة، يتحدث عنها كمال بصوت عاشق، لهذا أدركت حبه للحدائق، قبل أن يخبرني بعمله في تخطيط وإقامة وتنسيق الحدائق بمصر ودول العالم. تحدث معي كثيرا، وتساءل عن المستقبل.. طال حديثنا، حتى ساعات متأخرة من الليل. أشعر بالراحة بصحبته، للتشابه العجيب بينه ويوسف.

-٣-

صباح اليوم التالي، استيقظت، لأجد رداء أنيقا أخضر اللون، نائما إلى جواري، عليه ورقة كتب بها: إلى حفيدتي المستقبلية.

كم أعشق ملابس النساء في هذا الزمان، خصرها النحيل، ضيقها من أعلى، واتساعها بالأسفل.. كنت أتطلع إلى هيئتي بالمرآة، عند دخول نازك هانم الغرفة. أخذت تتفحصني، وهي تبتسم وقالت:

- هل كل أحفادي بالمستقبل رائعون هكذا؟

كانت تحمل صندوقا صدفيا بيدها، فتحته وهي تكمل قائلة:

- أحضرت لك خاتما وسوارًا وحلق، جميعها مطعمة بالزمرد الأخضر، لتكتمل أناقتك. كمال بانتظارك، لاصطحابك إلى سراي عابدين. أتمنى رؤيتك قبل انتهاء الوقت واختفائك؛ أعلم أن أمامك ستة أيام متبقية، سوف أحضر لوداعك قبل نهايتها.

احتضنتني نازك هانم بقوة، ثم نظرت لي بعينين دامعتين، وابتسمت قائلة:

- أشعر أنك قريبة إلى قلبي منذ رؤيتك بالأمس، ولا أحب وداعك

ابتسمت لها قائلة: سأتذكرك دائما يا جدتي الحنون

***

أتطلع من نافذة العربة إلى حدائق سراي عابدين الشاسعة، لا ترى عيني نهاية لها. العربة تخترقها مسرعة باتجاه القصر، حتى توقفت أمام أبوابه، فترجل قائدها سريعا، وقام بفتح الباب، وأنزل سلما صغيرا. غادر كمال، ومد يده لمساعدتي. اقترب نحونا أحد موظفي التشريفات الملكية، بملابسه الرسمية الأنيقة.. رحب بقدومنا بوجه بشوش، واصطحبنا إلى داخل القصر. ظل مرافقا لنا حتى درجات السلم، الذي يقود إلى الحرملك. وهناك كانت وصيفة ملكية في الانتظار، رحبت بنا ثم قالت:

– جانانيار هانم في انتظار لقائكم بجناحها الخاص

كان استقبال جدتي جانانيار، بوجهها المبتسم، المسيطرة عليه علامات التوتر والقلق، ونظرات عينيها الزائغة، أمرًا محيرًا، يصعب معه استنتاج ما حدث، حتى قالت:

– أخبرته بكل شيء.. قصة جدتي، حجر الزمن، وأيضا وصولك

تساءل كمال: وماذا كان قوله؟

أجابته: ظل مستمعا وهو ملتزم الصمت، ثم طلب إحضارك للقائه اليوم

قال كمال متعجبا: فقط!.. ليس من صفات الخديوي تصديق الأساطير والخرافات.. إذا ثار ووصفك بالجنون، لكان أمرًا طبيعيا.. أشعر بالقلق

قالت جانانيار هانم: معك حق.. أنا أيضا أشعر بالقلق لتقبله الأمر!

نظرت لكليهما، وقلت أطمئنهم: لا داعي للقلق.. أنه لأمر جيد موافقته بلقائي

فتح باب الجناح على مصراعيه فجأة، وظهر الخديوي إسماعيل.. وقف كمال وجانانيار هانم سريعا، وحنى كلاهما رأسه، ولكني لم أملك السيطرة

لمنع عيني من النظر إليه. كان بهي الطلعة، له هيبة ووقار تعجز الكلمات عن وصفهما، يملك وسامة عجزت اللوحات التي صورته عن إظهار حقيقتها. اقترب نحوي بخطوات هادئة، حتى توقف أمامي، وأخذت عيناه تطالعني في صمت، ثم وجه نظره نحو جانانيار هانم، وقال:

- اصطحبي كمال بك في جولة بحدائق القصر

غادرت جانانيار هانم وكمال طائعين، وأغلقت الجواري الأبواب. اتجه الخديوي نحو مقعد وجلس، وأشار بيده لي كي أجلس. ظل ينظر نحوي صامتا، كأنه يحاول كشف أعماق عقلي، ثم قال:

- أخبرتني جانانيار هانم أنك أحد أحفادي في المستقبل!

تحدثت بصوت هادئ قائلة: وهل يصدق حضرة خديوي قولها؟

أجابني قائلا: جانانيار هانم بشر، ولها عيوب، ولكن الكذب والاختلاق ليسا أحد عيوبها. كما أن حديثها عنك أيضا أمر لا يتقبله عقلي، لهذا أردت لقاءك لاسكتشاف حقيقة الأمر

قلت: أعلم.. السفر عبر الزمن أمرلا يصدقه عقل. حتى بحقبتي الزمنية، بالقرن الواحد وعشرين، يرى فيه الناس خيالا مستحيل الحدوث، ولكني جئت لأقدم النصيحة، لا أسعى لشيء. اعتبرني إحدى المتنبئات بالمستقبل، أو قارئة كف، سأخبرك بأمور كثيرة سوف تحدث، وسيكون لها تأثير كبيرعلى العائلة المالكة والبلد وشعبها. استمع لقولي، قد تشعر بصدق حديثي

قال: إذا صدق عقلي أنك جئت من المستقبل البعيد، لما اخترتِ لقائي أنا؟

قلت: لأني على ثقة أن حضرة خديوي سيأخذ حديثي على محمل الجد، حتى ولو كان عقله يجد صعوبة في تصديقه، إذا تغير التاريخ ولم تعزل، سيكون المستقبل أفضل.

قال بدهشة: أُعزل!.. من يجرؤ على عزلي، أنا خديوي مصر!

قلت: يخبرالتاريخ أن الخديوي إسماعيل سيحكم البلاد ثمانية عشرعاما، ثم يعزله السلطان العثماني، وينفيه خارج البلاد

قام من مجلسه بهدوء، واتجه إلى النافذة، وقال:

– لماذا؟! السلطان العثماني يقدرني كثيرا. لقد أصدرفرمان الخديوية لي، وحصلت على موافقته لمد سيطرة الدولة المصرية على الكثير من الدول الأفريقية، حتى منابع النيل.. ليس هناك منطق في حديثك

قلت: أنا لا أتحدث عن موقف السلطان العثماني الآن. مع مرورالسنوات، وتراكم الديون والعجز عن سدادها، سوف يتغير الكثير. أعلم رغبتك في تطورالبلاد، وبناء القاهرة الخديوية، التي تحاكي باريس جمالًا، كما أعلم مخططك لحفر قناة السويس، وأيضا عشقك لبناء القصور الفارهة. لتحقق كل هذا، ستلجأ إلى الاستدانة وطلب القروض من دول أوربا.. سوف تعجز عن السداد، وتتراكم الديون، لتقود لنهاية مؤسفة

اقترب، وجلس على مقعده من جديد، وأخذ ينظرنحوي ثم قال:

– قناة السويس.. هل اكتمل إنشاؤها؟!

أجبته: نعم.. إنها صرح عظيم شامخ، لا يقهره الزمن

قال وقد لمعت عيناه: يتذكر الناس مجهوداتي لإقامتها؟

التزمت الصمت للحظات، وترددت كثيرا.. لكنني لم أحصل على هذه الفرصة للتردد.. جئت الماضي لأواجهه بأخطائه، لهذا قلت:

- يذكر التاريخ الخديوي إسماعيل، وأن في عهده أنشأ قناة السويس، وهي أعظم ممر ملاحي يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط؛ ولكن يقال إنها أقيمت بالسخرة واستعباد الخلق

اعتلت وجهه الدهشة، وقال:

- السخرة! كيف؟ لقد أوصيت القائمين على مشروع القناة بالإحسان إلى العاملين. أعلم مشقة عمليات الحفر تحت شمسنا الحارقة، لهذا كان أول ما أمرت به إعداد أماكن مناسبة لإقامة العمال، وتوفيرالرعاية الصحية لهم، والطعام والماء بكثرة في موقع العمل

تحدثت قائلة:

- المتابعة حضرة خديوي.. قد تكون أصدرت أمرًا برعاية فائقة للعاملين، ولكن الحاشية المحيطة ينصب اهتمامهم فقط على اغتراف الأموال وامتلاء خزائنهم، ومشروع القناة فرصة عظيمة لتحقيق مبتغاهم في الثراء السريع. إصدار الأمر، يتطلب متابعة دقيقة، لضمان العدالة في التنفيذ

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول:

- من المؤكد أنك عون كبير لوالدك بما تملكين من حكمة وفلسفة، هل هو حاكم البلاد بالمستقبل؟

قلت: لا.. انتهى حكم عائلة محمد على لمصر، بعد انقلاب ضباط الجيش، وتنازل آخر ملوك العائلة عن العرش، وألغيت الملكية

اعتدل في جلسته منفعلا وقال:

– ما هذا المستقبل الأسود الذي تزعمين أنه سيكون؟!

اتجه لمغادرة المكان، ولكني أسرعت وتوقفت أمامه قائلة:

– حضرة خديوي.. أعلم أنك لا تصدق كوني أحد أحفادك من المستقبل؛ ولكن أوكد لك أنه بعد أيام قليلة، سوف تتأكد من صدق حديثي، عند اختفائي من أمامك بصورة مفاجئة، مع انتهاء سحر القلادة. استمع لحديثي رجاءً.. أنت الوحيد القادر على تغييرهذا المستقبل الموحش

هدأت ثورته وقال بدهشة: هل ستختفين بشكل سحري؟!

قلت: نعم، وأمام عينك. سوف أحرص على هذا، لتتأكد من كل كلمة ذكرها. استمع لي حضرة خديوي، قد تغير التاريخ ويصبح المستقبل مشرقا

قال: أستوحي ثقة بصوتك، لهذا سوف أستمع لك، ولكن تأكدي أن ليس بمقدور أحد أن يغير ما قدر له... الأقدار عزيزتي غير قابلة للتغيير

قلت: أقدارنا هي حصيلة لقرارتنا، وما نقترفه من أخطاء. إذا أحسن القرار، وتجنبنا الأخطاء، قد نغيرالأقدار سيدي.. ثق بقولي

ابتسم قائلا: صغيرة أنت.. كيف لك بكل هذه الحكمة في القول! ما اسمك أيتها الفيلسوفة الصغيرة؟

ابتسمت قائلة: اسمي جانانيار

ضحك وهو يقول:

- جانانيار أخرى.. إذًا جانانيار الحفيدة، سوف نكمل لقاءنا وتنبؤاتك المستقبلية في المساء

ابتسمت، وأنا أحني رأسي قائلة: يشرفني لقاؤك دائما حضرة خديوي

غادر الخديوي الجناح.. أشعر بالراحة لترحيبه بالاستماع بما سأخبره عن المستقبل، رغم قلقه وعدم تصديق عقله كوني فتاة من المستقبل البعيد.

-٤-

لقائي الثاني وحضرة خديوي إسماعيل، حضرته جانانيار هانم وكمال بك. أخرجت من حقيبتي مفكرتي الإلكترونية، ونظرت لهم لأكمل الحديث عن المستقبل، ولكني توقفت. كانت تعلو ملامح وجوههم الدهشة، وأعينهم معلقة بالمفكرة. ابتسمت وأنا أشير بها قائلة:

- إنها أحد الاختراعات، التي سيأتي بها المستقبل البعيد، ولكنه اختراع رائع ومفيد، تتسع هذه المفكرة الصغيرة الحجم للعديد من الكتب، التي يمكن تخزينها داخلها، كما يمكن كتابة ما أريد وتخزينه عليها، دون الحاجة للأوراق والقلم

اقترب كمال بك، وأمسك المفكرة بيديه، وأخذ يتفحصها، ثم قال:

- صغيرة جدا، وعجيبة الشكل.. كيف تتسع لحمل العديد من الكتب، كما تقولين، وكيف تكتبين عليها؟

قلت: يملك هذا الجهاز الصغير ذاكرة كبيرة المساحة، كما أعرف، ولكني لا أملك المعلومات الكافية لتوضيح طريقة صنعه.. يكفيني أني أجيد استخدامه

سلم لي كمال المفكرة، وسأل: كيف يعمل؟!

ضغطت مفتاح التشغيل، وأضاءت الشاشة، مما زاد من دهشتهم. كان الخديوي وجانانيارهانم رغم تعجبهم الواضح بأعينهم، ملتزمي الوقار، عكس كمال، كانت معالم وجهه تعلوها نظرة طفولية. جلس إلى جواري، وطلب أن يتعلم كيفية استخدامها. والحق يقال، كان شديد الذكاء. بعد مرور نصف ساعة فقط، كانت المفكرة بين يديه، يستخدمها ببراعة. لم يعارض الخديوي انشغالي بتوجيه كمال وتعليمه كيفية استخدام المفكرة، بل تابعنا في صمت. وبعد أن أيقن معرفة كمال كل شيء، تحدث قائلا:

– ما الفائدة من إحضارك هذا الاختراع بصحبتك، وعرضه علينا؟

قلت: تحوي المفكرة كل ما كتب وسجل وصور عن العائلة، كما تضم أبحاثي وتعليقاتي الخاصة، عن الأسباب التي أدت لهذه النهاية المؤسفة للعائلة المالكة المصرية. أحببت أن يرى حضرة خديوي ما سجل عليها، ليتدارك أخطاء الماضي، وتحظى العائلة ومصر بمستقبل آخر

قال، ونظرات عينيه تخبرني عن اقتراب ثقته بي:

– أخبرتني أن السلطان العثماني سوف ينقلب عليّ، ويأمر بعزلي ونفيي، والسبب هو الدَين والاقتراض من الخارج.. هل هناك أسباب أخرى، ساعدت في بناء هذا المستقبل المشئوم الذي تتحدثين عنه؟

قلت: نعم، تعلم سيدي.. الحاشية الفاسدة كان لها ذراع كبير لنهاية حضرتكم المؤسفة، وضياع ملك العائلة بعزل ونفي آخر ملوكها، الملك فاروق، ابن الملك فؤاد. المصريون أصبحوا كارهين للعائلة المالكة.. لم يراع ملوك العائلة شعب مصر البسيط، تناسوهم تماما، سقطوا من حسابهم

قال الخديوي بحدة:

– منذ بداية حكمي وأنا أضع شعبي في مقدمة اهتماماتي. فعلت الكثير لتطوير مصر وشعبها، وسأظل أعمل، حتى تضاهي مصر أوربا تقدما ورقيا، ويحظى شعبي بمكانه عالية

تحدث كمال قائلا: حضرة خديوي إسماعيل يفعل الكثير من أجل مصر.. نحن الآن نعمل على تخطيط القاهرة وتجميلها، قاربنا على الانتهاء. سوف تفوق القاهرة باريس، وستصبح من أجمل عواصم العالم.. أشكر الله كل يوم، أثناء جولاتي بالشوارع، للتخلص من المستنقعات قرب النيل، رائحتها كانت تغزو الهواء. ولكن الآن ننعم برائحة الأزهار والورود، لكثرة الحدائق. إذا ذكر التاريخ أن حضرة خديوي أسقط شعبه من حساباته، فهو إذًا تاريخ كاذب مضلل، يجب تصحيحه

قلت بحرج: أنا..لا أقصد..

قاطعتني جانانيار هانم، وهي تقول:

– قدم حضرة خديوي لمصر وشعبها الكثير..لقد جعل لهم مجلس شورى، يختار الشعب نوابه، كما أقام دارالأوبرا، لينعم الشعب بالفنون العالمية الراقية، وأضاء الشوارع، التي كانت ظلمتها تلزم الناس بمنازلهم بعد مغيب الشمس

أشعر بالأسف.. لم أقصد أن يفهم حديثي أنه هجوم على شخص الخديوي. أردت أن أطلعه على وقائع وخبايا المستقبل، ولا أجد سبيلا غير قول الحقيقة كاملة، دون تجميل. التزمت الصمت، وارتسم على وجهي الندم والأسف، حتى سمعت صوت الخديوي يقول:

– أعلم أن قصدك النصح، وأتفهم معنى كلماتك.. الحقيقة عزيزتي مرة المذاق، لا يقوى أحد – مهما بلغت قوته– على تحملها. لهذا، أرجو منك

ترك بلورتك السحرية، أو مفكرتك كما تسميها. أخبرتني أن بداخلها التاريخ المستقبلي لعائلتي. أريد تصفحها بنفسي، وعلى انفراد، لأعرف ما يحمله الزمن بين ثناياه، وليكن لنا لقاء آخر، بعد يومين، لنكمل الحديث

قدمت المفكرة إلى الخديوي، ثم قلت: تحتاج المفكرة للكهرباء لشحنها، لتعمل إذا توقفت

أخرجت الشاحن الخاص بالمفكرة من حقيبتي، وأكملت حديثي قائلة:

– هذا سيساعد على إمداد المفكرة بالكهرباء

وقف الخديوي من مجلسه، ونظر نحو كمال وقال:

– كمال بك، أحضر عامل الكهرباء بالقصر بصحبتك إلى جناحي الخاص

نظرالخديوي نحوي وابتسم محييا، ثم غادر، وتبعه كمال.

***

دخل الخديوي في عزلة بجناحه الخاص، وأمربعدم إزعاجه. لهذا اقترحت جانانيار هانم أن نقضي اليومين في التتره، والتجول بمصر المحروسة، لتسعد عيني برؤية ماضيها الجميل، إلى أن يغادرالخديوي عزلته.

اصطحبتني جانانيار هانم في جولة بالعربة الملكية، التي تقودها الأحصنة. عبرنا جسر قصر النيل، الذي أقامه الخديوي إسماعيل. ما أجمل أن تمتع عينيك بمشاهدة أسوده الأربعة، وهي مازالت حديثة العهد. لم يعلم مسيو ألفريد، النحات الفرنسي الشهير، وهو يعمل على نحتهم، أنها ستظل خالدة، تحرس مداخل الجسر لعقود عديدة. كانت مياه النيل بلونها الأزرق، تتهادى فوقها المراكب، بأشرعتها البيضاء، وتلألؤ آشعة الشمس

كحبات الماس، صورة تأسر العيون، وهيم بها القلوب. العربة الملكية تخترق شوارع مصر المحروسة، وأنا أشاهد الأشجار الكثيفة على جانبي الطريق، ونوافير المياه تزين الميادين، حتى توقفت أمام باب حديدي كبير، تعلوه لافتة خضراء، كتب عليها مدرسة السنية للبنات. نظرت نحوي جانانيارهانم قائلة:

- سوف أصطحبك بجولة، داخل أول مدرسة أمرالخديوي إسماعيل - حفظه الله- بإنشائها خصيصا لتعليم الفتيات

جولتي داخل مدرسة السنية لم تثر دهشتي كثيرا، فأنا على علم بكل ما يخص السنية، من خلال قراءتي. أنشأها الخديوي لمحو أمية فتيات الطبقات البسيطة، لانتشار الجهل بينهن، لعدم قدرة ذويهن على تحمل تكلفة المدرس الخاص، كمثيلاتهن من فتيات العائلات الراقية. أستمع لصوت صادر من أحد الفصول، والفتيات يرددن الأحرف باللغة الفرنسية خلف المعلمة، ونمر على فصل آخر، يشرح المعلم بيت شعر للمتنبي، وأمامه الفتيات يتابعن بتركيز واهتمام

قالت جانانيار هانم مفاخرة:

- هنا في السنية، تتعلم الفتاة كل شيء: اللغات والعلوم والتاريخ، كما تتعلم الطهي والتطريز والموسيقى والرسم.. تخرج السنية سيدة راقية متعلمة، وأيضا ربة منزل ماهرة

غادرنا السنية، متجهين إلى قصر نازك هانم، التي علمت بأصرارها على إقامتي بقصرها، حتى يغادر الخديوي عزلته. أحببت هذا العرض.. بصحبة جدتي نازك، لا أشعر بالوحدة.. قلبها الحنون وبشاشة وجهها يقللان من خوفي وقلقي، اللذين يلازمني منذ ولوجي لهذه الرحلة الزمنية.

الوقت يمر سريعا بصحبة جدتي نازك، وكمال أصطحبني إلى دارالأوبرا الخديوية بالأزبكية. شعرت بالحزن يخيم على قلبي.. من يملك الجرأة لإحراق هذه التحفة الفنية الفريدة والمعمار الأنيق؟!.. أتابع العرض الفني، وأختلس النظر للسادة والسيدات، ملابسهم، جلستهم المعتدلة، الصمت.. لا صوت يعلو فوق الغناء، الكل منتبه، يشاهد ويستمع.

كان لي وكمال حديث طويل عن زماني ورحلتي الزمنية. أخبرته أن المستقبل الذي أعرفه، قد يتغير إذا تغير الماضي، وأفقد أناس أهتم لأمرهم. حزن لحالي وقال:

- مجازفة كبيرة عودتك للماضي.. قد تغير حياتك أنت قبل الجميع.

***

انتهت أيام عزلة الخديوي، وطلب حضوري إلى سراي عابدين. كان الوقت مازال مبكرًا، تؤكده عقارب الساعة السويسرية الفخمة على حائط الغرفة. أعلم أن الخديوي حدد موعدًا للقائنا اليوم، ولكن يبدو أن ما قرأه بمفكرتي الإلكترونية أثار حيرته، ليطلب لقائي الآن في هذا التوقيت.

صحبني كمال إلى سراي عابدين. كانت العربة تشق الطريق بسرعة هائلة. لم تكن الشوارع خالية، كما كنت أتوقع.. أشاهد عبر نافذة العربة الموظفين، ببدلهم الأنيقة والطربوش يزين رؤسهم.. أرى بائع الألبان بجلبابه الأبيض وعمامته البيضاء، مسرعا إلى مدخل إحدى البنايات.. عمال النظافة منتشرون على طول الطريق، ينظفون الشوارع ويروون الأشجار، الراحة والأمل على وجوههم جميعا، مستقبلين اليوم بقلوب صافية، راجية من ربها خيرًا ورزقا وفيرًا.

توقفت العربة أمام بوابة قصرعابدين، وكان في الاستقبال أحد موظفي التشريفات، قال:

- سيدتي، حضرة خديوي في انتظار لقائك بحديقة القصرالشتوية

ثم نظر إلى كمال، وأكمل قائلا:

- آسف كمال بك، حضرة خديوي يطلب لقاء الهانم فقط.. بإمكان سعادتك الانتظار بإحدى قاعات القصر

نظر كمال نحوي وقال:

- سأظل هنا على مقربة منك.. لا داعي للقلق الذي أراه في عينيك

شعرت بالراحة والاطمئنان لحديثه. صدق، نعم أشعر بالقلق.. تحوي مفكرتي الكثير من الأمور، التي لن يتقبلها الخديوي بسهولة، وقد يشعر أنها تقلل من احترامه ومكانة عائلته، وهذا أمرمقدس، يجب عدم المساس به.. لكن يجب أن أواجه الأمر، مهما تكلف.

تقدم التشريفاتي بخطوات قليلة أمامي، وتبعته حتى حديقة القصرالشتوية، وهي بناء زجاجي يتيح لمن بداخله رؤية حدائق القصر. زين من الداخل بأحواض الأزهار، ونباتات متسلقة تعتلي أجزاء من حوائطه، ويضم مقاعد وطاولات أنيقة.

كان الخديوي جالسا، وأمامه طاولة مستطيلة الشكل، عليها بعض التصميمات الهندسية بأوراقها الكبيرة، ولفتها الأسطوانية المعتادة.. يمسك بين يديه إحداها، ويطالعها باهتمام.

رفع عينيه، ونظر نحوي وابتسم، وهو يشيرلي بالجلوس. طوى الورق وهو يقول:

- مخططات أكبر وأعظم حديقة حيوان في العالم كله انتهت. الأمرما زال سريا، لكن من المؤكد أنك على علم ببنائي حديقة حيوان الجيزة، بها

أندر الحيوانات والنباتات. ذُكر بالبلورة السحرية الخاصة بك أن ابني ولي العهد، الأمير أحمد توفيق، سيقوم بافتتاحها عندما يصبح خديوي البلاد بعد عزلي.

الحزن والأسى بصوت الخديوي جعلنى أدرك أنه تأثر بما قرأه بالمفكرة؛ فقلت:

- لقد حقق حضرة خديوي إسماعيل الكثير من أجل مصر وشعبها.. إنجازات حضرتكم خالدة، تحصد فوائدها على مر السنين

قال بحزن: لماذا كل هذه الكراهية في قلوب المصرين للأسرة العلوية؟ أخطأنا؟ نحن بشر ولسنا آلهة

خيم الصمت للحظات، حتى قلت:

هناك وجهات نظرعديدة فيما يخص الأسرة العلوية. البعض يراهم على أنهم أتراك محتلون، فرضوا سيطرتهم وإمرتهم على مصر وشعبها، وللأسف ينسى الجميع محمد علي باشا، الجندي الألباني الذي أتى مصر، واتخذها موطنا له، ودافع عنها، حتى طالبه المصريون بالولاية عليهم، لأنهم في هذا الزمان نظروا له كمصري. لقد ولدنا بها، وكذلك آباؤنا وأجدادنا.. هي الوطن، لا نعرف سواها، حتى وإن اختلفت الجذور. تعلم سيدي.. الكثير من المصريين أيضا ضللوا بقراءة تاريخ مشوه كاذب، صاغته أيادٍ فاسدة، ورسخت به كراهية أسرة محمد علي باشا. كما أن الكثير من أفراد الأسرة ساعدوا بأفعالهم وتهورهم وتفضيلهم الجاليات الأجنبية على المصريين في تعميق كراهية العائلة

قال بصوت هادئ شجي:

- ليس بمقدور أحد - مهما بلغت قوته- أن يشوه ويقضي على تاريخ عائلة بأكملها. نحن عزيزتي جانانيار لنا ذراع قوية في تشويه أنفسنا. لقد تعاقب على المصريين من حكام العائلة العلوية ملوك، كل منهم له أخطاء جسيمة، قضت تدريجيا على أحلام وأمال المصريين، وزاد فقرهم وبؤسهم.. خطايا الحكام لا تغتفر.. لازلت أؤكد، لسنا آلهة، ولكن مع الشعب كل الحق في تصديق ما يقال، حتى وإن كان كذبا وافتراء

تعلقت عيني بالنظر له طوال حديثه.. أشعر بالفخر، لم يخب ظني بك جدي إسماعيل.

تعاقبت اللقاءات بيننا بكثرة خلال الأيام المتبقية لي بالماضي. يدعوني الخديوي كل صباح، وأظل بصحبته طوال اليوم، نتحدث ونناقش كل ما قرأه الخديوي بمفكرتي. حتى أتت لحظة العودة إلى حاضري وما يخفيه..

تبقى القليل من الوقت، كنت بصحبة جدتي جانانيار هانم، ونازك هانم، وكمال بك.. نجلس معا نتحدث. أرى الحزن يملأ أعينهم. كان عليّ الاستعداد واستبدال ملابس الماضي بملابسي العصرية، ولكن أوقفني دخول الوصيفة، التي قالت:

- حضرة خديوي -حفظه الله- يطلب حضور ضيفة جانانيار هانم لقاعة العرش الآن

بعد انصراف الوصيفة، حدثتهم قلت في قلق:

ليس أمامي وقت، يجب أن أتواجد بمقر مبيت الخادمات عند توهج حجر الزمن، حتى لا أقع بمأزق كبير،عند عودتي للمستقبل

قالت جانانيار هانم:

- ليس من اللياقة أن يطلب الخديوي مقابلتك، ويصله اعتذار.. هيا لنسرع للقائه. أعتقد أنه يريد وداعك بنفسه قبل رحيلك

اتجهنا لمغادرة جناح جانانيار هانم، نسيربخطوات سريعة باتجاه قاعة العرش. كان الخديوي إسماعيل بمفرده.. ابتسم عند رؤيتي، وتوجه نحوي قائلا:

- أعلم أن أمامك وقتا قليلا وتعودين إلى عالمك. لهذا أردت أن أقدم شكري وتقديري لك. رغم صغر سنك، ولكني تعلمت من حكمتك الكثير. حفيدتي جانانيار، حديثي معك أنار عقلي وبصيرتي، يؤسفني كونك لست أميرة في المستقبل. وتقديرا مني لك، أصدرت فرمانا خديويا موثقا، أمنحك لقب صاحبة السمو الأميرة جانانيار

قدم لي الخديوي الفرمان، وأمسكته بيدي، ثم أخرج تاجا مرصعا بالألماس، ووضعه على رأسي، وأكمل قائلا:

- قد يكون لقب الإمارة والتاج ليس لهما قيمة فعلية في مستقبلك، ولكنهما تقدير مني لك. عندما تنظرين إليهما، تذكري جدك إسماعيل، ابن إبراهيم، ابن محمد علي باشا

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أستمع لكلماته، وقلت:

- أشكرك سيدي.. أعجز عن إيجاد كلمات تصف حقيقة ما أشعر به من سعادة وفخر

لم أدرِ بالوقت، حتى شعرت بتوهج الزمردة الخضراء. نظرت إلى وجوهم، كانت أعينهم تلمع بالدموع، وتزايد التوهج سريعا، ولم تعد عيني ترى سوى ضوء أخضر، يحيطني من كل جانب، كالضباب.

-٥-

اختفى الضباب الأخضر من أمام عينيّ.. مازلت بقاعة العرش بقصر عابدين.. اختلف تنسيقها، ولكن مازال العرش نفسه مستقرًا بمكانه. بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي.. إذا علم أحد بوجودي، سوف تصب المشاكل فوق رأس عائلتي بأكملها. ماذا أفعل؟! كيف أغادرالقصر دون أن يراني أحد؟.. اتجهت نحو باب القاعة، ولكني توقفت أمامه مرتعشة، متسائلة ماذا يخفي خلفه.. لهذا التصقت بالحائط خائفة، أشعر بالعجز.. لا أجيد التفكير عند مواجهة الضغوط.

وفجأة، فتح باب القاعة. أغلقت عيني، وزاد التصاقي بالحائط. شعرت بوقع الأقدام تسير، حتى توقفت أمامي وسمعت صوت يقول: جنى....جنى

فتحت عيني، لأراه أمامي.. يوسف!.. أحقا ما أراه، أم هو الخوف أصابني بالتوهم، وبدأ عقلي يرى ما يحب؟!

التزمت الصمت، وأنا أنظر له.. حتى قال بانفعال:

- قاعة العرش!.. ألم تجدي مكانا آخر للظهور به غير قاعة العرش؟! هيا، يجب أن نغادر سريعا.

مد يده فأمسك يدي، ثم أخذ ينظر لي متفحصا وقال:

- ما هذا الرداء؟! أتمنى ألا يرانا أحد، وإلا علم الجميع برحلتك السرية إلى الماضي

جذبني خلفه، وفتح باب القاعة بحذر، وأخذ ينظر، ثم غادرنا المكان، متسللين عبرالممرات، نختفي خلف الأعمدة عند مرور أحدهم. كان يوسف يجذبني خلفه مسرعا، حتى توقف أمام أبواب مصعد، فتح بابه، ودخله مسرعا وهو يجذبني خلفه، ملتزمة الصمت منذ لقائه. ولكن عند إغلاق باب المصعد، الذي بدأ التحرك صاعدا، سألته:

- إلى أين؟! يجب أن نغادر القصر، قبل أن يرانا أحد

قال وهو ينظر لملابسي: يجب تبديل هذا الرداء التاريخي أولًا، حتى نتمكن من الحركة بحرية

فتح باب المصعد، وغادرناه، واتجه يوسف نحو أحد الأبواب وفتحه، فأدخلني وتبعني، ثم أغلق الباب. نظرت إلى المكان.. إنه أحد أجنحة النوم بالقصر!.. أصابتني الدهشة، لهذا نظرت له قائلة:

- يوسف...ماذا تفعل؟!

قاطعني قائلا:

- انتظري هنا، سأذهب إلى جناح مَلَك، وأحضر لك ملابس

غادر مسرعا بعد كلماته، التي زادت حيرتي. مَلَك، شقيقة يوسف الصغرى لها هنا جناح بقصرعابدين!

أخذت أتجول بالغرفة.. أثارت دهشتي صورة معلقة على أحد الجدران، تجمع بيني ويوسف. انتبهت إلى احتمالية نسيتها.. إلى ماذا تغيرالمستقبل؟!

هنا فتح الباب، ودخل يوسف وهو يحمل حقيبة بيده، وقال: أحضرت لك ملابس. هيا اسرعي وبدلي هذا الرداء

ثم ضحك وأكمل قائلا: أشعر وكأنك غادرتِ فيلما كلاسيكيا قديما

ابتسمت قائلة: كم أشتاق إلى ضحكاتك الساخرة

قال، وقد هدأت ضحكته: لا تعتادي عليها، لأن عقابك على رحلتك الجنونية مازال قائما.. ذهبتِ دون علمي، ولن أغفر لك هذا

قلت بدهشة: ماذا؟! أنت آخرمن رأيت قبل مغادرتي

رد بحدة: لقد عارضت ذهابك، منذ علمي أنك القرينة، منذ سنوات.. وعارضته الأسرة، ولكنك سعيت لتنفيذ رغبتك للقاء الملك إسماعيل، واستخدمت حجر الزمن، وتحديتِ الجميع.. والفضل يعود لتشجيع الثلاثي، نورسان وفارس ومراد. هيا استبدلي هذه الملابس.. يجب أن نغادر فورا. لا يليق تواجدنا معا داخل جناحي الخاص؛ ولكن ماذا أفعل.. من أجل إخفاء رحلتك هذه، اضطررت للكذب والخداع، وكسر العديد من العادات والتقاليد

أنظر إلى عينيه المشتعلتين، وأدرك أنه وصل إلى قمة الغضب، لهذا التزمت الصمت، وابتعدت لاستبدال ملابسي التاريخية.

***

في طريقنا لمغادرة القصر، كان يوسف يسير إلى جواري صامتا. هالة الغضب على وجهه جعلتني ألتزم الصمت. القصر بداخله حركة غير عادية.. يمر إلى جواري رجال في بدلات أنيقة، يرتدون سماعة الأذن الخاصة برجال الحراسات.. أرى مجموعة من الطلاب، بملابسهم المدرسية الموحدة، يتبعون سيدة ترتدي زيا خاصا، وكأنها تصطحبهم بجولة داخل القصر. قاعات الاستقبال تمتلئ بأشخاص عديدين.. الحياة تملأ قصر عابدين!

يوسف يسير بثقة، حتى غادرنا أبواب القصرإلى الحديقة، التي ما زالت تحتفظ بمساحاهّا الهائلة وجمالها، كما شاهدهّا بالماضي، ولم تتناقص وتنكمش، كما تركتها قبل مغادرتي لزمني. أقبل مراد نحونا مبتسما، حتى توقف أمامي وقال:

– مرحبا جنى.. لقد اشتقت لك كثيرا

قال يوسف بوجهه العابس، موجها حديثه إلى مراد:

– عليك بتوصيل جنى إلى بيتها

استدار يوسف للعودة إلى القصر، فاستوقفته في رجاء:

– يجب أن نتحدث

قال وهو يتابع سيره:

– ليس الآن.. لدي مقابلات عديدة اليوم

قلت: لا أريد الذهاب وتركك غاضبا، استمع لي حتى قمدأ

قال، بنظرات حادة وصوت غاضب:

– أعلم ما ستقولين.. المزيد من الأعذار، كلمات تعبر عن مشاعرك نحوي...اذهبي إلى بيتك جنى، يكفي هذا.. لن أقبل منك بعد اليوم أسلوبك في التعامل معي، لقد أرهقني كثرة الشجار معك. لا يمر شهر واحد دون أن تفعلي أمرا يثيرغضبي، ويزيد ابتعادي عنك

صدمني حديثه القاسي، ولكني تماسكت قائلة:

– يوسف اترك جنى التي تعرفها، وتأكد من أن جنى التي أمامك الآن لم تكن لتفعل ما يغضبك أو يجعلك تبتعد عنها.. فقط اسمعني قليلا

نظرات عينيه تكذّب كل كلماتي.. حرك رأسه بالرفض، واتجه مسرعا نحو القصر.

قال مراد:

– آسف جنى.. أعلم.. اتفقنا على عدم إخبار يوسف، ولكن الأمورتعقدت، وطلبت مساعدته للوصول إلى غرفة التحكم بكاميرات المراقبة بالقصر. إذا شاهد أحد لقطات ظهورك المفاجىء بقاعة العرش، وقام بتسريب هذه الأشرطة إلى الشبكات الإعلامية والصحف، ستقع العائلة المالكة المصرية في مشكلة كبيرة. ولكن بمساعدة يوسف، قمت بحذف كل ما سجلته كاميرات المراقبة.

شعرت بالتعب والأرهاق الشديد والحزن، فطلبت من مراد إيصالي إلى البيت، لعل رؤية أمي وأبي تخفف عن قلبي آلامه.

لذت بالصمت، وعربة مراد تنطلق بشوارع القاهرة. أنظر عبرالنافذة، أرى قاهرة جديدة نظيفة، تكسوها الخضرة وتزينها التماثيل والمسلات ونوافير المياه، أبراج شاهقة الارتفاع لا ترى العين نهاية لها.. رأيت قطارًا معلقًا ينطلق بسرعة هائلة.. ابتسمت، رغم حزن قلبي، فقد أصبحت عاصمة تليق بدولة عريقة.

توقف مراد أمام بناية على ضفاف النيل بجزيرة الزمالك. شعرت بالراحة، هي نفس البناية التي تركتها. أسرعت أغادر العربة، ودعني مراد وهو يقول:

– سوف أحضر لزيارتك بصحبة فارس ونورسان قريبا

خطوت بقدمي عبر مدخل البناية، فلم أجد عبده، حارس العقار، بجلبابه الريفي يجلس على مقعده القديم.. الحارس الجديد رجل في الثلاثينات من عمره، يرتدي زيًا رسميا، ويضع كاب على رأسه، يقف خلف طاولة تشبه مكاتب الاستعلامات بالفنادق. ابتسم عند رؤيتي وهو يقول: مرحبا بعودتك

نظرت له بدهشة، ثم ابتسمت، واتجهت نحو المصعد

***

توقفت كثيرا أمام باب شقتنا، قبل أن أضع إصبعي على مفتاح الجرس. ثوانٍ قليلة، وفتح الباب، لتظهر أمامي سيدة في منتصف الأربعينات من العمر، أشرق وجهها لرؤيتي، وقالت بصوت طفولي، وهي تصفق بيدها: أميرتي الصغيرة عادت لبيتها بسلام

أحاول السيطرة على نفسي، حتى لا أنفجر ضاحكة. استقبال يليق بطفلة في العاشرة من عمرها عند عودتها من المدرسة، وليس لفتاة في مثل عمري

أشعر بالارتباك في كل خطوة أخطوها داخل البيت، وهي تتبعني. تشد انتباهي فخامة البيت.. التحف التي تزين الأركان، اللوحات القيمة على الحوائط.. لم يكن بيتي الذي تركته عند رحيلي إلى الماضي.. أصبح أكبر مساحة، وأكثر فخامة.. أنقل نظري من مكان إلى آخر، حتى تنبهت للسيدة وهي تقول:

– ألا تذكرين من أكون؟

التفت أنظر لها بدهشة، فقالت:

– أخبرتني قبل ذهابك لرحلتك للماضي أنه عند عودتك قد تصاب ذاكرتك بالتشويش، وتنسين الكثير من الأشياء

تساءلت بتعجب: وهل لديك علم بأمر رحلتي؟!

قالت: نعم، أنا أعلم كل شيء عنك، ليس بيني وبينك أسرار يا أميرتي الصغيرة.. أنا فاطمة، أقوم برعايتك منذ أن كان عمرك يوما. أنا أعلم الناس بك، وسوف أخبرك بكل شيء، حتى تتذكري من تكونين

تساءلت وأنا أنظر في كل اتجاه:

– أين أمي وأبي؟

أجابتني قائلة:

– سمو الأميرعزيز، هو أمير الأسكندرية، لهذا يقيم ووالدتك الأميرة مليكة هناك

جلست على مقعد قريب، وأنا أقول بحزن:

– أعيش هنا وحيدة بمفردي!

جلست فاطمة، وقالت بصوت حنون:

– لا حبيبتي.. أنا هنا معك دائما.. الأميرة مليكة تأتي لزيارتك دائما، كما نذهب نحن إلى الأسكندرية لتتابعي عملك هناك

قلت: عمل!..هل لي عمل بالأسكندرية؟

ردت فاطمة: نعم.. الآثار الغارقة، وفندق قصركليوبترا، والمطاعم التي يتم إنشاؤها أسفل مياه البحر

امتلأت بالدهشة والتعجب.. لا أفهم قولها، لاحظت ذلك فأكملت موضحة:

- أنت أميرة الآثار، كما تلقبك الصحافة. لهذا، عند اكتشاف الآثار الغارقة ببحر الأسكندرية، أمرتِ بإقامة غواصة عملاقة، تتخذ شكل معبد روماني، تصبح فندقا، إطلالته على الآثار الغارقة.. توضع اللمسات الأخيرة الآن، وسوف يقوم جلالة الملك إبراهيم بافتتاحه قريبا. والآن حبيبتي.. أنت في حاجة للراحة والنوم، وبعد ذلك سوف نجلس معا، وأقص عليك كل شيء عنك وعن حياتك

نهضت من مجلسي، وأرشدتني فاطمة إلى غرفتي، التي اختلفت كثيرا عما تركتها.. مساحة كبيرة، وأثاث فاخر، على أحد الجدران صورة كبيرة التقطت لي وخلفي أهرامات الجيزة، القبعة الإنجليزية على رأسي، وملابسي التي أرتديها جعلتني أبتسم. لقد عدت لمستقبل أنا به أميرة الآثار.. أنديانا جونزالمصرية، ولم أعد مجرد فتاة تتقن لغات عدة، وتعمل بالترجمة.. كل شيء تغير.

-٦-

عشر أيام مرت على عودتي من رحلتي السحرية، قضيتها في البحث والاطلاع.. المستقبل تغير، حياتي تغيرت، كل شيء أعرفه اختفى وحل محله جديد!

فاطمة، المربية، ساعدتني كثيرا، كما وفرت لي الهدوء والعزلة. انفردت بنفسي تماما، لا يصاحبني سوى جهاز حاسب صغير، أحمله على قدمي، وأتطلع إلى شاشته، أبحث عبرالمواقع الإلكترونية، لأعرف من أنا!

بداية بحثي كانت عن جدي الخديوي إسماعيل.. أردت أن أعرف ماذا فعل، ليتغير كل شيء هكذا.. هل أخذ بنصائحي، أم سلك دروبا أخرى؟

سعدت كثيرا عند قراءتي أن الخديوي إسماعيل استمر حكمه خديوي، ثم ملكا لمصر، حتى وفاته بقصرعابدين. لم يعزله السلطان العثماني، ولكنه هو من راوده بدهاء، حتى حصل على مبتغاه، لتصبح مصر مملكة مستقلة، خارج نطاق حكم السلطان العثماني. سعى لإعمارالبلاد وتقدمها.. قناة السويس، التي عرف عن إنشائها أنه تم بالسخرة واستعباد العباد، أقرأ الآن عنها أنها من أعظم المشروعات التي قدمها الخديوي إسماعيل، وأنه حرص على متابعة العمل بها بنفسه، كما أمر بتقديم أفضل رعاية للعاملين. وفي حفل الافتتاح، قدم خديوي مصر عطاياه لكل من شارك في حفر القناة،

ثلاثة أفدنة زراعية لكل عامل، وأزيح الستارعن مسلة عملاقة، نقش عليها أسماء العاملين، تقديرا لعملهم العظيم وتخليدا لذكراهم على مر السنين.

عرفت أن الخديوي امتنع نهائيا عن اقتراض الأموال من الدول الأوروبية، وقام -بمساعدة العقول المصرية- بجدولة الديون وسدادها.. يسطرالتاريخ الجديد أن الملك إسماعيل قام ببناء مصر الحديثة، على أسس وقواعد صلبة، لا يقوى أحد على كسرها، حتى إن الملوك من أبناء وأحفاد إسماعيل، كانوا دائما يذكرون أن إسماعيل مازال يرشدهم من قبره.

فشلت جميع محاولاتي للبحث عن معلومات تخص الملك فاروق، آخر ملوك عائلتي، الذي عزل بعد انقلاب ضباط الجيش!.. اختفى فاروق، ليس له وجود. التاريخ الجديد يتحدث عن الملك فؤاد، ويذكر أنه تزوج الأميرة شويكار، وأنجب ابنة واحدة، وأنه لم يتزوج مرة أخرى بعد انفصاله، وأن حكم البلاد انتقل إلى الأمير محمد علي ولي العهد، وتتابع انتقال الحكم، حتى وصوله إلى الأمير إبراهيم، والد يوسف، الذي أصبح ولي العهد وملك مصر القادم!

حجر الزمن جعل من يوسف، الشاب سليل العائلة المالكة السابقة، الذي يعمل بإدارة الاستثمار بأحد البنوك الأجنبية، أميرا وولي عهد وملك مصر القادم. يستحق يوسف الكثير، ولكن ما يحزن قلبي قسوته. منذ عودتي وأنا أحاول الاتصال به، ولكن دائما أصطدم بسكرتيرالأمير، يخبرني اعتذار الأمير وانشغاله. يوسف زماني السابق كان دائم التواجد بحياتي.. لا يمرعلينا يوم دون لقاء.. ولكنه الآن يسعى هاربا، لا يريد لقائي أو سماع صوتي. يبدو أن أمامي طريقا طويلا وصعبا لإصلاح الأمور بيننا. لقد وعدت يوسف قبل رحيلي أنه لي، مهما تغيرالزمان.. ولكني الآن قررت تركه لبعض الوقت حتى يهدأ.

لم أشعر وأنا أقرأ عن أميرة الآثار، التي تعشق الحضارات والتاريخ أنها تختلف عني. أنا أيضا يتملكني الهوى لكل ما هو قديم وعتيق. الأميرة جانانيار، بداية ظهورها ومعرفة المجتمع بها كانت وهي لا تزال في الخامسة عشر من عمرها. أعدت دراسة لإقامة أكاديمية دولية لدراسة حضارات العالم، القسم الأكبر بها يكون للحضارة المصرية، وقامت بتقديم دراستها للملك، الذي سعد بها وأمر بتنفيذها. أصبحت جامعة الحضارات صرحا عملاقا، يقصده كل محبو دراسة التاريخ بالعالم أجمع.

كنت في مساء أحد الأيام بالشرفة، أتطلع إلى السماء الصافية والنجوم اللامعة.. أفكر، ويمر بعقلي كل ما قرأته وشاهدته والإنجازات التي حققتها. رغم سعادتي بطموحات جانانيار هذا الزمان، التي لا حدود لها، أرى الآن بوضوح أن يوسف محق.. أهملت قلبها، ظنا منها أنه باق.. وثقت ثقة عمياء أنها ستعود، مهما طال غيابها، لتجده مازال يقف منتظراً عودتها.

قطع فكري صوت فاطمة، وهي تدخل الشرفة، وتجلس أمامي قائلة بوجه بشوش:

– أخيرا غادرت أميرتي غرفتها

ابتسمت لها قائلة:

– يشعرني حديثك معي أن عينيك مازالت تراني طفلة صغيرة

ابتسمت فاطمة وقالت:

حملتك بين يدي بعد ولادتك بوقت قليل، شعرت بدفء حبك يغمر قلبي، لم أفترق عنك منذ ذلك اليوم، في كل أسفارك أكون معك، حتى رحلاتك القاسية للتنقيب عن الآثار بالصحراء، لا أفارقك، رغم مشقتها.

أنت ابنتي جنى.. عندما علمت بعد زواجي أني لن أملك القدرة على الإنجاب، لم أحزن.. لدي جنى ابنتي وأميرتي، التي ستظل طفلة صغيرة بعيني، حتى وإن شاب شعر رأسها الجميل

ضحكت لقولها، ولكني توقفت سريعا، وسيطرالحزن على قلبي وأنا أسأل:

– أين أمي؟! لماذا لا تهتم لرؤيتي حتى الآن؟.. عشرة أيام، وكل ما حصلت عليه مكالمة تليفونية واعتذار.. كيف لها التحمل أن تقيم بالأسكندرية وأنا هنا بمفردي؟

ظهر تأثر شديد على وجه فاطمة، وهي تقول:

– لم تكن الأميرة مليكة تقوى على الابتعاد عنك للحظات وأنت صغيرة. ولكنه التعود حبيبتي.. لقد بدأت مبكرًا.. لم تصبحي أميرة الآثار بين ليلة وضحاها، ولكنك بدأت المشوار وأنت صغيرة. سعيك لبناء جامعة الحضارات، أسفارك لكل بلاد العالم، وإنشاء متاحف لعرض الآثار المصرية، والتنقيب عن الآثار.. الأميرة مليكة كانت تحترق لابتعادك الدائم عنها، ولكنها لم تجعل حبها وشوقها لك يقف عقبة أمام طموحك، واعتادت مع الوقت على ابتعادك.. ولكنها تحبك حبا عظيما

كلمات فاطمة لم تقنعني.. فأول أمر خطر بذهني، أنه كان لها أن تتبعني وتظل إلى جواري، حتى وإن ذهبت بي طموحاتي لأقاصي الأرض، فهي أمي وأنا ابنتها الوحيدة. وكأن فاطمة تقرأ ما يدور بعقلي، عندما خطر لي أبي، فهو أيضا لم يهتم لرؤيتي حتى الآن، قالت:

– الأميرعزيز يتحمل أعباء ثقيلة، كونه أميرالأسكندرية

أعلم أنها تحاول التخفيف عني بقولها، ولكني تساءلت:

– ما الذي يعنيه كونه أميرالأسكندرية؛ هل هو حاكمها؟

أجابتني: لا، حكام المدن في مصر يتم انتخابهم كل أربع سنوات. ولكن أمير المدينة هذا تقليد ابتدعه الملك إسماعيل منذ أعوام طويلة، حيث أوكل لكل أسرة من أسر العائلة المالكة الإشراف على إحدى المدن، والاهتمام بتطورها حضاريا. وكبير العائلة يحمل لقب أمير المدينة، ويورث لأكبر أبنائه من بعده. ليس لأميرالمدينة أي سلطات في إدارتها، فهذا حق للحاكم فقط. والدك يحمل أعباء كونه أمير العاصمة الثانية لمصر، ويسعى جاهدا لتطويرها وتجميلها، لتحمل لقب مدينة عالمية. مشروعك لإقامة فندق ومطاعم أسفل مياه بحرالأسكندرية، إطلالتها على الآثار الغارقة، عند انتهائه قريبا، سوف يساعد في تقدم تصنيف المدينة عالميا. وكل هذه المشروعات تتم بمجهودات الأمير وعائلته، وتبرعات رجال الأعمال، وإيرادت الأوقاف الخاصة. خزانة المملكة لا يحصل منها أمراء المدن على جنيه واحد

كانت فاطمة تتحدث دون توقف، تذكر أعباء أبي ومسئولياته، وكيف يجاهد لإحداث التوازن بين أعماله الخاصة وتحمل الأعباء الموكلة له، كونه أمير الأسكندرية. تسطر كلمات الحب والحنان والعشق كالشعراء، لتؤكد حب أمي واهتمامها بي.. أستمع إليها، وعقلي ينكر كل الأسباب، ولكن عليّ تقبل واقعي الجديد.

-٧-

قضيت ما يقرب من شهر داخل حدود شقتي، لا أغادرها، حتى استيقظت صباح يوم، يتملكني شعور قوي بالنشاط والهدوء.. الصفاء ينبسط على عقلي، أنار بصيرتي، لتتضح أمور كثيرة. قررت أن أبدأ حياتي، وأتبع خطى أميرة الآثار، وسوف أسلك كل درب لإصلاح علاقتي ويوسف.. لن أنشغل عن أمي وأبي بعد اليوم، سأتبع طموحي، ولن أهمل أحبائي. وكعادتها فاطمة، ترى ما يدوربعقلي رؤيا العين. دخلت مسرعة وهي تقول:

- أصدقاؤك بالخارج، يطلبون لقاءك.. نورسان وفارس ومرادهم، أقرب الناس لك. اخرجي لهم، واعلمي أني سأحدث هند، لتعيد ترتيب أعمالك حتى اليوم، وهي تغطي غيابك، وتسيِّر كل شيء؛ ولكن آن الوقت لتعود الأميرة لمباشرة أعمالها.. انتهى وقت العزلة

ابتسمت لطريقة حديثها، ثم تساءلت: من هند؟

أجابت: مديرة مكتبك، ومن أقرب الناس لك.. وفية، أمينة، تحبك بصدق. كان لقاؤك الأول بها منذ عشرةأعوام، في حفل يقام سنويا لتكريم الحاصلين على منحة أمير الأسكندرية، التي يقدمها الأميرعزيز إلى مائة من طلاب المرحلة الثانوية، لاستكمال دراستهم الجامعية في الخارج. كانت

هند أحد هؤلاء الطلبة، حصلت على منحة لدراسة الإدارة بجامعة كامبردج. ولأن لها شخصية لطيفة مهذبة، أوليتها رعايتك حتى تخرجها، وبعد عودتها لمصر قمت باختيارها سكرتيرة خاصة.. انتهى التعريف بهند، والآن استعدي للقاء أصدقائك

اتجهت فاطمة لمغادرة الغرفة، ولكني قلت:

- لم أشعر للحظة واحدة أن الدهشة أصابتك، أو الحيرة لتبدل أحوالي وعدم قدرتي على تذكر أبسط الأشياء، حتى أنت لم أعلم من تكونين.. أصبحت شخصا مختلفا، ليس له صلة بأميرتك الصغيرة

اقتربت وجلست إلى جواري، وقالت بصوت دافىء:

- أنت أميرتي الصغيرة، روحك كما هي.. ملامح وجهك، ابتساماتك، ضحكاتك، حتى حزنك وبكاؤك.. دهشتك، نظرات عينيك وحديثهما الصامت.. كل شيء كما هو لم يتغير؛ فقط أصابك بعض التشويش، فقدان للذكريات، والسبب أن حبيبتي جنى عنيدة، رأسها حجر، تملكها الهوس وقامت برحلة جنونية.. لكن لا يهم.. فاطمة هنا معك، لتذكرك بما نسيت

قامت من مجلسها وهي تبتسم وأكملت قائلة:

- أسرعي يا أميرتي، لا يليق ترك أصدقائك بمفردهم أكثر

أتابعها وهي تغادر الغرفة، حتى أغلقت الباب. أشعر بمزيد من الراحة والأطمئنان بعد حديثها الحنون.

***

عند وقوع عيني على فارس ونورسان ومراد، غمرت بالسعادة. أسرع ثلاثتهم نحوي، واحتضنوني معا. نحن الأربعة أقرباء وأصدقاء مقربون، منذ

الطفولة لم نفترق أبدا، كل منا كتاب مفتوح للآخر، أعرفهم كما أعرف نفسي

ضحك مراد قائلا:

– عزمت أمري على اقتحام غرفتك وإخراجك منها بالقوة. لقد اشتقنا لك كثيرا جنى

قال فارس:

– نحن جنى نتشارك كل شيء، نفرح معا، نحزن معا.. حتى الخوف الذي أصابك لتغير المستقبل والواقع الذي اعتدتِ عليه، يجب أن نتشاركه معك

نظرت له بدهشة قائلة: هل تعلم بما حدث؟!

قالت نورسان:

– جنى، نحن الأربعة ندرس ونبحث لأكثر من ثلاث سنوات، قبل استخدامك حجر الزمن وعودتك الفريدة للماضي. وكل ما توصلنا له، أكد أن العودة إلى الماضي قد تغير المسقبل، وتحدث تغييرا في التاريخ. حقيقة أن كل ما توصلنا له معتمد على الأساطير والحكايات وأبحاث غير مؤكدة، ولكن عقولنا تصدقها، كما صدقت بحجر الزمن عند رؤيته يتوهج قرب القرينة. نحن على ثقة أن الواقع تغير بالنسبة لك، والدليل ابتعادك وهروبك وعزلتك، التي اتخذتها منذ عودتك

أردف مراد:

– عقلي لا يصدق أن جنى صديقتي لا تعلم من أنا.. لا أصدق مثلهم بتغير المستقبل.. أنت فقط تعبة مشوشة، وكنت بحاجة للراحة، لهذا ابتعدتِ

أخذت نظرات عيني تتفحص ملامح كل منهم.. أراحني كثيرا حديثهم، وأزال عن كاهلي حملا ثقيلا، كنت أحمله وحيدة منذ عودتي. لهذا، علقت عيني بالنظر إلى مراد وأنا أقول:

- أعلم من تكون أنت.. مراد صديقي وأخي

ثم أشرت إلى فارس ونورسان، وأنا أردد أسماءهم، وتابعت أقول:

- تغير كل شيء.. لم أعد للواقع الذي غادرته، ولكن أنتم في هذا الواقع المتغير كما أنتم بواقعي السابق، أقربائي وأصدقائي المقربون.. وهذا يكفي لأشعر بالأمان

التقط مراد نفسه، وهو يبتسم، ثم قال:

- وهذا يكفي بالنسبة لي أيضا

اقتربت نورسان واحتضنتني، ثم قالت:

- قصي علينا كل شيء.. ما الذي تغير؟

هنا قال فارس: لنخرج جنى من البيت أولا.. مر وقت طويل وهي حبيسة بين جدران أربعة

قال مراد: أتفق معك، اقتراح جيد.. إذا لنذهب إلى مزرعتي في السودان. لقد وصل لها منذ أسبوع زوج من الفهود، لم أرهم حتى الآن

ضحكت نورسان وهي تنظر نحوي قائلة:

- هل مراد في واقعك السابق كان محبا وعاشقا لامتلاك الحيوانات المفترسة، كما هو الآن؟

ضحكت وأنا أجيب:

– لا، لم يكن مراد فيما مضى أميرا أو يملك مزرعة في الأساس.. كان شابا حاد الذكاء من عباقرة التكنولوجيا والحاسبات

قال مراد:

– ومازلت عبقريا بكل ما يتعلق بالتكنولوجيا والحاسب، بالإضافة لكوني أمير، وأملك مزرعة تشبه المحميات الطبيعية، تضم مجموعة مختلفة ونادرة من الحيوانات، يعمل بها فريق على أعلى كفاءة من الباحثين، للحفاظ على بعض السلالات المعرضة للإنقراض

تساءلت: وهل مازالت السودان جزء من المملكة المصرية؟!

أجابني فارس:

– لا، انفصلت السودان منذ أعوام، ولكنها حليف هام وقوي، وشريك في تحالف دول حوض النيل، كما أنها تملك أكبر ثاني محطة للطاقة الشمسية، والتى أنشئت بخبرات ومساعدات مصرية

أجد صعوبة في استيعاب كل ما أسمعه.. السودان في واقعي السابق كانت بلد يسيطر عليها صراع وانقسامات، عصفت بها تماما؛ وها هي الآن يتحدثون عنها وكأنها في مصاف الدول الكبرى المتقدمة، لهذا قلت بدهشة:

– الكثير من الأمور تغيرت.. ليس لي فقط، ولكن في كل شيء

وعلى صوت رنات هاتف محمول، وقف فارس قائلا:

هيا لنذهب، لقد وصل قائد اليخت، واستقر بالمرسى القريب من هنا. سوف أصطحبكم اليوم بجولة نيلية، لقد أعددت لها منذ الأمس، ولست في انتظار لاقتراحات مراد وحيواناته المفترسة

وقف مراد معتدلا، ورفع يده مؤديا التحية العسكرية، وهو يقول: تمام يا أفندم

ضحكنا كثيرا لفعله، ثم اتجهت بصحبة أصدقائي لمغادرة البيت، لأول مرة منذ عودتي، محتمية بمحبتهم.

***

وعلى صفحات نهر النيل، سطرت لأصدقائي الكثير مما كان يحمله زماني السابق، وأخبرتهم بالسبب الذي جعل من عودتي إلى الماضي ضرورة حتمية. كانوا يستمعون بانتباه، ويعلقون على حديثي، تارة بكلمات مازحة، وتارة أخرى بكلمات متألمة حزينة.

التزمت الصمت لفترات طويلة، يجذب عيني ما أراه على جانبي النيل.. ناطحات السحاب الأنيقة المطلة على نهر النيل.. اللون الأخضر الذي يزين جانبي الشاطىء.. المياه التي مازالت تحتفظ بلونها النظيف الشفاف. ولكن أكثر ما أثارحيرتي، وأنا أدقق النظر للطرقات متسائلة: أين السيارات؟ الاختناقات المرورية في مصر ليس لها مثيل بدول العالم أجمع

أجابني فارس: لدينا داخل طبقات الأرض الكثيرمن الأنفاق المخصصة للسيارات، شبكة أنفاق عملاقة تغطي كل الإتجاهات. كما توجد أنفاق للقطارات السريعة، تغطي القطرالمصري كاملا.. أيضا أنفاق خاصة للمرافق العامة، تضم وصلات شبكات المياه والصرف، وخطوط الهواتف، حتى الكهرباء لها أنفاق خاصة تحت الأرض

ابتسمت نورسان قائلة: مصر ملكة الأنفاق الأرضية

ابتسمت منبهرة: أتخيل الآن طبقات الأرض وهى تشبه مملكة عملاقة للنمل.. ألا تجعل كل هذه الأنفاق الأرض هشة قابلة للانهيار؟

قال فارس: لا، لم تحدث حادثة انهيار واحدة، منذ بدء إنشاء الأنفاق. طبقات الأرض، جنى، عميقة. وبفضل التطورالعلمي المستمر، يمكن حفر أنفاق عديدة وآمنة. مصر تملك عقولا خارقة في التخطيط وعلوم الأرض والهندسة، تعاونهم معا دائما يخلق ما يبهر العالم

قلت وأنا أشعر بالفخر: أصبحت مصر دولة قوية متقدمة مثل أمريكا

ضحك مراد وهو يقول: أمريكا!...وهل يمكن أن تواجه أمريكا المملكة المصرية وحلفاءها؟! نحن أقوى.. مصر بلد الحضارات والتطور العلمي، الذي نشهده على مر العصور بأيادي العباقرة المصريين.. كيف نقارن بدولة مثل أمريكا؟!

قلت: أعلم أننا نملك التاريخ والحضارة، لكننا في زماني السابق لم نحسن استخدام ما لدينا، بل وصل الحد ببعض الأشخاص، ممن لهم أفكار متطرفة دينيا، أن حرموا الآثار التي خلفتها الحضارات المتعاقبة على أرضنا، وشبهوها بالأوثان، وأباحوا هدمها.. في واقعي السابق، لم نكن نملك تطورا علميا، وكانت أمريكا هي القوة، حتى وإن كانت بلدًا بلا أصل أو تاريخ

تنهد مراد..

– تغير الواقع جنى.. مصر هذا الزمان بلد قوية، وتقدمية، ولها تاريخ تحافظ عليه، ويفتخر شعبها بكل قطعة خلفها لنا من أثاره

أكمل فارس:

– قوة المملكة المصرية أسس لها منذ عهود، في تحالفات قوية أنشئت، مثل تحالف دول حوض النيل، الذي يضم دولًا مثل مصر والسودان وأثيوبيا، والكثير من الدول التي تقع على نهر النيل، وهو من أقوى

التحالفات في العالم، وملوك الطاقة الشمسية - كما يلقب- لإنشائه أكبر محطة لتوليد الطاقة الشمسية هنا في الصحراء المصرية، وتبعه بمحطة أخرى كبيرة في السودان، وعدد من المحطات تتابع إنشاؤها في دول التحالف. أصبح التحالف يوفر الطاقة لأعضائه من الدول، ويصدر لدول الجوار، حتى وصل مع مرور السنوات إلى تصديرالطاقة الشمسية للدول الأوروبية واحدة تلو الأخرى. تحالف حوض النيل الآن هو ممول القارة الأوروبية كاملة بأهم مصادرها للطاقة

ضحك مراد قائلا: بإمكانك القول إن مصر بكلمة واحدة تُظلِم القارة الأوروبية كاملة، فكيف لأمريكا القدرة للوقوف أمامنا؟ هذا ضرب من المستحيل

أتابع حديث أصدقائي عن مصر الجديدة وقوتها، كطفل يتابع فيلم رسوم متحركة شيق. حتى قطع حديثنا ظهور رجل يرتدي حلة أنيقة، اقترب وتوقف أمامي، وقدم لي هاتفا محمولا وهو يقول:

- معذرة سيدي، ولكن السيدة فاطمة تريد محادثتك بأمر هام

التقطت الهاتف وحدثت فاطمة، أخبرتني بوصول دعوة من جلالة الملكة، تطلب لقائي الساعة التاسعة مساء اليوم بجناحها الخاص بقصرعابدين. أخبرت أصدقائي بالأمر، وبضرورة عودتي سريعا للبيت للاستعداد، فارتسم على وجوههم ما أثار القلق والشك في قلبي.

-٨-

توقفت كثيرًا وسط غرفة كبيرة، أطالع الكثيرمن الملابس والأحذية والحقائب الأنيقة المرتصة بدقة، وكأنها أحد غرف العرض ببيت أزياء فرنسي شهير. عجزت نهائيا عن الاختيار.. كل ما تراه عيني جميل أنيق، ولكني أريد ثوبا يأسر الألباب.. يخطف الأنفاس.. لعلي ألتقي ويوسف، وأحاول إصلاح ما فسد. ومع دخول فاطمة الغرفة، سرت عيني بما تحمله بين يديها، فهدأت حيرتي. أسرعت نحوها مبتسمة وأنا أقول:

– فاطمة!.. أنت ملاكي الحارس

أخذت أتفحص الثوب القصير الأنيق، بلونه الأزرق الخلاب، والماسات الصغيرة تزينة برقة وإبداع. ضحكت فاطمة وقالت:

– مازال ذوق فاطمة يحوز إعجاب أميرتها الصغيرة.. استعدي سريعا، السيارة والسائق بانتظارك

وفعلا انتهيت سريعا، ووقفت أمام المرأة أنظر وأقيِّم بعين ناقدة، حتى دخلت فاطمة من جديد والتفت أنظر لها قائلة:

– أهناك شيء ناقص؟

قالت مبتسمة: عزيزتي، جمالك وبهاؤك ينير الغرفة.. أثق أنك الليلة سوف تأسرين قلب كل من تراه عينك، وبالأخص أميرك يوسف

اصطحبتني حتى السيارة، التي انطلقت مسرعة في طريقها إلى سراي عابدين. وعقلي منشغل بالكثير. أثق أن الملكة طلبت لقائي لأمر يخص علاقتي ويوسف.. لعلها علمت بما حدث، وأرادت التدخل وإصلاح الأمر. أتساءل إن كانت لاتزال هي نفسها فريدة هانم، السيدة الحنون الرقيقة الحالمة، كما عرفتها في زماني السابق، أم غيَّرها الزمان الجديد. أرسلت عيني عبر نافذة السيارة، لترى أمورًا لم يكن ليصدقها عقلي، إذا أُخبِر بها. الطريق ممهد نظيف، أرى الناس يتجمعون أسفل إشارة المرور، ويلتزمون قواعد الأمان عند عبور الشارع.. الأشجار والأزهار في كل اتجاه، ونوافير المياه والمسلات والتماثيل. مع عبور السيارة كوبري قصرالنيل، جذب عيني وقوف تجمع من الناس لمشاهدة نافورة مياه راقصة كبيرة، مشيدة بنهر النيل. أمور كان من المستحيل حدوثها فيما سبق، ولكن الآن، وفي هذا الزمان، مصر جميلة أنيقة خضراء، زادها التطور التكنولوجي جمالا وحداثة. أعلم أن الملوك دائما يسعون بكل جهد لتخطيط وتنظيم وتجميل بلادهم.. الفن والجمال يشغل حيزًا كبيرًا في عقول الملوك، ولكن من يصل إلى جمال بلاده ورفاهية شعبه، يكون ملكًا بحق؛ فهل توصَّل ملك مصر لهذا؟ نعم رأيت الجمال، ولكن لا علم لي بأحوال الشعب حتى الآن.

انشغل عقلي بالتفكير فيما تراه عيني، وبعدت كثيرا عن لقاء الملكة وما يخفيه، حتى توقفت السيارة أمام أبواب قصرعابدين. كانت في استقبالي سيدة، ترتدي حلة رسمية أنيقة، مبتسمة الوجه؛ قالت:

– سمو الأميرة، جلالة الملكة في انتظارك بجناحها الخاص

اصطحبتني حتى قاعة الاستقبال بجناح الملكة، ثم غادرت وتركتني وحيدة انتظر. مر بعض الوقت حتى فتح الباب.. دخلت الملكة، وكان استقبالها لي بترحاب وود!.. أشادت بجمالي وأناقتي، ثم جلست وقالت:

- أعلم أن هناك خلافًا بينك ويوسف. أنا أريدك زوجة لابني جانانيار، لهذا اصلحي الأمور بينكما.

لم تكد الملكة تنهي قولها، حتى فتح الباب، ودخل يوسف. عندما التقت أعيننا، أدركت عدم علمه بوجودي بصحبة الملكة. وقفت الملكة وهي تبادره:

- الهروب ليس بحل يوسف.. تحدث واستمع، لتحل ما بينكما

غادرت، فجلس يوسف صامتا، عيناه لا تراني. اقتربت، وجلست إلى جواره، وبعد تردد بدأت أنا:

- يوسف، كم يؤلم قلبي أني سبب أحزانك.. استمع لي، لعلك تجد الغفران وتقبل الأسف

بوجه جامد كالحجر، التفت نحوي بعيون قاسية، تطلق الاتهامات بلا رحمة..

- أنا أعتذر يا يوسف لدي أسباب...

- ألم تشعرى بالملل؟ لأنني اكتفيت جانانيار..نفس الكلمات ترددينها دائما، وأنا أقبل الاعتذار وأقتنع بالأسباب، وسرعان ما يحل أمر آخر، لتقنعني الأسباب، وأقبل الاعتذار. ولكن الآن لن أقبل اعتذارًا، وأسبابك لا أهتم لسماعها.. انتهى كل شيء

نهض، واتجه بخطوات ثابتة نحو الباب.. ولكني أسرعت، ووقفت أغلق الباب بروحي، وأنا أقول:

- ماذا حدث لك؟! أليس بقلبك ما يوازي حبة رمل حب لي؟

نظرة عينيه الغاضبة، وهو يضرب الباب بقبضة يده، جعلت قلبي يرتعش خوفا وهو يقول بصوت حاد:

– قلبي بداخله حبات رمال صحراء العالم حب لك؛ ولكن أفعالك أحدثت ثقبا، جعل الرمال تنساب وتهرب، والعلاج الوحيد لإغلاق الثقب هو الابتعاد عنك، لعلي حقا أحتفظ بهذه الحبة من الرمال التي تبحثين عنها. لتكن ذكرى حب عظيم إذًا، فأنت الملامة جانانيار

الألم بصوته مزقني.. ماذا فعلت لأشعره بكل هذا الحزن؟.. ولكن أنا.. أنا لم أفعل شيئا، لقد كان يوسف عالمي، هدية غالية ميزت أنا بها دون نساء العالم، لطالما أخبرني أبي سعادته، فكيف أصبح شقاءه في هذا الزمان؟!

أمسكت يده بين يديّ وأنا أقول:

– فرصة واحدة فقط كل ما أطلبه رجاءً يوسف.. ليس بكثير.. ابحث وسط ذكرياتنا، ألا يوجد شيء واحد، حتى وإن كان صغيرا، لتحصل جنى على هذه الفرصة؟.. سوف تشهد بنفسك تغيرًا كبيرًا.. أعدك بهذا

أخذ ينظر لعمق عيني ثم قال:

– أجيبيني بصدق.. أين موقع يوسف بين اهتماماتك؟

أسرعت قائلة دون تفكير: الأول والأهم

قال وهو يبتسم ساخرا:

– الأول والأهم!.. كاذبة. أضاف لك السفر عبر الزمن صفة جديدة، الكذب.. موقع يوسف يأتي بعد عملك وطموحك، وأيضا جنونك يجب ذكره.. بمجرد أن يسيطرعلى عقلك أمر ما، ويشغل فكرك، تكونين أقرب للجنون من العقل.. قضاء شهور متصلة في الصحراء بحثا عن الآثار أمر

مقبول نوعا ما.. أسفارك التي لا نهاية لها تقبل.. ولكن جنونك الأخير واستخدام حجر الزمن والعودة إلى الماضي، ولا يهم رأي يوسف أو اعتراضه!.. رغباتك هي الأولى والأهم بحياتك وليس يوسف

أستمع له وقلبي يحترق، ووجهي تغرقه الدموع، ولا أجد كلمة واحدة أعبر بها عن أسفي، لهذا قلت:

- أنا...أنا أحبك

قال: وأنا أحبك أكثر، وللحفاظ على هذا الحب سوف أغلق عليه قلبي بإحكام، وآخذه وأرحل بعيدا عنك، لأن الاقتراب منك سوف يدمره.. يقتله

سحب يده بهدوء من بين يديّ، وأخرج خاتم الخطبة من إصبعه ووضعه في يدي وهو يقول:

- أنت حرة.. أطلقي جناحيك تجاه طموحاتك.. تفرقت الطرق، وآن لكلا منا أن يسلك اتجاها مغايرا للآخر.. أتمنى لك السعادة جنى

أسرع وغادر المكان، وأنا أنظر لخاتمه بيدي، والدموع تتساقط عليه كالغيث لإحيائه.. بلا أمل!

-٩-

مازلت على قيد الحياة.. حقا كان يوسف الهواء الذي أتنفسه لأعيش.. روحي وفارسي النبيل أكسير الحياة.. بدونه أموت وتكون نهايتي.. ولكن عجبا، مازال قلبي ينبض، والكرامة تمدني بالقوة والتماسك. مر ما يزيد عن عشرة أيام على ليلة الانفصال المشئومة؛ لا أنكر، ليلتها تسلل لروحي ألم عنيف، وشعور بالانهيار والانكسار أخذ يزحف ليدمر روحي ويمزقها. عند عودتي إلى البيت، كان أصدقائي فارس ومراد ونورسان، في الانتظار لمواساتي، يعلمون بقرار يوسف منذ وقت. حضرت أمي كذلك مسرعة من الأسكندرية، بعد أن أخبرتها الملكة تليفونيا بما حدث. عندما وطأت قدماي البيت، لم تر عيني سوى أمي وخاتم يوسف بيدي. سكنت حضن أمي الدافئ، لم أغادره لأيام. كانت تردد بصورة مستمرة أني لست ملامة، وأن العمل والطموح حق مكفول للجميع، ولا يصح أن يعاقب إنسان على نجاحه.. في نظرها هو المخطئ، وأنا ابنتها، ترى فيّ الكمال دائما. حتى أبي، دخل يوما غرفتي، وجلس أمامي على الفراش وقال:

- لم كل هذا الندم الذي أراه بعينيك؟ طموحك وأحلامك التي سعيت بكل قوة لتحقيقها لا تستحق أن تلام. أعلم أن ما يمرعليك الآن أشبه بإعصار قوي يسعى لقهرك؛ ولكن ابنتي قوية، وسوف تقاوم وتقف على قدميها سريعا.. قاومي جانانيار، قاومي حبيبتي.. عودي كما كنت وأقوى مما كنت.

غادر أبي.. لا أحد يفهم حقيقة ما يدور داخلي. أنا أحصد نتائج أفعال لم تقترفها يداي، وسؤالي لنفسي أكان من الأفضل عودتي، لأجد زمانًا جديدًا، به جانانيار أميرة يشغل عقلها الملبس والترحال وإقامة الحفلات، أم هذا الواقع الذي تعمل به جانانيار لخدمة بلادها وتسعى لنشر الحضارة المصرية في كل بقاع العالم. لم أطل التفكير، أنا أفضّل هذا الزمان، كوني أميرة الآثار، التي تقدرها بلدها ويحترمها العالم.. أصدقائي وأسرتي يجمعون على خطأ يوسف؛ كيف له محاسبتي على سعي لتحقيق أحلامي؟! ولكن ما الذي أراه أنا؟ على من يقع الخطأ؟...أنا؟.. يوسف؟.. أم كلانا مخطىء في حق الآخر؟

السعي خلف الأحلام والطموح، وإهمال الأهل والأحباب خطأ أعترف به، عيب لا أنكره.. أميرة الآثار بشر وليست ملاكا، ويوسف ليس ملاكا أيضا.. الجميع بشر يخطئ ويصيب، ولكن أليس من حق المحب أن يتقبله حبيبه كما هو؟.. لم يتقبلني يوسف، أيقن أن بي عطلا جسيما، لا يمكن إصلاحه، وقرر التخلص مني. لم يسمح أن أحاوره وأخبره بحقيقة ما حدث، بل عقد محاكمته، وكان هو الضحية وأنا المتهم، ونصب من نفسه قاضيا، وأصدر حكما بموتي، دون أن يستمع كلمة علها تحمل براءتي.. ظلمني بقسوة، ولن أستمر أنا أيضا في ظلم نفسي أكثر من هذا.

قبلت طلب أبي بالعودة بصحبته إلى الأسكندرية، والإشراف على الحفل الكبير الذي سيقام لافتتاح قصر كليوبترا، وإطلالته على الآثار الغارقة.. العمل كفيل أن يساعد على النسيان كما آمل.

أغرقني الجميع في بحور من الحنان: أمي وأبي وفاطمة؛ حتى أصدقائي تركوا أعمالهم وحضروا للإقامة بالأسكندرية.. الحزن ما زال يتملك قلبي،

ولكني قررت التماسك أمام الجميع.. لن أقبل بتحول الحنان إلى شفقة على حالي؛ وحقا كانت نصيحة أبي.. العمل هو أفضل طريق للنسيان. أشغل وقتي تماما في الإعداد للحفل الكبير، ووجدت في هند، مديرة مكتبي، عونا كبيرًا.

شعرت بسعادة غامرة تخترق قلبي، وأنا بداخل الغواصة الصغيرة، تحملني إلى قاع البحر، حتى توقفت بمرساها داخل الفندق الغارق.. فندق قصر كليوبترا، الذي يتخذ هيئة معبد روماني، علمت أنه تم بناؤه كغواصة عملاقة، بإمكانها الحركة واصطحاب النزلاء بجولة في قاع البحر. الآثار الغارقة، وإبداع الإضاءة التي تحيط بها يظهرها بوضوح، وبمشهد يكتنفه الغموض، ما زاد من سحرها. زاد من سعادتي واعتزازي معرفتي أن كل ما تراه عيني وتلمسه يداي تم إنشائه بأيدٍ مصرية خالصة.

اقترب موعد الافتتاح.. شهر بأكمله ونحن نسابق الزمن، ليخرج كل شيء رائع وبراق يأسر العيون. أرسلت الدعوات إلى كل ملوك ورؤساء العالم، وإلى العديد من الشخصيات العامة.. تم الاتفاق مع شبكات إعلامية كثيرة، لتغطية الحدث ونقله للكون بأسره.

صباح يوم الافتتاح، استيقظت باكرا، وذهبت للاطمئنان على سير العمل. كل شيء معد ومرتب كما خطط له، فارتاح قلبي، وعدت إلى بيتي للاستعداد للحفل.

ما يثير العجب، أن كل المحيطين بي لا يشغل عقولهم اليوم سوى أمر واحد: لقائي ويوسف في حفل الليلة، فمن المؤكد حضور ولي العهد بصحبة الملك والملكة لافتتاح الفندق. حقيقة أن عقلي كان يفكر في هذا الأمر منذ أيام وأتساءل كيف سألتقي يوسف.. كان بالأمس القريب لقائه

يطير له قلبي فرحا، ولكن تبدل الحال اليوم وأصبح لقاؤه مؤلما، أسعى للهرب منه

النصائح التي حصلت عليها كانت عونا كبيرا، لتوضيح الرؤيا أمام عيني، ومساعدة على صفاء عقلي. بدأها فاطمة، عندما أحضرت لي رداء الحفل. كان ثوبا أنيقا رائعا وبسيطا بنفس الوقت. تفحصته، بينما تقول فاطمة:

– الليلة سوف تأسر أميرة الآثار قلوب الجميع، بجمالها وأناقتها. وقلبي يخبرني أننا سنشهد خطبتك قريبا.

نظرت لها، وأنا في حيرة من أمرها.. منذ عودتي من الماضي، ومعرفتي بفاطمة، وأنا أشهد لها بالعقل، فما الذي تتحدث عنه الآن؟ خطبتي!

تحركت، لأبتعد عنها؛ ولكنها قالت:

– انتظري إلى أين أنت ذاهبة؟ لا تهربي.. أعلم أن الوقت مازال مبكرا، ولكن لا تغلقي الأبواب التي ستفتح أمامك الليلة

قلت لها بحدة:

– أي أبواب فاطمة؟.. لقد غادرني رجل أحبه منذ عشرة أعوام.. قلبي وعيني وروحي مشبعين بعشق يوسف، لا أرى رجلا غيره، ولن أرى طوال حياتي

قالت بصوت حنون:

– لا حبيبتي، هذا تفكير خاطئ، الحياة مشوار طويل، وما يهونها هو سيرك بصحبة زوجك وأولادك. الوحدة قاسية، لا تفرضيها على قلبك وروحك.. يوسف، إذا لم يتزوج اليوم، ثقي أنه سيتزوج في الغد القريب،

سيفتح قلبه لحب جديد، أثق في هذا.. وقتها سوف يتملكك الندم على قلب أهداه صاحبه لك، فرفضته.. فكري جيدا وحكمي عقلك

غادرت فاطمة، وكلماتها تجذب عقلي إلى دوامة قوية، نجحت بصعوبة في الهرب منها، وشغل فكري بالحفل من جديد، حتى دخلت أمي غرفتي وهي تحمل علبة جواهر، فتحتها وهي تقدمها لي. كان بها عقد من الألماس، رائع.. أخرجته ووضعته على رقبتي، وأنا أنظر في المرآة

انحنت عليّ وقالت: هل أعجبك؟عندما شاهدته شعرت أنه ينطق قائلا جنى..جنى

ضحكت لقولها، وقبلتها وأنا أقول: إنه رائع، شكرا أمي

أمسكت يدي، وهي تجلس وتشير لي بالجلوس إلى جوارها، وأخذت تنظر لعيني ثم قالت:

– حبيبتي، الديوان الملكي، عندما أعلن انفصال الأمير يوسف ولي العهد والأميرة جانانيار عزيز، لم يعلن من منكما وراء الانفصال.. العائلة بأكملها لا يشغل عقولها غير معرفة من منكم أعلن رغبته في الانفصال عن الآخر. الليلة، سيسعى خلفك الكثيرون، وخصوصا أميرات العائلة، لمعرفة الحقيقة، فأريد منك التماسك. أن يرى الجميع أميرة الآثار قوية، كعهدهم بها دائما.. الهيئة التي يجب أن يراها الحضور الليلة، ستحمل الإجابة على أسئلة الجميع، وهي إجابة واحدة لا ثاني لها، أنت من ترك يوسف.. لن يخبر بها لسانك، ولكن ستؤكدها أفعالك

استمعت لحديث أمي دون تعليق، حتى غادرت. وفي نفس اللحظة دخلت هند، مديرة مكتبي الغرفة، وطلبت الحديث في أمرهام. أشرت إليها

لتجلس، وأذني مازالت تسمع كلمات أمي، حتى انتبهت إلى هيئة هند، التي تجلس خافضة رأسها، تحيطها هالة من التردد، وتلتزم الصمت. ابتسمت وأنا أقول:

- الصمت والتردد ليستا من صفاتك.. ألهذا الحد تبلغ صعوبة الموضوع؟

رفعت رأسها وهي تقول:

- ترددي للحرج، وليس لصعوبة الأمر

ابتسمت قائلة: هاتِ ما عندك، ليس بيني وبينك حرج

قالت: الليلة بالحفل، سوف يسعى خلفك.....

ضحكت وأنا أقاطع حديثها مكملة:

- الجميع...سيسعى خلفي الجميع الليلة

أكملت قائلة:

- الأكثر شراسة ستكون الصحافة والأعلام، والسؤال واحد، لن يكون عن إنجاز إقامة فندق ومطاعم بقاع البحر، ولكن ستدور الأسئلة جميعها عن الأمير يوسف، وسبب الانفصال. الحرية المطلقة، التي يكفلها القانون والدستور للصحافة والإعلام، تبيح لهم سؤالك وبصورة مباشرة؛ ولكن الحرية أيضا تتيح لك الابتسام وعدم الرد. أعلم أن الأمر شخصي وحساس، ولكن اسمحي لى أن أقول لا تدعي أحد يرى الحزن الذي يسكن عينيك. أنا أراه وبوضوح.. الابتسام والضحك أعلم أنهما قناع، يخبىء خلفه حزن كبير.

***

انفردت بنفسي لبعض الوقت، يراجع عقلي كلمات فاطمة وأمي وهند. جميعهن قدمن وصفًا للصورة التي يجب أن أكون عليها الليلة.. انتقيت وصفي الخاص من نصائحهن، الكرامة وعزة النفس تحتم عليّ حماية سر أن يوسف هو صاحب قرار الانفصال؛ أما الحزن الذي يسكن عيني فأمر طبيعي.. أنا بشر أشعر وأتالم، ولا أملك حيلة لإخفاء ذلك؛ ولكن يجب أن أترك لنفسي فرصة للاستمتاع بالحفل والإنجاز الكبير. زدت من اهتمامي بأناقتي، تصفيف شعري، وانتقاء الحلي التي أرتديها. ولأول مرة أخرجت التاج، الذي منحني إياه جدي الخديوي إسماعيل، ووقفت أمام المرآة أثبته على رأسي. أحببت الظهور الليلة بإطلالة يتذكرها الحضور لوقت طويل.

في سيارة فارهة، يقودها سائق أنيق، إلى مرسى الغواصات، وصلت حيث أعد بساط أحمر يقود إلى المرسى، اصطف على جانبيه مصورو الصحف والقنوات الفضائية. بمجرد أن وطأت قدمي البساط، اشتعلت فلاشات الكاميرات بكثافة بوجهي. حافظت على ثبات خطوتي، ورسمت ابتسامة على وجهي، تتبعني هند، حتى صعدنا معا الغواصة المعدة لاصطحابي لأعماق البحر وصولا إلى فندق قصر كليوبترا الغارق

أعدت هند لدخولي قاعة الاحتفالات بالفندق، ليسبق دخول الملك والملكة وولي العهد مباشرة. عند ظهوري أمام باب القاعة، علقت أعين جميع الحاضرين بي، وبدأ تصفيق حاد، دلالة انبهارهم بالفندق وإطلالته الفريدة. تحركت بخطوات هادئة مبتسمة، حتى توقفت إلى جوار أبي وأمي، التي منحتني ابتسامة فخر بي، زادتني ثباتا. تقدم ضيوف الحفل لتحيتي والثناء بكلمات رقيقة على مجهوداتي لإقامة هذه التحفة الحضارية الرائعة.

وصدق كلام فاطمة، رأيت الإعجاب في أعين الكثير من الأمراء، وسمعت أذني كلمات قاربت الغزل.. شعرت بالثقة تتسلل لتشبع نفسي، لهذا لم أهتز عندما طلبت هند مني التقدم بصحبة والدي لاستقبال الملك. وقفت أمام أبواب القاعة، وشعرت بالضيق وأنا أرى يوسف عند دخوله؛ ولكن توقف الملك أمامي وحديثه المشجع وإشادته بعملي، جعلني أشعر بالقوة. وعند توقف يوسف أمامي، ابتسمت وأنا أنظر في عينيه. لم ينطق بكلمة واحدة، فقط ابتسم وحنى رأسه، ثم اتجه إلى داخل القاعة

بدأ الحفل بعرض أوبرالي قصير، أعد خصيصا ليقص إنجازات كليوبترا وإنشاء مكتبة الأسكندرية، تبعه عرض راقص على ألحان موسيقى رومانية. كانت هناك أيضا كلمة ألقاها الملك، أغلب كلماها إشادة بمجهودات أمير الأسكندرية وأميرة الآثار. قلدني الملك وساما رفيع المستوى. سعدت كثيرا بالتقدير الذي ألمسه في نظرات الجميع، واستمر الحفل حتى منتصف الليل، بتنسيق وتنظيم على أعلى مستوى. لم يحدث خطأ واحد، وهند توجه العاملين، وتتابعهم باستخدام أداة اتصال تكنولوجية تضعها بأذنها، كأنها أحد رجال الحراسات الملكية.

حاورت الجميع، وأرسلت نظرات عيني مرحبة بكل من تراه، ولكني أمرتها ألا ترى يوسف. كانت روحي تشعر بوجوده، ولكن عيني لا تجرؤ على النظر تجاهه، حتى انتهى الحفل وأنا ألفظ آخر قدرتي على الاحتمال.. من داخلي كنت أطلالا موحشة، أشبه كثيرا الآثار الغارقة عند اكتشافها، ولكنها أكثر حظًا مني، وجدت من يرعاها ويؤنس وحشتها.

أخيرا، ها أنا بمفردي، بعد يومي الطويل وحفلي الساهر. يملؤني الرضا بالسعادة والفخر والإشادة في أعين الجميع، فلا أشعر برغبة في النوم. لهذا قررت قراءة جزء من رواية أهديت لي بالحفل. وقبل أن أجلس على

فراشي، طرق باب غرفتي، لتظهر نورسان أمامي، بوجه طفولي مبتسم وتقول:

- هل تسمح سمو الأميرة بالمبيت معها الليلة؟ رحل والدي وأخوتي للقاهرة، وأصبحت وحيدة

نظرت لها، وأنا أبتسم لعلمي السبب وراء رغبتها، وقلت:

- ولم لا.. سمحت لك

قالت، وهي تسرع الخطى وتجلس إلى جواري على الفراش:

- لا أشعر برغبة في النوم، وأرى أنك مثلي.. لنحكِ إذا.. الحفل رائع، جميع الحضور كانوا سعداء، وبالأخص عند تحرك الفندق سابحا في جولته لمشاهدة الآثار من كل اتجاه، و.......

وأخذت نورسان تتحدث وتتحدث دون توقف، وهي تصف الحفل، وإعجاب الأمراء بشخصي، وأنا أستمع لها ملتزمة الصمت، أنظر لعينيها وهي تخبر بحديث آخر. أمسكت يدها التي تحركها في كل اتجاه وهي تتحدث وقلت:

- نور، أنا بخير.. لن أقتل نفسي لأني ويوسف كنا كل في اتجاه كالأغراب الليلة

اختفت الابتسامة من وجهها، وحل الحزن وهي تقول:

- شعرت بالخوف.. تماسكك كان قناعا يخفي ألَمًا قويًا، أعلم هذا

اهتزت رأسي بالرفض وأنا أقول:

- لا، الأمر داخلي يختلف عما يشعر به الآخرون. أعلم أن الجميع على ثقة أنني أخفي وأكتم ألمًا عظيمًا، قد يسيطر عليّ ويفقدني صوابي. نعم قلبي يتألم، كطائر ذبيح يحاول التمسك بآخر لمعة ضوء، قبل أن تغلق عيناه على ظلمة أبدية. ولكن وسط هذا صراعًا آخر داخل عقلي الحائر.. بواقعي الجديد، كنت أعيش زمانا مختلفا، كانت مصر به على شفا حفرة.. الجوع والمرض الفقر والجهل هم عماد المجتمع وأساسه المتغلغل.. البعض كان ينظر للخلف، ويتمنى عودة مصر الأربعينات والخمسينات، أو حتى مصر الفراعين، بقوتها وحضارتها، والبعض الآخر كان يوجه ناظريه شطر بلاد أخرى، تركيا، إمارة دبي، بوقت قصير تحولت من النقيض إلى النقيض، وياليت مصر تصبح مثلهم في يوم من الأيام.

وفجأة أصبحت أحيا زمانا جديدا، تغير كل شيء.. أدار الخديوي إسماعيل دفته، وعدل المسار، لتبحر مصر في طريق يقودها إلى التقدم والرقي.

فى زماني القديم مثلا، احتل الإنجليز مصر لأعوام طويلة.. كان سعيهم بلا كلل للسيطرة على الدولة المصرية وخيراتها، ووجدوا ضالتهم عندما كثرت الديون، واضطر الخديوي إسماعيل لعرض جزء من أسهم شركة قناة السويس للبيع، وحصل الإنجليز على الأسهم، وكانت الشوكة التي جعلت دخولهم البلاد أمرًا ملحًا لحماية مصالحهم وحقوقهم. كانوا وباءً تفشى، ولم تتخلص البلاد من أثاره وما خلفه من أضرار جسيمة.

ولكن في هذا الزمان، لم يحتل الإنجليز مصر، لأن الخديوي حرر نفسه وبلاده من أغلال الديون، وتوقف عن الاقتراض، وبدأ يسطر تاريخا اعتمد فيه على مصر وشعبها. كل هذه الأفكار وغيرها دواء خفف عني كثيرا، وأخذني في اتجاه بعيد عن قلبي وما بداخله.

قالت نور، وعلامات الدهشة تسيطر على وجهها:

- احتلال إنجليزي لمصر!.. ما يذكره التاريخ الذي أعرفه هو الاحتلال الفرنسي لمصر، وأن الشعب أخرجهم زحفا على بطونهم، وكان هذا قبل تولي محمد علي باشا الكبير ولاية مصر. كيف لمصر، بلاد الحضارات، أن تقام على قاعدة من الجهل والفقر وينتشر بها الجوع والمرض؟!.. منذ أكثر من خمسين عاما، تم القضاء على الأمية، عندما أعلن الملك أن من سيتقدم لمحو أميته، سوف يحصل بعد اجتيازه الاختبارات النهائية، على حافز مالي يقدر بعشرة آلاف جنيه، كان مبلغا قيّما في ذلك الزمان. فأقبل الكثيرون متشجعين بالحافز المالي الكبير. خمسة أعوام فقط، وقتلت الأمية نهائيا. دستورنا يجعل التعليم إجباريا للجميع حتى سن الثامنة عشر، ومن يخالف يقع تحت طائلة القانون.. أتحدى وجود مواطن واحد لا يجيد القراءة والكتابة.

أما الفقر، كيف؟! ليس له مكان على أرضنا.. نحن بلد يمتلك رقعة زراعية شاسعة منذ قرون، نحافظ عليها ويتم زيادتها سنويا باستصلاح الصحراء، ولدينا صناعة متطورة جدا، وكل عام تنشئ المملكة مصانع جديدة.. من كثرة فائض المنتجات، أصبحنا أقوى البلاد المصدرة في العالم. عزيزتي، عامل النظافة بمصر يحصل على راتب شهري لا يقل عن الألف جنيه، أقوى عملة عالميا... الخمسين مليون مصري يعيشون حياة قائمة على العدل والمساواة، لا فرق بين أمير أو غفير

قاطعتها قائلة: ماذا!؟خمسين مليون نسمة فقط؟ وأين الأربعين الأخرى؟!

ضحكت نور..

- تسعين مليون! مصر بها تسعين مليون في زمانك السابق؟.. يبدو أن الحاكم في ذلك الزمان لم يطلق المبادرة التي أطلقها ملك زماننا هذا. بعد القضاء على الأمية نهائيا، كانت مشكلة التزايد في عدد المواليد سنويا، وخصوصا في الطبقات العاملة، لهذا أعلن في جميع أرجاء المملكة أن الأسرة التي تلتزم بإنجاب طفلين فقط، سوف يقدم لها حافز مادي قيم شهريا، حتى تخرُّج أبنائها وعملهم، كما ستقدم لهم المملكة الرعاية الطبية طوال حياتهم، والخدمات التعليمية بتكلفة تصل إلى ربع قيمتها، وعندما يبلغ أبناؤهم سن الواحد والعشرين، يحصل كل منهم على شقة هدية. كل هذه العطايا لا تقاوم. حقيقةً، بعض الأسر لم تلتزم، وحرمت من المزايا، ولكن في المجمل أغلب الأسر بالطبقة العاملة التزمت..

سعادتي بما أسمع لم تكن لتوصف.. مصر هذا الزمان هي العدل، والمساواة، والعلم، والحرية. لكنني وجدت تساؤلي ينطق قائلا:

- إذًا أين المشكلة؟.. الجنة في السماء، وموعدها الآخرة، وليست على الأرض مهما تغيرت الأزمنة!

رسمت نور ابتسامة على وجهها وهي تقول:

- معك حق، ومصر هذا الزمان لديها مشاكل وليس مشكلة.. لكننا - وأقصد الجميع: الشعب وحكامه- نسعى لحلها، ونواجهها بكل قوة، لعلنا في يوم من الأيام نخرق القاعدة، وتكون مصر جنة الله على الأرض

ابتسمت وأرحت رأسي على الوسادة، وأغلقت عيني وأنا أقول:

- كفى ثرثرة يا نور.. أريد أن أنام الآن، وأحلم بمصر، جنة الله على الأرض.

-١٠-

مرت أشهر عديدة، وأنا أتبع خطى أميرة الآثار، أباشر أعمال الحفر بالصحراء بحثا عن كنوز أثرية جديدة، أسعى لإقامة متاحف لعرض آثار الحضارة المصرية بكل بقاع العالم. صباح كل يوم أغادر بيتي، وأعود مساءً منهكة القوى.. أدخلت بنفسي وسط دوامة لا نهاية لها، ولكن رؤيتي لها الليلة، وإشعاعها بين الجواهر داخل الخزانة، جعلني أتوقف وأتذكر.. قلادة الزمرد الخضراء.. حجر الزمن.. رحلة الماضي التي أتت بي لحاضر جديد. تذكرت جدي إسماعيل، الذي غيَّر التاريخ.

أمرت السائق باصطحابي إلى مدافن الأسرة بمسجد الرفاعي.. دخلت ضريح إسماعيل أحمل الورود، تقديرا واعترافا بفضله.. جلست طويلا أتحدث معه، كأنه يراني. أتذكر حديثنا معا بحدائق سراي عابدين، كأنها بالأمس وليست ذكرى زمن بعيد. ابتسامته الساحرة، تفهمه لحديثي، سرعة بديهته، ذكاءه الحاد.. كان رجلا وحاكما، قلما يجود الزمان بمثله.

عدت إلى بيتي، واتخذت قراري بالراحة، في عطلة طويلة من العمل. أشعر بإرهاق جسدي وعقلي، وأريد الاختلاء بنفسي، وإعادة ترتيب أوراق حياتي بهدوء، ودون ضغوط. غادرت شقتي بجزيرة الزمالك، وأقمت بمزرعة العائلة بالريف. اختلف الريف المصري كثيرا عما كان في زماني السابق.. هو الآن أقرب ما يكون إلى الريف الإنجليزي.. مساحات خضراء

لا نهاية لها، البيوت الريفية بلونها الأبيض، وسطحها الهرمي الأحمر تسحر العين.. الهواء نقي براحة الزرع. أجلس لساعات طويلة أسفل شجرة سنديان عملاقة بحديقة المزرعة، لا يعكر صفو عقلي فكر.

حتى ظهرت أمامي هند صباح يوم تقول:

– شخص يدعى إياد صدِّيق يلح للقائك في أمر عاجل. أعلم أنك طالبت بعدم إزعاجك، ولكن طريقته وإصراره على مقابلتك جعلاني أشعر أن الأمر هام، لهذا أحضرته بصحبتي، وهو ينتظرك الآن

رفعت نظارتي الشمسية عن عيني، وأنا أقول بحدة:

– ماذا؟! الآن!

قالت: آسفة.. تقييمي أنه حقا يريد لقاءك لأمر هام

أسرعت هند تجاه البيت، وهي تكمل قائلة:

– سوف أعلمه بحضورك بعد قليل

ليس بي رغبة في لقاء أحد، ولكن ماذا أفعل أمام هند وتقييمها؟.. لهذا تمالكت نفسي، ودخلت للقاء الزائر الغامض.

عندما وقعت عيني عليه، شعرت أني أعرفه من قبل.. سبقت لي مقابلته؛ ولكن أين؟

قام عند رؤيتي، فرحبت به بوجه، جاهدت لأرسم الابتسامة عليه.. جلست على مقعد، وأشرت إليه بالجلوس. ابتسم وظل صامتا، وعلامات التوتر والقلق تسيطر على معالم وجهه لدقائق، حتى قال:

– اسمي إياد.. إياد صديق، حفيد إسماعيل باشا صديق.. جدي كان مقربًا من الملك إسماعيل رحمه الله. قد لا تعرف سمو الأميرة من يكون جدي، لأنه رجل من زمن بعيد

قاطعته قائلة:

– كيف؟! من لا يعرف إسماعيل باشا المفتش!.. ذكره التاريخ على أنه أدهى الساسة الماليين في عصره، كما أعلم أنه، وجدي الخديوي إسماعيل شقيقان بالرضاعة

قال وقد ظهر الارتياح على وجه:

– نعم، لقد أوكلت رعايتهما لسيدة واحدة، فأصبحا شقيقين بالرضاعة، أراحتني كثيرا معرفة سمو الأميرة بجدي وعلاقته بجلالة الملك إسماعيل، وهذا سوف يسهل كثيرا مهمتي

قلت بدهشة: مهمة!

قال: لديّ أمانة تخص سموك، ولأذكر من أرسلها لك، اسمحي لي ببعض الوقت، لأقص عليك أمرًا قد لا يصدقه عقل، ولكن أقسم أنها الحقيقة.. هل تسمح لي سيدتي؟

أثار فضولي، فأسرعت قائلة: تفضل

قال: وكل إلى جدي إسماعيل باشا المفتش وعائلته أمانة كبيرة، خزانة أنشأها جلالة الملك إسماعيل بقصر جدي، وأودع بها صناديق، كتب على كل صندوق اسم وتاريخ. سلم الملك مفتاح الخزانة لجدي قائلا: ورِّث المفتاح لمن تعهد فيه حفظ الأمانة من أبنائك، ليورثه بدوره لابنه، على أن

يقوم حارس الخزانة بفتحها في كل عام، فاذا وجد صندوقًا عليه تاريخ قد حل موعده، يقوم بتسليمه إلى صاحبه

تساءلت: صناديق! ماذا بداخلها؟!

أجابني: لا يعرف أحد.. إنها أمانة، وأفراد عائلتي يقومون بحراستها وتسليمها فقط

قلت له:

- أثق في هذا، ولكن ما أقصده أن إسماعيل باشا المفتش، وهو رجل يعرف عنه الذكاء الحاد، لن يمرعليه موقف كهذا دون سؤال

قال إياد: ترك جدي لنا ورقة، كتب فيها: عندما قمت بمساعدة الملك، بوضع الصناديق بالخزانة، أثارت فضولي التواريخ التي حفرت على الصناديق.. بعضها كان يمتد لمستقبل بعيد، كما أن بعض الأسماء لم تكن لأي من أبناء الملك أو أحفاده -على حد ما أعلم- لهذا تساءلت، فأجابني الملك أن مستبصرة رأت مستقبله وعائلته، وشاهد بعينه في بلورتها السحرية أمورًا ستحدث لبعض أفراد من عائلتها وأنه ترك لهم بداخل الصناديق رسائل ترشدهم للطريق القويم.

أخرج من حقيبة كانت إلى جواره صندوقا من صدف، وقدمه لي. رأيت اسمي محفورا عليه، وتاريخ العام. ابتسمت قائلة:

- إسماعيل يرشدهم من قبره...الآن أعلم كيف

قال إياد: الصندوق الخاص بك هو الأخير.. لا يوجد صناديق بأعوام قادمة، ولكن هناك هذا الصندوق

قدم لي صندوقا آخر، وهو يكمل قائلا:

– هذا الصندوق محفور عليه الملك فاروق الأول، ابن فؤاد، عجز جدي عن تسليمه لأحد، لأن جلالة الملك فؤاد كان له ابنة واحدة فقط من زوجته الأميرة شويكار، ولم يتزوج امرأة أخرى، ولم ينجب ذكورًا، لهذا كان قرارعائلتي تسليمه لك

تناولت الصندوق الخاص بالملك فاروق، فأنا فقط من تعلم من هو وما حدث معه. كنت أنظر للصندوق واسم فاروق محفور عليه، وشرد ذهني لتذكر تاريخ سابق، لم يعد له وجود. ثم نظرت إلى إياد متسائلة: هل سُلِّم صندوق لجلالة الملك فؤاد؟

أجابني: نعم أعد جدي إسماعيل باشا المفتش كشف، قيد به عدد الصناديق والأسماء والتواريخ التي عليها. هذا الكشف يتم توريثه مع مفتاح الخزنة، لمن يقع عليه تحمل أمانتها، وبالفعل هناك صندوق سلم لجلالة الملك فؤاد.

تمتمت هامسة: لهذا لا يوجد فاروق

تساءل بدهشة: ماذا؟!

ابتسمت قائلة بثقة: تعلم أنك شديد الشبه بجدك إسماعيل باشا المفتش، صورة طبق الأصل، ولكنك طويل القامة عنه

أثار دهشته وتعجبه قولي، لهذا تداركت وأكملت قائلة:

– أملك العديد من صور العائلة، وفي إحداها صورة لجدك بصحبة جدي

امتدت المقابلة لساعات، حدثني عن جده وتاريخه، الذي أدركت أنه اختلف تماما عن تاريخ إسماعيل المفتش الذي أعرفه. إياد يتحدث عن جده،

الصديق المقرب من الملك إسماعيل، الداهية الذي ساعد الملك على سداد الديون المصرية كاملة، ووضع خططًا وأسس لاقتصاد مصري قوي قائم بذاته، يعتمد على موارده.

تحدث إياد عن محاولة القتل الفاشلة، التي تعرض لها جده، واكتشافه أن الإنجليز دبروا للخلاص منه، حيث بابتعاده عن الصورة، سوف تعجز الدولة المصرية عن سداد ديونها وتغرق بها

حين غادر إياد، كان قد أطلعني على تاريخ مختلف لجده إسماعيل المفتش، علمت أنه كان ساعدًا قويا في بناء مصر التي أراها الآن.. اختلف التاريخ الذي يحكيه كثيرا عن التاريخ الذي أعرفه، والذي بدأ بصداقة قوية تربطه والخديوي إسماعيل، ومن قوة ارتباطهما تصاهرا، فتزوج مصطفى ابن إسماعيل المفتش من الأميرة فائقة هانم، ابنة الخديوي إسماعيل. ورغم عمق وقوة الصداقة بينهما، لكنها انهارت بأيدي من تأكدوا أن وجود رجل قوي في مكانة إسماعيل باشا المفتش إلى جوار الخديوي إسماعيل، سيدعمه ويبعده عن مصيدة الاقتراض، التي نصبها الغرب له. قُتل في تاريخي القديم إسماعيل باشا المفتش، لم تكتب له النجاة.. ووجهت أصابع الاتهام إلى جدي الخديوي إسماعيل.

***

حملت الصناديق التي تحوي رسائل الخديوي إسماعيل، وأغلقت غرفتي بإحكام، وجلست أنظر إليها وأتساءل أيها أفتح أولا!.. وسرعان ما اتخذت قراري، بفتح صندوق الملك فاروق، أخرجت الرسالة المطوية بداخله، وفتحتها.. كلمات بخط يد جدي، يحذره فيها من انقلاب ضباط الجيش، وبعزمهم على عزله ونفيه خارج البلاد، ويخبره بانهيار الملكية على

يديه، ونصحه أن الخلاص من هذا المصير هو الشعب، فيه تكمن القوة، إذا انقلب عليك الزمان

أعدت الرسالة إلى الصندوق، وعندما أغلقته، لفت انتباهي التاريخ الذي حفرعليه، موعد تسليمها كان في نفس عام تتويج فاروق الأول ملكا لمصر، بالتاريخ القديم الذي أعرفه. أراد الخديوي إعطاء الفرصة كاملة، ليبدأ فاروق بداية جديدة، تغير نهايته. ولكن بتغيير التاريخ، لم يولد فاروق، ولم يكن له وجود.

أسرعت بفتح الرسالة الخاصة بي، والتي بدأها جدي الخديوي قائلا: "سلام عليك جانانيار ملاكي الصغيرة، التي أرسلت لي رحمة"

توقفت للحظة شجن، وأكملت:

"منذ لقائك واستماعي لحديثك الحكيم، ومعرفتي منك بما يخفيه الزمان، أعدتِ مسار حياتي لطريق لم أكن أتوقع أن أسلكه. حقا كان طريقا طويلا ومحفوفا بالصعاب، ولكن نهايته أفضل من طريقي الممهد الذي كنت أسير بدروبه، وفي نهايته بئر مظلم، يبتلعني وعائلتي في غيباته. كتبت العديد من الرسائل لأبنائي وأحفادي في المستقبل، أحذرهم وأقدم النصح. رسالتك هذه أكتبها وأنا على فراش المرض، أشعربقرب أجلي. قضيت خمسة وثلاثين عاما حاكما لمصر، خديوي ثم ملكا، سعيت خلالها لنهضة البلاد وحب العباد. سوف أترك لأبنائي وأحفادي بلدا قويا، وشعبا محبا. أتمنى من قلبي جانانيار أن يكون الزمان تغيرإلى الأفضل.. سعيت كثيرا من أجل هذا.

تحياتي ودعائي.. إسماعيل ملك مصر"

ابتسمت وأنا أطوي الرسالة، وأردد قائلة:

سلام عليك جدي إسماعيل، حكمتك مهدت الطريق لتاريخ جديد مشرق للعائلة ولمصر وشعبها.

***

استيقظت صباح اليوم التالي، لأجد فاطمة تخبرني بقدوم زائر آخر يطلب لقائي. مازلت أشعر بالنعاس، ولكن ذكرها لاسمه جعلني أقفز جالسة، وكأنها ألقت دلو ماء بارد فوق رأسي. لا أصدق ما تقول!.. يوسف يطلب لقائي!.. عشرة أشهر انقضت على ليلة افتتاح الفندق، لم تره عيني منذ ذلك الوقت.. ماذا يريد؟!

أسرعت أرتدي أفضل ما لديّ، وحرصت على أن تراني عيناه جميلة أنيقة مشرقة. ليس لإثارة إعجابه، بل من أجلي أنا، فكما يقال جاذبية المظهر تخفي انكسارالنفس.

لمحته عيني وأنا أهبط درجات السلم، دائما كان قلبي يرتعش لرؤيته، ومازال. أقبلت عليه بخطى ثابتة، نظر نحوي وعيناه تلمع لرؤيتي.. اقترب، ورسم ابتسامة على وجهه وهو يبادرني:

– مرحبا جنى كيف حالك؟

جلست على مقعد، وعقدت قدماي وأنا ابتسم قائلة:

– أنا بخير، كيف حالك أنت؟

جلس أمامي، وقال: أنا....لست بخير

تساءلت: لماذا؟

لم أر هذه اللوحة ذات الإطار القديم، المسندة فوق أحد المقاعد.. لم تكن عيناي ترى سواه عند دخولي غرفة الاستقبال. مد يده، وأمسك اللوحة، وأدارها، ليظهر رسمها أمام عيني. كانت لسيدة أنيقة، تجلس على مقدمة مركب شراعي، وعلى وجهها إبتسامة يملؤها الخجل. وقفت وأنا أمسك اللوحة بين يدي.. السيدة!.. ملامح وجهها!.. إنها أنا!

جلست ثانية، ومازالت اللوحة أمام عيني.. شرد ذهني بعيدا، وابتسمت وأنا أردد: "كمال"

أفقت من شرود ذهني على صوت يوسف يسألني: من كمال؟!

نظرت له قائلة:

- قصة طويلة، أعلم أنك لن تهتم لمعرفتها.. هل تسمح لي بالاحتفاظ باللوحة؟.. أرجوك، إنها تحمل ذكرى عزيزة إلى قلبي.

أرى الغضب يتحرر من عينيه - لا أنكر أنني أحببت ذلك-.. سألني بصوت حاد:

- من كمال جانانيار؟.. اللوحة عمرها يفوق المائة عام بكثير.. هل أفهم منها أنك عند عودتك من رحلتك إلى الماضي كان قلبك يحمل بذور حب جديد؟

انفجر غضبي وأنا أرد:

- كيف تجرؤ على الحديث معي هكذا؟.. تحضر وقد شارف عام على المرور منذ عودتي من رحلة الماضي، وتوجه لي الاتهام بالخيانة.. ماذا تريد يوسف؟.. ماذا تريد؟.. أتجد متعتك في إيلامي وتعذيبي؟!

تحررت الدموع من عيني، ووضعت يدي على أذني وأغمضت عيني وأنا أكمل بصوت مختنق:

- يكفي هذا.. لا أريد سماعك.. كلماتك قاسية. لم يكن يوسف زماني يتحدث معي إلا بكل حب وود.. كنت المعشوقة وحبيبة قلبه

فتحت عيني على صوته، لأجده أمامي يمد يده قائلا:

- يوسف زمانك كتب هذا..

نظرت ليده، وهي تحمل مفكرة يوسف، التي أهداها لي قبل ذهابي لرحلة الماضي. اختطفتها واحتضنتها إلى قلبي

قال بصوت هادئ:

- الأشعار بالمفكرة خواطر العاشق، كتبت بخط يدي، ولكن لست أنا كاتبها

نظرت لعينيه وأنا أقول:

- كتبها رجل كان من المحال أن يتركني وحيدة

ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- لم ير جانانيار زماني، الغارقة في بحور العمل.. لست كظنك بي، افترقت عنك لعدم تقبلي لنجاحك. لا، كل ما أردته هو قليل من الاهتمام بي، وهذا ما لم أحصل عليه. كان العمل الأهم، ولم أكن أبدا بالحسبان

تساءلت مغيرة الحديث:

- كيف وصلت لك اللوحة والمفكرة؟

أخرج من حقيبته شيئا آخر، أعرفه جيدا، وقدمه لي وهو يقول:

– منذ ثلاثة أيام، حضر لمقابلتي شخص يدعى إياد صديق، وقدم لي اللوحة والمفكرة الورقية، وأيضا هذه المفكرة الإلكترونية، ومعهم رسالتين، واحدة لي والأخرى لك

أمسكت المفكرة الإلكترونية، وابتسمت وأنا أتذكر دهشة الوجوه بالماضي عندما أخرجتها. نسيتها تماما وسط التغيرات التي حوصرت بها منذ عودتي للواقع الجديد، والتغيرات التي مازال عقلي لا يصدق بحدوثها.. نسيت حقيبتي كاملة، وبلورتي السحرية، كما أطلق عليها جدي إسماعيل.. كل شيء تركته بالماضي، وعدت وحيدة لواقع جديد.

سألته: هل أرسل لك الخديوي إسماعيل بهذ الأشياء؟

أجابني: لا، الراسل هو كمال بك

أسرعت قائلة: كمال!

قال: هل ما شاهدته وقرأته مخزن بذاكرة المفكرة، أمور حدثت بالفعل، بواقع آخر، وعودتك للماضي كانت لإصلاحها؟.. تحدثت بالأمس مع فارس ومراد، وفسرا لي الأمر، ولكن أريد الاستماع منك

منذ الصباح، وحتى لمعان النجوم بالسماء المظلمة، جلسنا لنتحدث.. هو يسأل، وأنا أجيب أخبره عن زماني وهدفي الحقيقي من العودة إلى الماضي. حتى انتهى الحديث، ولم يتبق لديّ كلمة واحدة لأخبرها، لهذا التزم يوسف بصمت عميق، شارد بناظريه إلى السماء. كنت أجلس إلى جواره، أشعر بالراحة.. حمل ثقيل رفع عني بمعرفة يوسف الحقيقة. نظر لي بعد طول صمت وقال:

– إذًا لست جانانيار التي أعرفها!

نظرت لعمق عينيه، لعلي أفهم القصد الحقيقي وراء كلماته.. هل الأمر يسعده أم يتعسه كوني لست هي؟!

قلت: نتشابه في الروح والشكل، حتى العقل والأفكار واحدة، ولكن قد يكون ترتيب الاهتمامات لدينا مختلف

قام من مجلسه، وأخرج ظرف خطاب مغلق، وقدمه لي وهو يقول:

- رسالة كمال بك

أمسكت بالرسالة أنظر لها بسعادة.. كان كمال بالماضي شخصا مقربا إلى قلبي.

مد يوسف يده لمصافحتي مودعًا:

- إلى الملتقى جنى

رسمت ابتسامة على وجهي وأنا أصافحه..

- إلى الملتقى يوسف

توقفت مكاني أتابع يوسف حتى استقل سيارته، التي انطلقت مغادرة بوابة المزرعة، ثم نظرت إلى رسالة كمال، وأسرعت إلى غرفتي، أقلب الخطاب بين يديّ، وأشم رائحة عطر كمال. فتحت الخطاب..

"صغيرتي الجميلة جانانيار، كيف حالك؟ أرجو أن تكون لوحتي قد حملت لك مفاجأة سارة.. هل تذكرين رحلة المركب الشراعي بنيل المحروسة؟ كان يتملكك فضول لمشاهدة ما أرسم، كنت أعد هذه اللوحة لك، ولكن لم يسعفني الوقت للانتهاء منها قبل رحيلك. آه جانانيار لا تملك الكلمات القدرة لتعبر لك عن حزني والجميع عند اختفائك أمام

أعيننا، وتحولك لدخان أخضر تسرب سريعا واختفى.. أقسم أنني رأيت الدموع تلمع بعين الخديوي إسماعيل؛ ولكننا نعلم أنك ملك زمان آخر.. وياليتك كنت ملك زماننا

ما رآه الملك إسماعيل من أحداث مؤسفة عبر بلورتك السحرية، جعله يقرر مراسلة أبنائه وأحفاده في المستقبل، ينبهم ويرشدهم.. أقام خزانة سرية، وجعل عليها حارس أمين، سوف يقوم وذريته من بعده بتوصيل الرسائل، عندما يحين أوانها

حديثك عن أن عودتك قد تكون لزمان يختلف عما غادرتِ واحتمال كبير فقدانك لأحبائك، وبالأخص يوسف، جعلاني اتخذت قراري بمراسلته، وأخبرته بفضل جانانيار الصغيرة، وأرفقت مع الرسالة أشياء تركتها بالماضي، لتكون دليل على صدق رسالتي.

كم أتمنى أن تسمع أذناي منك الإجابة على سؤال يسيطر على عقلي:

كيف حال زمانك الجديد جانانيار؟

تحياتي.. كمال بك

طويت الرسالة، واتجهت إلى النافذة، أنظر إلى السماء.. النجوم اللامعة تحيط بالقمر المنير، وابتسمت لحديث يدور داخل عقلي، يحمل الإجابة لسؤالك كمال.. اليوم فقط، والفضل عائد لك، بدأت حياتي تكتمل، وقد يصبح زماني الجديد مشرقا سعيدا.

تمت



عندمـا يعزفُ الشيطانُ الناي

(المركز الثاني)

مُصطفى يحيى



مقدمــة

القسطنطينية..

الأول من يونيو عام ١٤٥٣

ينظرُ للشمسِ، عالًما ان هذه اللحظة قد غيرت التاريخ على مر عصورهِ. يركب جواده الأبيض الشهير، متوجهًا إلى كنيسة آيا صوفيا، ليخطب في الناسِ خطبتهُ الشهيرةِ، التي سيخلدها التاريخ.

كان يشعر بالانتشاء في أعماقهِ، وقد سجد لله شكرًا وهو على أبوابِ المدينةِ. حين منّ الله عليهِ بدخولها، علم في قرارةِ نفسهِ أنه هو الأمير العظيم، الذي نبأ بقدومهِ الرسول الكريم صلى الله عليهِ وسلم .

وقف على أبوابِ الكنيسةِ، ينظر لحشود الناس التي اختلطت امامهُ، ما بين جنودهُ وفرسانهِ وبين أهالي المدينةِ، الذين قد مسهم الخوفُ منه، والرعب من جيشهِ العظيم .

بدأ كلامهُ بحمد الله وشكرهِ، ثم بدأ يهدئ جموع الأهالي الغفيرة، يخبرهم أنه جاء فاتحًا وليس غازيًا.. ثم طمأنهم على أموالهم وأولادهم ونسائهم وعشائرهم ودينهم، وأخبرهم أن كل هذا محفوظٌ مُصانٌ، لا يمسه أحد بسوءٍ أبدًا. فهلل الناسُ، وهتفوا لهُ بالحياةِ والمجد الطويل.

عاد فركب حصانهُ الأبيض، وأطلق قرارهُ بأن تصير هذه المدينةِ هي عاصمة الدولة العثمانية. هكذا نقل السلطان العظيم محمد الفاتح تاريخ الدولةِ العليةِ إلى آفاقٍ جديدةٍ، كان في انتظارها هو وأسلافه الأولين طويلًا جدًا.

في أيامهِ التالية، أتاه نبآن، أحدهما جيد والآخر يحمل تحديًا جديدًا .

أما النبأُ الجيد، فكان دخول الكثير من أهالي المدينةِ في الإسلام، بعدما شهدوا عدالة السلطانِ وسماحة الإسلامِ فيه، فأمر السلطان برفعِ الجزيةِ عنهم، ومنحهم كثيرٍ من المكافآت.

وأما الخبرُ الذي يحملُ مشكلةً ضخمة، فكانت آثارهُ وخيمة.. لقد ورد إلى بعض العيون أن علماءِ المدينةِ الذين يحملون علوم اليونانِ والرومانِ والعرب قد قرروا أن يترحوا إلى عمقِ أوروبا، وإلى إيطاليا تحديدًا، هربًا من العثمانيين وخوفًا من استغلالهم.

تلقى السلطان الفاتح هذا النبأ بوجومٍ شديد. لا تزال تعاليم المولى الكوراني تتردد في أعماقهِ، ويعرف قيمة العلوم والمعرفة، وما يمكن أن يفعله العلم لأعدائهِ لو انتقل لهم، وكان في حاجةٍ أخرى لأن يحتفظ بهؤلاءِ العلماء وعلومهم بين أسوار القسطنطينية.

قضى عدة أيامٍ يفكر في القرار الذي يحتاجهُ، ولم يعرف من يستشير من حاشيتهِ، بعد ثبوت تورط الصدر الاعظم للدولة، خليل باشا، في خيانتهِ من أجل الإمبراطور الروماني، وكذلك الأمير أورخان .

كان في حاجة إلى رأي المولى الكوراني، معلمه الذي منحهُ والده السلطان مراد الثاني سلطة أن يضربهُ من أجل أن يُعلمهُ، أيام أن كان يدربهُ على الحُكم في بعض الولايات، وهو بعد ابن الخامسة عشرة.

يعرف خوف العلماء من الغزاةِ والمحاربين، هناك دومًا تنافر معروف، بين من يستخدم عضلاتهِ، ومن يستخدم عقلهُ، والاثنان ينفران من بعضهما البعضِ، ويستحقران الآخر. كل التاريخ الذي تعلَّمهُ يخبرهُ بعدم ثقة العلماء في الحكامِ والمحاربين.

لكنه لا زال يعرف قيمة العلمِ، ويرددها بينهُ وبين نفسهِ كلما احتاج إلى مشورةٍ. ثم بعد تفكيرٍ طويلٍ، هداهُ عقلهُ إلى القرار الذي سيغير مجرى تاريخ العالم بأسرهِ. القرار الذي توصل إليه وهو جالسٌ على الأرضِ جلستهُ الأثيرةِ، والتي سيصورها الغربُ، في تاريخٍ موازٍ آخر، على أنها مدعاةٌ للترفِ الذي كان يحياهُ سلاطنة العثمانيين .

أما في تاريخنا هذا، فسيقوم السلطانُ الفاتح من جلستهِ، وينادي أتباعهُ، ويخبرهم بأن ينشروا فرمانهُ في كل أنحاء البلاد.

سيمنحُ كل عالمٍ يبقى في مدينتهُ قصرًا مهيبًا، سيشيدهُ لهُ، ويمنحهُ ما يشاء من النساءِ والجواري والقناطير المقنطرةِ من الذهبِ والفضة، مقابل أن يعمل هذا العالم في المدرسةِ التي سينشئها السلطان، لنشر العلوم بين عموم الأهالي والمجتمع.

ثم أصدر فرمانه الثاني، بإنشاءِ ألف قصرٍ في القسطنطينية، وألف قصرٍ في كل مدينةٍ كبيرةٍ مجاورةٍ لها، في منطقةِ البلقان. وبإنشاءِ المدرسةِ الجامعةِ للعلومِ والمعارفِ، ليقدم إليها كل طالبِ للعلمِ مُحبٍ له، وبتغيير اسم المدينةِ إلى الآستانة.

لم يصدق الكثيرون هذه القرارات، وأعرضوا عنها، إلا أنهم عادوا ليصدقوها مع أول عالمٍ ذهب إلى السلطان يطالبه بما وعد، فمنحهُ السلطان كل ما وعد، ثم عرض عليهِ أن يقيم في ضيافتهِ حتى ينتهي تشييد قصرهُ.

هكذا وفد آلاف العلماء إلى الباب العالي، ومنحهم السلطان ما وعد بهِ. وهكذا انتهى ذعرهم من الفاتح، وتحول منهم الكثيرون إلى اعتناق الإسلام تدريجيًا.

هكذا تحولت الآستانة والمدن المجاورةِ لها إلى مُدن الألفِ قصرٍ، وصارت منارة للعلم والمعرفةِ، تجتمع فيها مختلف الحضاراتِ، ويأتيها طلبة العلم من مختلف أنحاءِ العالم.

وهكذا بدأ تاريخ جديد في التكوين، تغيّر خلالهُ شكل العالمِ بأكمله.

القسم الأول

يحكيه: نور آدم.

(١)

الإسكندرية

الأول من ديسمبر عام ٢٠١٠

عدتُ لتوي من زيارتي للدكتور نشأت، لازال اللون الأزرق يطاردني، وصوت السارينة المتصلة التي تحدد مواعيد بدء الزيارةِ ونهايتها تعلو وتخفت بإيقاعٍ رتيبٍ، لا زال يضربُ جانبي رأسي كموجاتٍ متصلةٍ.

أفكرُ فيما يمكن أن يحدث في أعماق الدكتور نشأت، الرجل الذي جاب الأرض من مشرقها لمغربها، وعاش في أكثر بقاعِ الأرضِ ترفًا وبذخًا، يقبع وحيدًا في زنزانةٍ صغيرةٍ، تطل نافذتها على فناء السجن الخلفي، وبابها ذو القضبان الحديدية يطل على رفقائه، الذين لم يتخيل يومًا أن يلقاهم صدفَةً في الطريق.

كان يجلسُ أمامي، بلحيةٍ بيضاء نصف نامية، ونظرةٍ تائهةٍ تقفُ على أبوابِ العدم، وصوتٍ غليظٍ يتضاربُ بين الحدةِ والخفوت. وددتُ لو

أستطيع التخفيف عنه. أتساءل إن استطاع استيعاب ما حدث حتى الآن، ولا أعرف كيف يستطيع أن يتحمل هذا، إلا أن يوقن أنه كان كذلك منذ الأبد، وأن هذا كان مصيره الذي يضمره هو نفسه في أعماقِهِ ويوقن بحدوثِهِ.

أن تقيّد أحلامك، وتتوقف حياتك داخل جدرانٍ تحيطك من كل جانب، بينما تستمر الحياة خارج سجنك كأنك بلا قيمة.. أن تظل تتذكر اللحظَة التي أدت بك إلى كل هذا، وتجتر ذكرياتك في أسىً، تنظر لنفسك من خارجك، حتى تكاد ألا تتعرف على هذا الشبح الساكن ذي اللحية النامية، المقيد في السلاسل مُهتَّك الروح. هذا لا يعني إلا أن تجربتك في الحياةِ كانت فاشلة، فلا فارق بين وجودك وفنائك، وأنك في الأساس لم تكن.

أهذه حقًا هي النهاية؟

أن يتوقف معنى الوجود عند حدود العدم؟ وأن تكتشف حياتك وأنت تفقدها ببطءٍ حثيث؟

أهناك ما هو أسوأ؟ أن تحدك حدود، أن يحجِّمك شيءٌ ما ويقصُ أجنحتك، ثم يجلسُ بجوارِك ويؤكد لك أنك لست إلا ما يراهُ فيك، وأنك لا تعرفُ عن نفسك شيئًا.

أستشعرُ الآن إحساس الدكتور نشأت في وحدته، الوحدة التي لم يعانِها أحدٌ على الأرض مثلما عانيتها في حياتي. أفهم كذلك طلباته الصعبة مني، في الاتصال بأصدقائه بالخارج، ليدبروا له أي وسيلة للهروب، وفي استلامي لإدارة أعماله وشركاته هنا في مصر، واستكمالي لمهمته الأساسية، التي ترك باريس من أجلها وجاء للإسكندرية.. لكن ما لا يعرفه الدكتور نشأت أن أعراف مصر تختلف كثيرًا عما يدور في فرنسا.

الدكتور نشأت عاش في مصر خمسة أعوام فقط منذ وُلد، لهذا لا يعرف هذه البلد كما أعرفها، وهو لا يرفضها كما كنتُ أرفضها فيما سبق. هو يراها بلدًا كأي بلدٍ آخر زارها ومكث فيها وأدار فيها استثماراته. كان يقول لي، ونحن في باريس، أن كل البشر يستوون في رغائبهم واحتياجاتهم، مهما اختلفت ثقافاتهم، والتحدي الحقيقي لأي مستثمر أن يكتشف اللغة التي يخاطب بها أهواءهم ورغائبهم، هذه اللغة هي مزيج من المنتج، وأسلوب تسويقه، وفرضه على حياة المستهلك.

هو أستاذي في نيلي لدرجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة السوربون، وكان مديري الأعلى في العمل، الذي وفره لي في إحدى شركاته، لأمزج بين الدراسة الأكاديمية، والممارسة الواقعية. في البداية، رشحني لإدارة قسم التسويق.. وبرغم اختلاف المجالين، إلا أن منطقه كان أن أوسع دائرة رؤيتي، فمن ناحية سأتابع نشاط الشركة الاقتصادي، ومن ناحية أخرى سأطّلع على الأساليب التسويقية، فتتسع دائرة الرؤية لعلاقة الاستثمار بالمجتمع. لكني في النهاية قبلتُ وظيفه ترتبط باهتمامي الأكبر: البحوث الاقتصادية لطبقات المجتمع. وبرغم أن هذا المجال كان يفضي في النهاية إلى بحوث التسويق، إلا أنه كان الأقرب لقلبي.

كان أشبه بالأب الروحي.. في أحاديثنا المستمرة بعد العشاء، يفتح لي مساحة من روحهِ، ويحكي لي عن رحلاته المترعة التي جاب فيها الأرض من من أقصاها لأدناها. في البدايةِ، استمعت له بعينين متسعتين، كعيني طفل يتعرف على العالم لأولِ مرة، حتى قررتُ أن أفتتح عالمي الخاص بنفسي.

وجدتُ على يديه ما كنتُ أبحث عنه طوال سنواتي، التي عشتها هنا في الإسكندرية قبل سفري.. كنتُ أبحثُ عن الدهشة، التي أعرفُ بوجودها

في العالم، لكني لم ألمسها في حياتي في ولاية مصر. كنتُ في حاجة إلى التجريب.. روحي تبحثُ عن الأفق الممتد بعيدًا، عن الحياة التي تكتم أنفاسي، والتي تقتل الإبداع والتحرر، وتصادر الآراء وتجرم محاولات البحث في أخبار الغرب المحظورة، وتزج بكل هؤلاء إلى السجون. كنت أحتاجُ لأن أخرج من رحم بلادي إلى العالم الحقيقي بالخارج. وعلى يدي الدكتور نشأت، كان ميلادي الحقيقي.

لم يكن السفر سهلا، وكنتُ من القلائل الذين صدرت لهم الموافقة لدراسة العلوم الأوروبية. بعد حصولي على درجة الإجادة في الاقتصاد، تقدمت بطلبات عديدة لإدارة الجامعة، للحصول على درجة التخصص في الاقتصاد من أوروبا. وعندما أتت الموافقة، لم أكن أصدق، وخضعتُ لاختباراتٍ نفسيةٍ عديدة، للتأكد من صدقي ورغبتي في دراسة اقتصادهم الجديد، الذي لم يكمل مائة عام، والذي أوصلهم إلى ما هم عليه من تقدم علمي وتوحش في الثراء. وبالرغم من أنني لم أكن مقتنعًا بإلههم الاقتصادي، آدم سميث، الذي أوصلوه لدرجة التقديس، إلا أنه كان في نظري شديد الغموض، ويشغلني بجنون، وكنت أبحث عن نصوصه بلهفة، وهو ما كان يوقعني تحت طائلة القانون. لهذا كان الطريق الأفضل والأسلم هو السفر، وفي أعماقي أعرف أنني لن أرجع مرة أخرى إلى ولاية مصر، أو حتى لأي ولاية عثمانية، أو تدين للعثمانيين. ولم أعرف أنني سأحنُ في وقتٍ ما إلى هذه الحياة، التي ضاقت بها نفسي.

الآن أشعرُ بلا مبالاة تجاه كل شيء، لا شيء صار يعنيني، لا الأحلام، ولا الزواج، ولا السفر، ولا الحياة بأسرها.. حتى أنا لم أعد أعنيني. الآن أشعرُ برغبتي في أن أكون بعيدًا، بعيدًا جدًا.. عند أفقِ الجنون، أو حافة الفراغ. الآن لا أفعل أكثر من الجلوس ناظرًا للسماء، غائبًا في حضن التأمل، أصارع الغضب الذي يأكل أعماقي، ويسلبني إرادتي.

(٢)

في المساء، يكون أول من يأتي هو القبطان محمد، يعبر باب حديقة البيت، ويدور حول شجر الموز، ليصعد السلمتين إلى صحن الدار، حيث صنعتُ مظلة من الخوص تحت أنوار النجوم، يبادرني بصوته العريض الغليظ:

- تعالى هنا، أنا جئتُ.

يشير إلى غيابي الطويل في التأمل، فأنتبه إليه

- لو تكف عن اعتباري بحارًا من بحارتك، وتخفض صوتك قليلًا.

يقهقه ضاحكًا وهو يجلس:

- يا بني، الرجل يُعرف من شيئين، أحدهما صوته.

مع القبطان محمد، ستجد كل شيء.. ستجد الرحّال الذي خدم السلطنة من أقصاها لأقصاها، وستجد الماجن القادر على الإتيان بكل أنواع الفواحش، وستجد المتحمس أشد الحماس لبلاده، الغيور عليها. لكنه بعد أن انتهت خدمته، فقد الكثير من تألقه، الذي لا يكف عن حكيه لي.

يزعق بصوته:

- يا عم مرجان.

أخبره أن الشيخ لم يأتِ اليوم، وسيعود مع الغد. يُخرج العدّة من جيبه، ويذهب إلى الجانب الذي نحتفظ فيه دومًا بالنارجيلة، ويبدأ في تقطيع الحشيش. أتابع دقته، ويده التي تكاد أن تتحول إلى ميزان في التقسيم، أمزح معه:

- هل البحر يُعلم الدقة بهذه الطريقة؟

يقول دون أن ينظر لي:

- بل المزاج!

ثم يلتفت لي، وقد نبت العرق على جبينه سريعًا:

- هل معك نار؟

أشير خلفي وأقول:

- في المطبخ.

يقوم ليتوجه للداخل، قبل أن يتوقف فجأة، ويتراجع قائلا:

- هاتها!

أنظر له بدهشةٍ، ثم يلمع في نفسي خاطرًا، فأسأله:

- أنت لم تأتِ من يومها؟

يتشنج قليلا، وهو يعاود الجلوس:

- هاتها يا نور!

أهبط الدرجتين، وأخطو إلى الداخلِ، وقد عادت إلى خيالي ذكرى كئيبةٍ، أحاول باستماتةٍ أن أنساها.. وحين أعود إليه، أجده يمارس محاولاتٍ بائسة في التركيز في إعداد النارجيلة، كي يبتعد عن الذكرى التي طفت إلى سطح الحديث. أشعل النار، ثم تناول لَيَّ النارجيلة، وأخذ نفسًا طويلًا، ونفثه في استمتاع، قبل أن يقول في رضا:

- أصلي!!

كنتُ غائبًا عنه، في ذكرى سوداء أخذت من روحي الكثير، وخرجتُ منها وقد تكشفت حقيقة ما صرتُ إليه أمام نفسي، بلا مداراةٍ. وفي فجورٍ، لم أعد أتحمل الاعتراف به أمام نفسي. أتذكره ليل نهار، وأفكر في فداحته، حتى تهاوى حجمه في أعماقي، فلم أعد أفهم معناه ولا أبعاده. انتشلتني يده، وهو يربت على ركبتي، ويقول بأسف:

- آسف أنني ذكّرتك بما حدث

انتبهتُ لوجوده، فأمتدت يدي تلقائيًا إلى لَيِّ النارجيلة، فسحبتُ نفسًا طويلا، نفثته وأنا أسأله غير مصدقٍ:

- أنت بالفعل لم تأتِ إلى هنا منذ الحادث؟

خفض عينيه في أسف، قال:

- لم أستطع أن أراك بهذا الحال.

مُضحكٌ أن تتحول الصداقة إلى البحث عما نريده في الأصدقاء، لا البحث عن الأصدقاء أنفسهم. لم تكن حالتي آنذاك يتحملها أحد، ظنني البعض قد كفرتُ، لأن ما أصابني هو الغضب الشديد بدلا من الحزن. لم

يعرف أحد ما حدث، فقط من رأى الأمر كان أنا، وكان الدكتور نشأت من بعدي. قلتُ للقبطان محمد، وأنا أضحك:

- كنتُ في حاجة إلى حشيشك هذا، لأغيب عن التفكير والوعي قليلًا.

قال وهو يلف الموضوع في اتجاهٍ آخر بذكاء:

- الآن تأكدت أن لا أحد يأتي بما في جعبتي.

أخذتُ نفسًا عميقًا آخر، خرج من أنفي وفمي، ساحبًا الكبت المترسخ في أعماقي. قلت له وقد بدأتُ أرى أشياءً:

- لا زلت تخشى من الأرواح القلقة؟

توتر في جلسته، ولكزني وهو يتناول اللّيّ:

- اسكت يا نور، لا تتحدث في هذا.

أطلقت ضحكة عالية، خرجت معها سحاباتٌ كثيفة، كنتُ أرى ملامحًا مألوفة تتجسد أمامي:

- لا زلت تؤمن بما هيأه لك خيالك في عرض البحر؟

كنتُ أرى ملامح نيروز تتجسد أمامي ببطءٍ، صورة الوجع المتجسِّد، خفض صوته، وزادت حدته قليلا:

-اسكت يا نور بالله عليك!

ضحكتُ في سخريةٍ من مخاوفه، لازال في هواجسه ومخاوفه مثله مثل أي شرقي يؤمن بهذه الخرافات. برغم سفره ورحلاته لكل بلاد الأرض، لم يخلع عنه جلبابه الريفي، الذي أتى به من المنصورة. يُهيأ لي أحيانًا أن كل

ما يحدث في حياة الإنسان لا يؤثر فيه إلا بقدر استعداده لأن يتأثر بما يراه ويعاصره. قلتُ له ساخرًا:

- أنت لم تعرف كيف ماتت، أليس كذلك؟

نظر لي بدهشةٍ، ولم يبد عليه أثر الحشيش، فقلتُ له وأنا أشير لما يشربه :

- بسبب جرعة زائدة من هذا !

نظر للنارجيلة، وسألني بدهشة:

- هل أنت متأكد؟ هل كنت معها؟

بسؤالهِ، وطئ جرحًا عميقًا آخر في أعماقي. لم يكن القبطان محمد مزعجًا هكذا من قبل، كانت جلسته تحمل الكثير من المرح، كانت دومًا خفيفة محببة إليّ. لا أعرف هل فقد هو مرحه، أم أن أعماقي تغيرت، فلم تعد تشعر سوى الغضب.

كان ينظر للبيت الذي لم يجرؤ على دخولة خوفًا من روح نيروز، التي يعتقد أنها تسكنه، لأنها ماتت في حادثة، ولم تمت موتا طبيعيا. هذا الشيخ، الذي يملأ رأسه بخرافات البلد، لا يعرف أنها كانت مجرد خائنة.

قال لي، وهو يحاول أن يغيِّر الموضوع:

- هل زرت الدكتور نشأت في سجنه؟

هززتُ رأسي إيجابًا، وقلتُ من بين أنفاسي:

- للأسف!

قال وهو يربت مرة أخرى على ركبتي:

- لا تحزن يا نور! تذكر دومًا أن الله يعلم بك، وأن هذا قدره الذي قدّره لك. أعرف أن كل ما يحدث ثقيلٌ على سنواتك الثلاثين؛ لكن أنت تعرف انني أجدك أكبر من عمرك بكثير.

هززتُ رأسي إيجابًا، والغضب يتضاعف في داخلي.. تابع بنفس النبرة:

- حاوِل أن تقف إلى جواره، لقد ساعدك على مدار عمرك، وكل ما يحدث ابتلاءٌ لكما .

من أكثر الأشياء قسوة، أن أستمع لهذه الكلمات من صديقٍ.. سيأتي وقتٌ يعرف فيه الجميع حجم ما مارسوه ضدي.

حاولتُ تغيير مجرى الحوار وسألته:

- أمازلت على اتصالٍ برجال الباشا الكبير؟

توقف عن التدخين، ونظر طويلًا إليّ، محاولا أن يستشف علاقة هذا الأمر بما كان يقوله، ثم قال بصوتٍ خفيض:

- بدأت تخيفني يا نور.

قلتُ بضحكةٍ خفيفة:

- برغم أنني لم أتحول إلى روحٍ قلقة بعد؟

مسح بيده على جبهته وقال:

- ماذا تريد منهم؟

قلتُ:

- أريد أن أصل للباشا. لديّ قضية مهمة يجب أن تصل إليه.

انتفض القبطان محمد في جلسته، وتلفت حوله في توتر، ثم اقترب مني وهو يحاول أن يهدأ. قال وهو يشير إلى ما ندخنه:

- سامحك الله ! ضيّعت كل هذه المجهودات؟

ثم قال بصوتٍ، بدا مهتزًا برغم شخصيته الثابتة:

- ماذا تريد بالضبط؟

قلتُ بابتسامةٍ وأنا أعاود التدخين:

- أريد أن أمنع خروج أكثر من مليون ليرة من أرض السلطنة إلى أوروبا!

تجمدت ملامح القبطان، قبل أن يقول ببطءٍ شديد:

- هذه مصيبة يا نور .

قلتُ بحركة استعراضية، أعرف أن القبطان يحبها، وأنا أشير إلى قلبي:

-هذا الصدر يحمل الكثير من الأسرار يا قبطان.

ثم ناولته النارجيلة وأنا أقول:

- اشرب يا قبطان، وانسَ!

أتانا من الخلف صوتٌ ضاحكٌ، مع وقع أقدامٍ، وضحكةٍ عاليةٍ برغم بساطتها:

- اشرب يا قبطان.. ألا يوجد اشرب يا خوجة أيضًا؟

كان هذا هو الخوجة يوسف المكتباجي، أتى بصخبه المعتاد، برغم رقته في الكلام. قال وهو يجلس وينظر إلى عدتنا، التي جهزها القبطان بمزاجٍ عالٍ:

(هامش: المكتباجي: هو منصب مالي في الدولة العثمانية، ويشير إلى أحد مساعدي الخزناجي وهو مسئول المالية،وهو مكلف بسجلات الدولة في ولاية معينة أو مقاطعة معينة).

- بدأتم بدوني يا أنذال .

قال القبطان، وهو يشير إلى باقي اللفافات التي جهزها:

- لا زال الخير كثيرًا يا خوجة.

قال المكتباجي، وهو يشير ناحية الباب:

- والخير الأكثر آتٍ ورائي .

اتسعت عينا القبطان، وتسارعت أنفاسه وهو يقول:

- من معك هذه المرة؟ نوال؟

ضحك الخوجة برقة وهو يقول:

- نوال، ومديحة، وصديقة لهما، جئن من اسطنبول مباشرة إلينا.

ردد القبطان بلهفة:

-اسطنبول؟ لماذا؟

قال المكتباجي وهو يقهقه:

-عذرًا يا قبطان، لقد حدثتها عن نور. إنها هديتي له .

ثم أخرج مظروفًا من جيبه، وناولنيه:

- وهذا صك وهبتها لك، ورخصة تملكك لجارية.

نظرتُ للخوجة بدهشةٍ كبيرة.. لم أتوقع شيئًا كهذا، وهو نفسه لن يفهم معني أن تأتيني هديته في هذا الوقت تحديدًا. تناولتُ المظروف من يدهِ الممدودة، وقد ظهرت الفتيات الثلاثة عند انعطافة المترل. كن يضحكن بميوعة، وميزتُ منهن نوال ومديحة، اللتين أعرفهما، ثم صديقتهما الثالثة الشقراء متوهجة الجمال، ترتدي ثوبًا حريريًا يبرز مفاتنها وذراعيها البيضاوين الممتلئين، قدمها لي الخوجة يوسف وهو يقول:

- لن تجد في أوكرانيا بأكملها من هي في نصف جمال روكسلان.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها روكسلان، وقد أخذتني بجمالها ونضارتها وسنها التي لم تتعد العشرين.

ضحك القبطان محمد وهو يقول:

- هذه لعنة أوكرانيا يا نور، وقد أصابت سليمان القانوني من قبل.

(هامش:كان حريم السلطان في الدولة العثمانية يتألف معظمه من الإماء، وقد تزوّج بعض السلاطين بأمة أو أكثر مما ملكوا، مثل السلطان سليمان القانوني، الذي عشق أمته الأوكرانية المدعوة "روكسلان" عشقًا شديدًا وتزوج بها، فولدت له السلطان سليم الثاني.)

صافحتني روكسلان، ثم قبلت يدي، وتربعت إلى جواري على الأرض. سألتها ملاطفًا:

- وهل تتحدث روكسلان العربية؟

قال الخوجة بإباءٍ:

- العربية والإنجليزية كأهلها يا نور.

لم أتملك جارية من قبل، وكنتُ أرفض الفكرة رفضًا مجنونًا قبل سفري إلى فرنسا. كان هذا ضد الإسلام، وضد أفكاري، وجانبًا من ثورتي غير المعلنة على هذه البلاد. إلا أنني الآن لا أجد في أعماقي كل هذا الرفض السابق، بل أجد لذة غريبة في التجريب، ورغبة في الانخراط في العيش بهذه الطريقة.

ملتُ على أذنيها أسألها عن شيءٍ ما، فاحمر وجهها خجلا وقالت:

- نعم يا سيدي .

ابتسمتُ متسائلا، فالتقطت السؤال بذكاءٍ واضحٍ وقالت:

-لم أعش كثيرًا في الباب العالي يا سيدي، وطوال الفترة التي قضيتها كنتُ في مسئولية "قبو آجاسي"، ولم يتعد عمري الثانية عشرة، قبل أن تبتاعني سيدة عربية من حلب. عشتُ معها خمسة أعوام، قبل أن تأتي بي للإسكندرية، ويبتاعني الخوجة المكتباجي.

(هامش: قبو أجاسي: هو رئيس الخصيان البيض في الباب العالي، وكانت الدولة العثمانية تأخذ بنظام الخصاء في قصور السلاطين، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرّم مبدأ الخصاء. وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات النادرة التي خرجت فيها على الشريعة الإسلامية.)

ضحكتُ راضيًا.. لم أعرف لم سألتها هذا السؤال تحديدًا! باستغرابٍ ألحظ عمق التغييرات التي أصير إليها .

زعق القبطان محمد وهو يقهقة:

-الآن، وقد اطمئن مضيفنا على سلامة جاريته، هلا نحظى ببعض المرح.

قال الخوجة وهو ينفث الكثير من الحشيش:

-هلا أمرت روكسي بالغناء؟ إن لها صوتَ البلابل في ليلٍ حزين.

أومأتُ لها إيجابًا.. وحين شرعت في الغناء، علمتُ أنني لن أتخلى عن هذه الهدية غير المتوقعة، مهما حدث من حوادث القدر.

(٣)

الأرضُ متسعةُ على امتداد البصر، مظلمةٌ إلا من أضواءِ شحيحةٍ، تأتي من لمعان النجوم في السماء، والقمر الشاحبِ الذي علته حُمرةٌ قانية. أغوصُ في الطينِ الذي أمشي فيهِ، وحولي أصنافُ من البشرِ، تسير كالمسحورةِ نحو مبنىً كئيبِ المظهرِ ضخمٍ كالجبلِ، يأخذُ الأعناق.

أسير وسط السائرين، تمتلئُ ملابسي بالعفنِ، ويأخذني صوتُ الناي المسحور، كما يأخذُ الناسَ من حولي. لا أعرفُ كيف جئتُ هنا، ومن هؤلاءِ القوم!! تنبتُ المزروعات الشيطانية من كل مكانٍ، تتلوى كالأفاعي السامة، وتلتفُ حول أقدام الناس، فيسقطون بلا وعيٍ وبلا دويٍّ. يتملكني رعبٌ همجيّ، ويدقُّ قلبي بألفِ دقةٍ، حتى يكاد يخرجُ من حلقي، بينما قدماي خرجتا عن طاعتي، ترفضان التوقف، وتتوغلان أكثر وأكثر في أعماقِ المستنقع، وصوتي لا يخرج.. أحاول الصراخ دون جدوى، أحاول ان أسأل الناس عن هذا المكان، لكني أستشعر برودة كالصقيع أكلت لساني وإرادتي، وسيطرت عليّ بقوةٍ قهريةٍ لا أعرف مداها.

وهذا الصوت!!

عزف الناي الذي يتملكني كالسحرِ. يتصاعد بقوةٍ ويخفتُ بإيقاعٍ رتيبٍ، ثم يعلو فجأة من جديد. يهيج أعماقي، كريحٍ عاصفٍ يأتي على كل

الأرضِ. أنظر للسماءِ.. حمراءٌ كأننا على وشك الشروق، أو كأننا على أبوابِ الجحيم.

يمتلئُ وجهي بالعرقِ؛ برغم الصقيع، وأسمعُ صوتًا يناديني بالسيد، لا أعرفُ مصدره ولا صاحبه، " سيدي نور،، سيدي نور". لستُ سيدًا!.. كيف أكونُ سيدًا وأنا أرسفُ في هذه الأغلال التي لا أراها؟

أشعرُ بيدٍ تهزني، وبالصوت المنادي يزدادُ جزعًا. تخفتُ تدريجيًا حدة البردِ، ويملأُ ضباب غريب كل شيءٍ حولي، فتبهت الرؤية، وأغرقُ فترة في ظلامٍ سحيقٍ، فاقد السيطرة على أطرافي، ثم فجأة أشعرُ بوجودي في مكانٍ مختلفٍ.. و..

أفتحُ عيناي..

أجدُ روكسلان تمسحُ جبيني بيدها الرقيقة، وتناديني بقلقٍ يملأ عينيها .

أنظرُ حولي وأنا أفيقُ تدريجيًا، أمسك كفها لتكف عما تفعل، ولا زلتُ أشعرُ بأثر هذا الكابوس، أشعرُ أنه كان حقيقةً.. أنه أكثر من كونه مجرد حُلم!

تقول روكسلان بخوف:

- سيدي نور، ماذا حدث؟ كنت تتشنج في نومك وتتأوه .

حاولتُ أن أفيق أكثر، لكن كل هذا الشعور الممضِ بالخوف لا زال يكتسحني. اقتربتُ لحضنها أكثر، فأخذتني بين يديها، وربتت على شعري .

غريبٌ أنني أستشعرُ بعض الدفء بين يديها .

حينما أفقتُ قالت:

- حفظك الله يا سيدي من كل مكروه!

حاولتُ أن أفهم وأنا بين يديها، لم عاد هذا الكابوس تحديدًا إلى نومي!.. كان يرافقني لفترةٍ من حياتي، ويسبب لي قدرًا من الرعبِ، كرهتُ معه ساعات النوم. هذه الأرض التي يحكمها الشيطانُ بنابهِ الجهنمي، الذي يُفقِد البشر عقولهم ووعيهم، ويسحبهم في طريقٍ مجهولٍ إلى قلعتهِ، ليذبح الناسُ أنفسَهم تحتها، دون أن يدخلوها.

كان يرافقني في حي الجبل، وحينما رحلتُ عن إيمان مرةً وراء مرة، ولسنواتٍ طويلةٍ، كنتُ أبحثُ عن الشيطان في كل من أعرفُ من بشر.

انتشلتني يدُ روكسلان من التفكيرِ، وهي تمتدُ إلى داخلي، ثم أخذتني في قُبلةٍ طويلةٍ لا مدى لها، تمزجُ الحاضر والماضي والمستقبلَ برباطٍ سحريٍّ، لا فكاك منه. أتأملُ ملامحها وشفتيها القاهرتينِ، إذ تدنو إليّ وترنو بحنوٍّ يحمل من الرغبةِ واللهفةِ ما يفقدني اتزاني ووعيي.. ترنو لي بهما، فيغيب كل شيءٍ حولي، ولا يبقى في العالم سواها. تحولني بابتسامةٍ مستمتعةٍ إلى مجنونٍ يصارع الطواحين بين قدميها.. تحملني على أجنحةِ الدهشةِ، في رحلةٍ ممتعةٍ، أفقدُ فيها ذاكرتي وعالمي ومشاكلي، ولا يبقى سوانا فقط، والروحُ التي تستعذبُ التنصل من الحياةِ، لتبحث عن أرضٍ جديدةٍ، تجرب فيها بدايةً أخرى.

نستلقي على الفراشِ، وتداعب أصابعها تفاصيلي، وتدندن بصوتٍ ملائكي، أغنية عن طفلةٍ تستكشف العالم مع حبيبٍ انتظرتهُ طويلًا. كانت روكسلانِ طفلة، في أعماقها تبحثً عن الأمان، وكانت بالفعل عذراء، كما أخبرتني، وكان هذا يُدهشني كثيرًا.

للحظةٍ، بدا لي ثمة تشابهٍ بين صوت الناي في الحلم، وصوت روكسلان الساحر الآتيّ من أرضِ الأحلام!.. ظننتُ قديمًا أن دراسة الاقتصاد هي الناي الذي يسحبني إلى الشيطان القابع في أوروبا. حاولتُ أن أنفض كل هذا من رأسي، وأنا اتوجه للاستحمام. سيكونُ يومي حافلًا، أعرفُ أن ساعات تأملي قد قاربت الانتهاء، وأن يدًا خفيةً تحركني لأفعالٍ لا يمكن التراجع عنها.. أعرفُ أن كل ما أحمله في صدري من غضب قد أوشك أن يتفجَّر.

خرجتُ، بعد أن تناولتُ فطوري مع روكسي، وبعد أن شاهدتُ– كما صرتُ أشاهد كل يوم – حجم الدهشة في عينيها لمعاملتي الحسنة لها، كأنها حرة وليست جارية. هي لم ترَ السادة يجلسون مع العبيد على مائدةٍ واحدة من قبل، أو يسألونهم عن رغباتهم.

....

أخذتُ سيارتي إلى السجن، لزيارة الدكتور نشأت. جلستُ انتظره فترةً طويلة، إجراءات السجن معقدة، وخاصة التأكد من صلاحية تصريح الزيارة يتم في كل مرة، والمعاملة السيئة من الضباط، الذين يعاملون الدكتور نشأت على أنه جاسوس يستوجب إعدامه.

في النهاية، دق الجرس الطويل المنتظَر، معلنًا بدء الزيارة لمدة عشرين دقيقة؛ كالعادة. دخل الدكتور نشأت نامي اللحية، وقد نطقت ملامحه بالشكر والخلاص لمجرد رؤيتي. صافحني واحتضنني طويلا. كانت ملامحه ورعشة جسده الطفيفة تنقل لي حجم ما يشعر من قهرٍ وضياع، ودموعه على وشك السقوط، وهو يجلس ويقول لي:

- لن أنسى أبدًا وقفتك هذه إلى جواري.

ربتُّ على كفهِ وأنا أقول:

- أنت وقفت إلى جواري من قبل ألف مرة، فكيف أنسى كل هذا؟

نطقت ملامحه بالامتنان وهو يقول:

- لم أعرف على طول حياتي من هو في رقيِّ أخلاقك يا نور.

نظرتُ لعينيه المضطربة، التي لا تستقر على شيء، وطال الصمتُ قليلا، قبل أن يقول:

- هل هناك أخبار جيّدة؟

أطرقتُ برأسي أسفًا، ثم قلتُ له:

- للأسف يا دكتور، الأمور تزداد سوءً.

نظر لي يستحثني على الكلام:

- لقد بدأت الاستخبارات تطولني أنا أيضًا، وإدارة الجامعة طلبت مني نص رسالة الدكتوراة، التي منحتني لأجله السفر، لتطلع عليه. ولو أرسلته إليهم ستسوء الأمور أكثر. كذلك البضائع، التي طلبناها من فرنسا، لا زالت في الميناء هناك، لأنهم رفضوا استخراج التصاريح اللازمة، وطلبوا شهادة فحص متخصصة، بها نسب المواد الخام المستخدمة في التصنيع، وهذه مشكلة أخرى. لا يمكننا أن نجري فحصًا حقيقيًا، ونعطيهم النسب الفعلية. في نفس الوقت لم أستطع الاتصال بالبروفيسير فرانسوا في السوربون حتى الآن.

بدأت ملامحه تنطق بالأسى، وأطرقَ طويلا، فحاولتُ أن أخفف عنه:

- أفكر في تجاوز هذه العقبات بطريقةٍ ما؛ لكني أخشى أن يضايقك ما أصل له من حلول!

فكأنما تشبث بقشةٍ، قال وملامحه تنطق بالأمل:

- بل افعل يا نور، أنا أثق في ذكائك وفي تصرفاتك، افعل كل ما يمكنك.

قلت له وانا أتحاشى النظر إليه:

- فكرتُ في تقديم نص رسالتي القديم، الذي تراجعت عنه.. أنت تذكره بالتأكيد، كنتُ أؤيد فيه النظام الاقتصادي الذي يتبعونه في الأستانة، الاقتصاد التكافلي المبني على المثالية في التعامل بين مؤسسات المجتمع، وليس الاقتصاد المادي المبني على الربح وتعظيم القيمة. أعتقد أن هذه الرسالة يمكن أن ترضيهم قليلا.

طفا الحزنُ إلى ملامحه، وأطرق طويلا، ثم قال من بين أنفاسه المتقطعة:

- لم أتخيل يا نور وجود مثل هذه الحياة. الحياة التي تجبرك على تغيير معتقداتك، على تغيير جلدك، والسير في القطيع الذي يرعاه السلطان.

أمسكتُ يده ليتوقف، وقلتُ له همسًا:

- أنت تعرف أن هذا اللقاء يمكن أن يكون مسجلًا، نحن لا تنقصنا المشاكل.

هز رأسه متفهمًا، وقال وهو يشير إلى صدري:

- المهم هو ما يؤمن به هذا القلب، وليس ما تقدمه إليهم أو تقوله.

أحيانًا يدهشك مدى استعداد كل إنسان لممارسة العهر بكل أشكاله.
قلتُ له وأنا أعيد اكتشافه من جديد :

-أما البضائع في مارسيليا، فسنضطر لاستبدالها بمنتجاتٍ أخرى، تتوافق مع نسب الكحول المسموح بها عند الباب العالي؛ لكن هذا سيكلفنا الكثير من الأموال.

قال باستكانة حمامةٍ وديعة:

- افعل يا نور كل ما تراه مناسبًا لهذه الظروف. أنت أكثر من ابني.

أحيانًا أخرى تنكشف كثيرًا من حقيقة الإنسان، عند أول استعدادٍ له بأن يتنازل عن جزء من ذاته، في مقابل أي شيء. وقتها سيمارس الكثير من تنازلاته، حتى يفقد هويته في مقابل لاشيء.

قال لي الدكتور نشأت، بعد أن تردد قليلا:

- هل سيكون من الممكن أن تسافر إلى فرنسا، لتكلم فرانسوا بنفسك؟ هو سيعرف كيف يمارس بعض الضغوط على الباب العالي.

أدهشني اقتراحه بالفعل، فقلتُ له بنصف ابتسامةٍ:

- سأحاول الحصول على تصريح السفر في أقرب وقت. سنفعل كل ما يمكننا فعله بالتأكيد يا دكتور نشأت.

حينما دق الجرس الطويل الممطوط، ليعلن انتهاء المقابلة، كنتُ أحملُ أفكارًا جديدةً في حاجة إلى التطبيق. خرجتُ إلى الشارع، وبرغم الفترة القصيرة التي قضيتها بالداخل، إلا أنني شعرتُ بروحي تتوقُ إلى الخلاص. للسجنِ شعورٌ غريبٌ بالقهر، يطرقُ كل أطراف قاطنه، ويجثم على روحهِ، ويطبعه بطابعٍ لا يمكن الفكاك منه.

قدتُ سيارتي على كورنيش البحر قليلًا. كان موعدي التالي بعد ساعةٍ، في قاعة فندق ساراجان، مع القبطان محمد وأحد رجال الباب العالي. لا زال القبطان يحاول أن يثبت صداقته لي، ويرعاني بقدر ما يستطيع.

أستشعرُ في أعماقي تغيراتٍ تزعجني، هناك أمورٌ لم أعد قادرًا على فهمها أو استيعابها.. كثيرٌ من الأشياء فقدت بريقها وأهميتها في داخلي؛ فكأنما كل الأمور تستوي وتتشابه، لا فارق بين أن انتصر أو انهزم، كأنها أشكالٌ مختلفةٌ للموت، وهي بعيدةٌ كل البُعد عن معنى الحياة. كأنما أسير في طريقٍ لم يكن لي منذ البداية، بعيدًا عن كل ما ظننته لنفسي، وأنا أستكشفُ نفسي في هذا الطريقِ مع كل فعلٍ أفعله، أو ذنبٍ جديدٍ أقترفه.

توجهتُ على مهلٍ إلى فندق ساراجان، يبدو أن الدفتردار لم يستطع الابتعاد قليلًا عن جو السلطة والسيطرة، فاختار فندقًا تم بناؤه على نفس الطراز العثماني لقصر ساراجان، واتخذ نفس الاسم كذلك.

(هامش: الدفتردار: أو وكيل الخرج الكبير هو منصب كبير في الدولة العثمانية ويشير إلى المكلف بتسجيل مصادر خزينة الدولة)

لا زلتُ أشعر بكثيرٍ من الادعاء في نفوس هذه الطبقة الحاكمة، وقليلا ما أشعر في أحدٍ منهم الأمانة والحماس لمصلحة البلاد.

وصلتُ إلى الفندق، وصحبني الخادم إلى الطابق الخاص برجل الباب العالي، وهناك استقبلني القبطان محمد وهو يغمز لي بعينه.. قدمني إلى الرجل قائلا:

- البروفيسير نور آدم، أحد عباقرة الاقتصاد المعدودين في العالم، حصل على درجة الدكتوراة من جامعة السوربون في فرنسا، وهو يدير هنا مجموعة شركات مارسيليا الشهيرة.

ابتسم الرجل بترحيب حقيقي، وتعجبتُ من تقديم القبطان المبالغ فيه جدًا. قال الرجل:

- مرحبًا بك. لكم يسعدنا أن تنضم لجلستنا، وتكون من أصدقائنا.

قلت، وأنا لا زلتُ لم أفهم خطة القبطان لتعريفي بالرجل بهذه الطريقة، بالرغم من أنني أنا الذي أحتاجه لا هو:

- السعادة والشرف لي يا معالي الباشا.

حدثني القبطان وهو يشير إلى الدفتردار من وقتٍ لآخر:

- لقد حدثتُ الباشا عنك، وعن أبحاثك المتطورة في مجالات الاجتماع والاقتصاد؛ ومعاليه في أشد الحماس لك.. هلا أخبرته بتفصيلٍ أكثر عن نشاط مارسيليا كورب؟

نظرتُ بتردد للقبطان، فشجعني بهزة رأسه على الحديث. كنتُ في حاجةٍ إلى شحنةٍ ضخمة من الرياءِ والكذب والنفاق لأجامله، وهي أشياء ظننتُ لسنواتٍ طويلةٍ أنني هجرتها؛ وقد كنتُ مخطئًا، كما هي عادتي.

بدأتُ أحكي للباشا:

- العالم يتقدم كما تعرف معاليكم، ولقد كان لسلطاننا الأعظم من حدة الرؤية، ما جعله يوقِّع اتفاقية التجارة العالمية، التي تحاول أن تجعل دول العالم تتشارك بعلومها وثقافاتها وحضاراتها معًا. أحد الطرق التي ستجعل للاتفاقية تطبيقًا أكبر هو محاولة إيجاد اقتصاد توافقي بين الأساليب

الاقتصادية الثلاثة المطبقة في العالم. فقبل قرنٍ من الزمان - كما تعلم فخامتكم - لم يكن من أسلوبٍ لإدارة ثروات البلاد ومؤسساها المالية سوى اقتصادياتنا الإسلامية، المعتمدة على قوانين التكافل والتوازن بين قوى ومؤسسات المجتمع. لكن الآن، وبعد نظريات الرأسمالية، التي صاغها آدم سميث، وطبقتها فرنسا وإنجلترا، ثم ما تلاها من ظهور الاقتصاديات الشمولية، التي قادها ماركس وإنجلز في ألمانيا، ويطبقها الآن الاتحاد السوفيتي بخطى حثيثة، لم يعد في وسعنا تجاهل كل هذا، كما رأى سلطاننا الأعظم وليّ النعم. حينما تمت اتفاقية التجارة بين أقطاب العالم الأربعة الكبار، كنتُ آنذاك في فرنسا، وقد تحمس أستاذي البروفيسير نشأت العالم لهذه الاتفاقية، وقررنا أن نبادر ونفتح فرعًا لشركاتنا "مارسيليا" في إيالة مصر. كان الهدف هو التبادل التجاري من الطرفين، فنعرّف كلًا من المجتمعين على منتجات وأفكار وطبيعة حياة المجتمع الآخر، فاستوردنا من فرنسا الملابس والعطور والمنتجات الغذائية، وصدرنا إليها القطن والفحم والمحاصيل الزراعية. وهذا هو نشاط الشركة الأكبر، التبادل التجاري بين الدولتين؛ وفي مرحلة متقدمة -لازلنا ندرسها الآن- سنقوم بتشييد المصانع في إيالة مصر، لننقل إليها أحدث أساليب التصنيع الفرنسية، ونصدر المنتجات لكل دول العالم.

حينما انتهيتُ من كلامي نظر لي الدفتردار طويلًا.. كان يشذب لحيته بأطراف أصابعه، ويحاول أن يستشف أعماقي، ثم طرقع بأصابعهِ، فدخل على الفور بعض العبيد، بثلاث نارجيلات، أحدهم ضخمة ذهبية اللون تناولها الباشا، وناولني أنا والقبطان الأخرتين، ثم دخلت عشرة جوارٍ، يتمايلن على صوت الموسيقى، التي انبعثت مع دخولهن.

ثم سألنا عما نشرب، فلما تمنعنا وشكرنا له كرمه، ابتسم وطلب من أحد العبيد أن يأتينا بأفخم أنواع الخمر، ثم قال بابتسامة طفت للحظاتٍ على شفتيه:

- هذه الأنواع لا نسمح بها للعوام من العثمانيين، لكنك الآن يا دكتور نور لم تعد منهم.

لم أفهم ما يرمي إليه، وانتظرت توضيحه؛ لكنه سألني بجديةٍ، وهو يدخن الحشيش نافذ الرائحة:

- اصدقني القول ولا تخشى العواقب.. أنت عشت طويلا في أوروبا، أي أنظمة الاقتصاد تراها أنجع في إدارة ماليات البلاد؟

الحقيقة هي أنني لم أصدقه القول في إجابتي الأولى عليه، لأنني لازلتُ أحتفظُ بالحقيقة لمرحلةٍ متقدمةٍ. لكن سؤاله الأخير هذا أثار ألمًا في داخلي، لا أعرف إن كان انعكس على ملامحي أم لا، لكنني سكتُّ طويلا. أخذتُ نفسًا عميقًا من الحشيش السلطاني، ثم قلتُ:

- نجاح الدولة في إدارة ثرواتها لا يقاس بتعظيم هذه الثروة، كما يدَّعي الماديون من أمثال ديفيد ريكاردو ومينارد كيتر، بل يقاس اجتماعيًا وسياسيًا وليس اقتصاديًا. في باريس يا معالي الباشا، لا يبالي الناس بالإنسانية، لا يعرفون التطوع بالمالِ وبالنفس، حي الشانزلزية يتسول فيه الأطفال العراة، وتأخذهم الشرطة إلى الملاجئ، ليعيشوا أسوأ حياة. ويمكن لشركةٍ عملاقة أن تشترى شركة صغيرة، فتأكلها وتشرد العاملين فيها، دون أن يشعر القائمون عليها بأي ذنب. هناك، يفرق الناس بين الحياة العملية والحياة الشخصية.. فوقت العمل يعملون، كأنهم ماكينات بلا قلبٍ وبلا شعور؛ وفي الملاهي وحانات الرقص، يبكون من صوت فتاةٍ عذبٍ

يغني؛ ثم يستيقظون ليحاربوا العمّال الذين يعملون ليل نهارٍ ولا يجدون طعامهم آخر اليوم. ربما لهذا ظهرت الحركات العمالية المطالبة بحقوقها المهضومة، وظهر قادة من أمثال ماركس وفريدريك أنجلز في ألمانيا، لينادوا بالاشتراكية والرفعة لطبقة العمال على حساب طبقة الرأسماليين، الذين لا يفعلون أكثر من الأكل واتخاذ القرارات الظالمة .

تعرف فخامتكم أنني عشتُ في ألمانيا لمدة عامين، كانت فترة من الدراسة والعمل لصالح مارسيليا، ورأيتُ هناك بؤس الحال وزوال الإنسانية.. الحياة التي تؤمنُ بالحقائق والمصالح، والفلسفة، التي هيأها لهم شيطانهم ديكارت، تسيطر على كل أوروبا. لا مكان للموسيقى والمشاعر إلا في الحانات الرخيصة، التي يبيعون فيها الخمر وأجساد النساء، ولا مكان للأخلاق والتراحم بين الناس على الإطلاق.

الاهتمام كان جليا في عينيه، فاسترسلت متشجعا..

– المؤسسات هناك والأفراد والحكومة والسلطة، جميعهم في حالة صراعٍ دائمٍ، تنافرٍ وضياع، نزاعُ المصالح وتنازعُ المؤسساتِ في منافساتٍ لا أخلاق لها هو ما يقوم عليه اقتصادهم. قرارات تعظيم القيمة، بغض النظر عن أي عواقبٍ أخرى، تجعل شريعة الغابِ هي شرعهم الدائم غير المعلن.. اقتصاد ربوي لا أخلاقي فرض سلطانه على أخلاق المجتمع، وعلى شكله وطبيعة أفراده، بل وعلى علاقات أفراده. لا مكان للأمان النفسي هناك يا معالي الباشا.. لقد انقطعت جذور الناس، وبدوا كحباتِ رملٍ طائشة في صحراءٍ عاتية الريح. المجتمع ينهار، لكن الحكومة والرأسماليين يزدادون شراسة، ولا يكفون على النهم والطمع، وتمتدُّ أياديهم الآن لخارج بلادهم، بعد أن أتت على كل خيرات أرضهم.

مع وصولي لهذا الحد، كان الدفتردار ينظر لي مندهشًا جدًا.. قال من بين أدخنته، التي ينفثها كمدخنة مصنعٍ تالفة:

- هذا قولٌ عجيب يا نور، لم أسمع به من قبل. لو أن ما تقوله صحيح، فسيسعد السلطان بهذه الأخبار كثيرًا .

قلتُ وأنا أخفضُ رأسي احترامًا:

- وأنا في خدمة سلطاننا الأعظم دومًا.

سرح بعينهِ بعيدًا، بين أرداف الغواني، اللاتي لم تكففن عن الدوران أمامه، ثم قال مرة أخرى من بين أدخنته، التي أخفت ملامحه تقريبًا:

- نحن نتابع نشاط مارسيليا كورب منذ أن أُودع مؤسسها السجنُ لتلاعباته، ثم بدأنا نتابع أخبارك، وبحثنا طويلا عن نص رسالتك في درجة التخصص، ولم نجدها، فطلبناها من إدارة الجامعة. نحن في حاجةٍ للوطنيِّين من أمثالك، القادرين على خدمة السلطنة بعلمهم الفذ يا نور.

قلتُ، وقد بدأت الدهشة تغزوني قليلًا:

- وأنا في خدمة الأراضي العثمانية يا معالي الباشا.

قال الباشا وهو ينظر ناحية القبطان:

-أنا أثقُ كثيرًا في قبطان محمد، وهو عمل معي لسنواتٍ طويلةٍ، وكان نعم الصديق.

سارع القبطان محمد برفع يده مراتٍ متتالية بين رأسه وصدره، في تحية إجلالٍ وهو يقول:

- شرفٌ لي يا معالي الباشا، شرفٌ لي.

تابع الدفتردار حديثه:

- هو حدثني عنك، حينما علم باهتمامي بكل من درس بالخارج، وقد علمنا عنك الكثير، ونأسفُ حقًا لوفاة زوجتك الفرنسية.

قلتُ، وأنا أحاولُ أن أستشف ما يريد:

- هي فرنسيةٌ من أصل عربي، وكانت تجيد العربية مثلي تمامًا.

ابتسم الباشا ابتسامة خفيفة وهو يقول:

- حتى هذا نعلمه .

ثم سكت قليلًا، وأشاح بوجهه بعيدًا، وهو يقول بصوتٍ خافت:

- بل نعلم ما هو أكثر من هذا.

اكتسحتني رعشةٌ فائقةٌ، وتوترت عضلات جسدي مع إشارته الخفية. لأي مدىً وصل علمه إذن؟ وكيف عرفه؟

قال وهو يعيد النظر لي بابتسامةٍ:

- ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نوليك ثقة كبيرة، ونكشفُ لك بعض الأسرار.

ثم صفّق بيديه، فتوقف الرقصُ، وخرجت الجواري مسرعاتٍ من القاعة، فأكمل حديثه:

- أحيانًا يا نور يأخذ القادة بعض القرارات غير الصحيحة، واعترافهم بهذا هو نصف بطولتهم، أليس كذلك؟

قلت مؤيدًا:

- ونصفُ عظمتهم كذلك، واستحقاقهم مكانتهم.

هز رأسه في رضا وهو يُكمل:

- لم يكن قرار الاتفاقية التجارية قرارًا اقتصاديًا، بل كان قرارًا سياسيًا، ولهذا نحن في حاجةٍ إلى بعض الإجراءات، التي تجعلنا نتجاوز عن مساوئ الاتفاقية.. أنت تفهمني بالتأكيد.

كانت هذه هي المرة الأولى، التي أرى فيها اعترافًا رسميًا من الباب العالي بقدرة أوروبا على ممارسة ضغوط سياسية لتمرير قرار أو مصلحة. أومأتُ برأسي للباشا، فاستمر في الحديث:

- نحن نريد أن نفل الحديد بالحديد، أن نحارب بنفس الأسلحة، ونقيم عدة شركاتٍ للدولةِ العلية في أوروبا، تدار وتعمل بنفس الأسلوب الذي يديرون به شركاتهم هنا. وهو في نفس الوقت تطبيقٌ للاتفاقية، وضغط عليهم لإلغائها.

تجمدتُ مصدومًا، إن هناك من يفكر بحقٍ في دار السلطان!.. أكمل الباشا حديثه:

- ولهذا نحن في حاجة إلى كل الكفاءات من أمثالك، ليشاركوا في تطبيق هذا الفرمان. سيكون لنا عدة جلسات معًا، قبل أن نرحل للأستانة، لنقابل الصدر الأعظم.

نطقت ملامحي وملامح القبطان بالدهشة، ولم أصدق أن تتحقق سريعًا آمالي بهذه الطريقة. قال الباشا وهو ينهي الحوار:

- سنحافظ على سرية هذا الأمر جميعًا، لأنه يقع في إطار الأمن العالي.

أيدنا كلامه، وقمنا من جلستنا، وتوجهنا للخارج؛ إلا أن الباشا استوقفني قائلا:

- يمكنك يا نور -لو أردت- أن تمر على جناح الجواري، لتختار منهن من تشاء هدية لك.

توترتُ وقلتُ له:

- أشكرك كثيرًا يا معالي الباشا، ويكفيني تمامًا رضاك، ليكون أفضل هديةٍ لي.

قهقه طويلا قبل أن يقول:

-هل تكفيك روكسلان إذن؟

ثم تابع ضحكته الطويلة، وهو يخرج من الباب، ويتبعه العبيد.

خرجتُ مع القبطان محمد، وبادرته بالسؤال زاعقًا، بمجرد أن خرجنا من الفندق إلى الشارع:

- كيف لم تخبرني بكل هذا يا قبطان؟

بسط كفيه أمامه وهو يقول:

- والله لم أكن أعرف كل هذا !! هذا الدفتردار ثعلبٌ ماكر. كل ما قاله لي إنه يريدك في استشارةٍ، ليقيم بعض مشاريعه الخاصة. وظننتُ أنك يمكن أن تعقد معه صداقة، تصل بك بعد فترة إلى الصدر الاعظم كما طلبت!

قلتُ، ونحن نتوجه إلى سيارتي:

- لقد كانت الضرباتُ تأتيني على رأسي من كل جانب.

جلسنا في السيارة، والقبطان يقول لي:

- لكنني واثقٌ أنك أثرت إعجابه. لم يكن ليوليك كل هذه الثقة، إلا لو أثرت إعجابه.

كنتُ أعرفُ كيف استحققتُ ثقته، ولم يكن هذا بسبب إعجابه بي، بل ربما بسبب أسرارٍ، أظن أنني وحدي من يعلمُ بها، أو بسبب ممارستي لدور الضحية، التي ترفض أن تكون كذلك. من السيء أن يراك الناسُ أفضل مما أنت عليه!.. والأسوأ، أن يروك أقل مما أنت عليه!

حينما نزل القبطان بالقرب من بيته، وجدتُ نفسي أتوجه إلى البحر، وأجلسُ إلى الشاطئ، وأترك سيارتي في حيازة السائس، كما أترك نفسي في حيازة أهوائي، التي لا أعرف لأين ستودي بي.

(٤)

أعشقُ متابعة شروق الشمسِ كل يوم، رائحة يود البحر القريب من البيت تغرق الصباح في أنفاسٍ عطرة، والسحب التي تسبح في مكانٍ ما بيننا وبين السماء، كأنها قطعٌ من القطنِ تسبح على حافة بحيرة، وقد حدتها أشعة الشمسِ بحوافٍ ناريةٍ معلقةٍ فوقنا وتسبحُ في هدوء.

تعودت روكسلان أن توقظني في هذا الوقت. أقومُ، لأجدها قد أعدت الإفطار في الحديقة، ونظفت مكان سهرة اليوم السابق، وتخلت عن نصف ملابسها، وأدارت المذياع على محطة الموسيقى .

بعد هذا، تبدأ روكسي في الرقص.

لا أعرفُ كيف تعلمت كل هذا من دار السلطان في الأستانة. الجواري كُن يرقصن أمامها، فتقلدهم ليلًا وحدها. كانت صغيرة، ولم يكتمل نضجها بعد. لكن روحها كانت تتخطى أعوامها القليلةِ بكثير، وكان شعورها يدهشني.

تدورُ من حولي وهي تتخلى عن ملابسها قطعةً بعد قطعة، فتسرى قشعريرة كالكهرباءِ في جسدي، وتأخذني بحركاتها المنادية، وهي تقتربُ في عشقٍ ورضوخ.

مثل هذه الصباحات المتميزة تجعل للحياة طعمًا مختلفًا.. تمنحني شعورًا قديمًا، نسيته منذ سنواتٍ طويلةٍ في حي الجبل، حيثُ ولدتُ.. تُعيدُ قلبي للحياة، بعد أن وطأته سنوات القهر الفائتة.

تقتربُ مني، وهي تضع أوعية الطعامِ أمامي، ثم تتوقف عن الرقص، وتبدأُ في تدليك ظهري بأصابعها المرمرية، ليسري الخدر في أوصالي.

تقولُ روكسلان، وهي تقفُ ورائي لتدلك كتفيّ أثناء إفطاري:

- القبطان محمد جاء بالأمس يا سيدي. كان يريدك في أمرٍ مهم. ولّما عرف أنك نمت، طلب مني أن أخبرك أن موعد الرحيل إلى الأستانة بعد شهرٍ، لتستعد؛ لأنه سيغيب لفترةٍ طويلة في أمرٍ يخصّه.

توقفتُ عن الأكل، فتوقفت هي بدورها عن التدليك، ودارت حولي، لتواجهني بعينين حزينتين:

- هل ستسافر هناك يا سيدي.

أومأتُ لها برأسي إيجابًا، فقالت وهي تخفضُ رأسها في خجلٍ:

- هل يمكن لروكسلان أن ترافق سيدها؟

ابتسمتُ بالرغمِ مني، ومددتُ يدي لأرفع رأسها:

- هل اشتاقت روكسلان إلى اسطنبول لهذه الدرجة؟

عادت لتخفض رأسها وتقول:

- بل لا تعرف كيف سيمكنها العيش بدون سيدها .

مددتُ لها يدي، فاستكانت في حضني طويلًا، ومدت يديها حولي، تضمني إليها وتتوسدُ صدري، وقالت:

- لم أتذوق حلاوة العيش كما تذوقته في صحبتك يا سيدي!

ربتتُ على وجنتيها وأنا أقول:

- ستكون رحلة قصيرةً، سنقابل الصدر الأعظم لأيامٍ قليلة ثم نعود؛ لن أغيب طويلًا.

انتفض جسدها، وشحب وجهها، فتعجبتُ من هذا وسألتها:

- ألم تعيشي هناك فترة من عمرك؟

قالت بصوتٍ مبحوح:

- نعم يا سيدي، لقد كانت أيامي صعبة هناك.

ثم تابعت بسرعة:

- أتمنى لك رحلة موفقةً يا سيدي.

هززتُ رأسي، فرنت إليّ لأقبلّها، ثم قامت لتتابع أحوال البيت، ومكثتُ طويلًا في تأملاتي. كنتُ استشعرُ حنينًا دافقًا لحي الجبل، حيثُ ولدتُ، وتربيتُ، وتدفقت دماء التمرد في عروقي. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقومُ لأسير في شوارع الإسكندرية. الشوارع التي تغيّرت، وازدادت بها الحافلات، واستطالت فيها المنازل، وعبس في جوانبها البشر. لكن الأطفال لا زالوا كما هم، يملئون العالم صخبًا وبراءة .

بالرغمِ مني، كنتُ أعقد في كل مرةٍ أسيرُ فيها مقارنةً بين شوارع الإسكندرية، وشوارع باريس. هنا أشعرُ بحميميةٍ أكثر، أشعر بأن السائرين في الطرقات قريبون من دمي؛ أما هناك، فكان التكلّف يغلفُ كل شيء، بدءً من ملابس الناس، وحتى إعلانات الشوارع الضوئية.

اختلاف الناس هنا ينتج عن اختلاف ثقافتهم، لكنه هناك ينتج عن اختلاف طبقاتهم. هنا تجد من يرتدي الجلباب والعمامة، أو من يرتدي البدلة الاوروبية، أو من يرتدي العباءة والكاكولا؛ أما هناك، فالناس أحد شكلين، إما من يرتدي ملابسًا أنيقةً، أو ملابسًا مهترئة لا يقدر على شراء سواها.

أحيانًا نسعى في طريقٍ طويلٍ ممضٍ، بحثًا عن حريتنا، ولا نعرفُ أننا مع كل خطوةٍ نخطوها نفقد هذه الحرية. نبحثُ عن الحياةِ، ولا نكتشفُ أن الصورة المثالية منها هي ما نعيشه. لكم تخليتُ عن أشياءٍ كثيرةٍ أملكها، في سبيل أشياءٍ لا أعلمُ عنها شيئًا. الآن أستكشفُ هذه الحياة التي عشتها، وأبحثُ عنها، وأكره الحياة التي سعيتُ إليها بكلِ شغفٍ وجنون.

تأخذني خطواتي بإرادها الخاصة إلى حي الجبل، إلى الشوارع الضيقةِ، والمحلات على جانبيها، وصخب الناس وزعيقهم الممتلئ مرحًا أو نزاعًا. أعبر الكوبري الذي يقطع إحدى الترع، لأكون في حضرة الحي.

أتذكرُ سؤالي، الذي كنتُ أسأله باستمرارٍ لأبي: أين الجبل الذي يسمون الحي به؟ كان يضحك باستمرارٍ، ويخبرني أهم اكتشفوا هنا جبلًا من الآثار الفرعونية القديمة، ثم أخذوه بالكامل إلى المُتحف.

لا زلتُ أذكرُ كثيرًا من الوجوه التي شاخت قليلًا، عم إدريس بائع الجرائد الأعرج، الذي كنتُ أشتريها منه كل صباح، والذي يجلسُ على طرف الكوبري. وهناك باعة الخضروات على العربات الخشبية، لا زالوا كما هم لم يتغيروا، وإن ازدادت أحوالهم بؤسًا. كنتُ أشتري منهم في يوم الجمعة فقط، بعد الصلاة. أعرفُ أن لا أحد يذكرني هنا؛ فلم أكن من النوع المتحدث الذي يصاحب البشر، بل كنتُ منعزلًا بعيدًا وحيدًا، أغرق

بين قراءاتي وكتبي، وأكره اللحظة التي أخرجُ فيها للناس لأي سبب. بالرغم من هذا، أشعرُ ببعض الحنينِ لهذا المكان، وتسري في عروقي رعشةٌ خفيفة، لم أشعرها من قبل.

هذه الطيبة البادية على الوجوه، برغم الشقاء الذي يعيشونه، لم أكن أفهمها من قبل، لكنها الآن تأخذ عقلي، وتخدر حواسي.

- نور!

جاءني الصوتُ من الخلف، فالتفتُّ مستغربًا، لأجد..

- إيمان؟ !

صحتُ بها وقد أصابني الذهول.. وقفنا ننظر لبعضنا البعض غير مصدقين.. لم أتخيل أنها لا زالت تسكن في نفس الحي. لدقائقٍ شعرتُ بالعالم يتوقف، ويتلخص في هذه الملامح المندهشة السعيدة.. شعرتُ أن ما يقربُ من عقدٍ من الزمان قد ولى بعيدًا بلا أثر، وبحزنٍ ثقيل الوطء يدوس على روحي، التي تبحثُ عن الخلاص، فيغمرني القهرُ والندم.

قالت وهي تحاول أن تداري دهشتها وفرحتها:

- لا أصدقُ أنك عدت إلى هنا.

كانت الدهشة قد أكلت لساني، وغامت الدنيا أمامي، وراء قطراتِ دمعٍ تبحثُ عن الغفران. مدت يدها الحبيبة إلى ذراعي تمسكني، وتنطقُ باسمي في همسٍ أفقدني توازني، وجعلني أركن على عربة الخضراوات الخشبيةِ، التي كانت تبتاع منها.

وبصوتٍ رقيقٍ، حاولت أن تشجعني وهي تقول:

- هيا اخبرني، متى عدتَ إلى هنا؟

حاولتُ أن أنطق أو أفتحُ فمي، فلم أستطع، فسعلتُ بقوةٍ وانا أهمهمُ:

- حوالي عام تقريبًا.

اتسعت عيناها ذهولًا، فقلتُ مستدركًا:

- لم أتخيل أنكِ لا زلتِ هُنا.

حاولت أن تبتسم، فأتت ابتسامتها محبطةً، تحملُ قدرًا من المرارة، ثم قالت:

- ولم عدت إذن؟

كانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي، التي أجد في إيمان بعض القسوة. عادت إلى سيرها، فسرتُ بجوارها بخطىً مضطربة. كل شيءٍ يبدو أمامي مختلًا، ولم أقدر على استيعاب ما يحدث. أكادُ أرى أطيافنا الطفلةِ وهي تلعبُ في هذا السوق تحديدًا، حينما كانت الشوارع أكثر اتساعًا، وتمثل العالم بأسره. كنّا نشترى حاجيات بيتينا معًا، ونجلسُ على الرصيفِ نتحدثُ بجديةٍ، ونجري وراء بعضنا البعضِ، حتى نقترب من البيت. كانت هذه هي نفس الشوارع التي حملت ذكرياتِي مع إيمان، لكنها الآن صارت أكثر ضيقًا، وأكثر واقعية .

قلتُ لها من وراء شرودي، ونحن نسير معًا، ونحملُ فوق أكتافنا ذكرى سنواتٍ كثيرةٍ مريرة:

- جئتُ أبحثُ عن حياةٍ لم أعرف قيمتها، وأبحث فيها عن نفسي التي تركتها هنا.

نظرت لي باستغرابٍ وهي تقول:

- الآن؟ وبعد عامٍ من مجيئك؟ لماذا؟

كان من حقها أن تقول أو تفعل أي شيء، إلا أنها بدت هادئة في ظاهرها؛ وأعلم أن هناك نيرانًا تختلجُ في أعماقها. تتأملني محاولةً أن تستشف ما قد حدث لي، أو أن تعرف ما أصابني من تغيرات.. قلتُ لها:

- لم أعرفُ أنني فقدتُ نفسي إلا خلال هذا العام يا إيمان.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ونظرت لي بطرفٍ خفي، ثم سألتني:

- هل ستحكي لي كل شيء؟

لا زالت كما هي لم تتغير. قلتُ، وقد سطع في داخلي شيءٌ من الأمل:

- أتعرفين يا إيمان، لو أنني قبّلتُ قدميكِ، وذبحتُ نفسي تحتهما، لما استطعتُ أن أوفيكِ حقكِ عليّ.

ابتسمت، وقالت:

- لماذا يا نور؟ ليس إلى هذه الدرجة.

سرنا قليلًا صامتين.. وهي تختلس النظرات إلى وجهي، قبل أن تعود لتنظر حولها. ثم إنها قالت أخيرًا:

- لا زلت جميلًا من الداخل يا نور، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي نفيًا وأنا أقول:

-لا يا إيمان، لم أعد كما كنتُ. فقدتُ كل ما أملكه في داخلي، لقد صرتُ شخصًا غريبًا عني.

ضحكت في رقةٍ وقالت:

- كانت هذه الجملة هي ما أسمعه منك كثيرًا بعد غيابك الأول يا نور؛ هل تذكر؟

ثم نظرت لي وأكملت:

- لم تتغير كثيرًا إذن!

ذهبنا معًا إلى بيتها. لا زالت تسكن مع والدها، لم تتزوج حتى الآن، ولم تغادر حي الجبل لأكثر من شهرٍ، في زياراتٍ متقطعةٍ إلى خالتها في دمنهور.

يضيقُ حلقي من الألم لما عانته من أجلي. لا أستوعب الآن كيف تركتها، وأي تهديدٍ جعلني أستسهلُ الهرب!.. ظننتُ أن أوان رحيلي قد آن، وأن موسم هجرتي لن تليه عودة. كنتُ أستمد منها الأمان، الذي لم أجده مع أحدٍ من قبل.. لم أخبرها برحيلي. فقط انسحبتُ، ظنًا مني أنني أحميها، وأنني – كبطلٍ إغريقيٍ يستحقُ الشفقة – أذهبُ بإرادتي الحرة إلى هلاكي.

لم أعرف أنني كنتُ أفقد جزءً من هويتي وأنا أبتعد عنها.. لم أكتشف هذا إلا متأخرًا. لم أكتشفه إلا الآن، حينما رأيتها من جديد.. اكتشفتُ أن ثمة نبضٌ خفيٌّ كان عالقًا في أعماقي، يجتاحُ جوانبي ويقلقني.

وهي كما هي، لم تتغير، لم تتزوج، لم تفقد ابتسامتها وحنانها الدائم عليّ. والأهم، أنني أشعر بمكاني لا يزال فارغًا عندها. يتأكد في داخلي الآن شعوري القديم بأنها أكبر من الحب. لو أن هناك شيئًا ما أكبر من العشق، وأكثر احتواءً للحياة بكل ما فيها، وأكثر تسامحًا، لكان هو إيمان، التي أنتمي إليها أكثر مما أنتمي إلى نفسي.

دعاني أبوها إلى الغداء.. كان قد شاخ كثيرًا، وبذل جهدًا مضنيًا ليستطيع التعامل معي، بعد أن رجته إيمان أن يفعل. لم أنسَ أبدًا ما فعله هذا الشيخ الفاني بنا منذ سنواتٍ عديدة، لكنهُ الآن أحوج للشفقة. حكت لي الكثير عن حياها، وأمضينا عدة ساعاتٍ على باب الدارِ -كما كنا نجلسُ دومًا- أحكي لها ما واجهتُ خلال سنواتي الفائتة. حكيتُ لها كل شيء، وأخبرها بقراري السفرِ إلى اسطنبول مع القبطان محمد، لنقابل الصدر الأعظم خلال الأيام التالية.

قالت لي، عندما حل المساء، وهي تودعني على باب الدار:

- عُد لي من سفرك يا نور، لو كنتُ فقدتك مرتين من قبل، فلن أتحمل المرة الثالثة أبدًا.

احتويتُ كفها بين راحتيّ، رفعتها لفمي، وطبعتُ عليها قُبلة حاولتُ أن أودعها كل حنيني واشتياقي وحُبي. وحين استدرتُ لأرحل، سمعتُ همس الريح ينقل لي صوها المفعم بالمرارةِ والألم: "لماذا عدت؟"

(٥)

إنها المرة الأولى التي أرى فيها اسطنبول من نافذة الطائرة. مدينةٍ أسطوريةٍ، لم ترد إلا في كتب الأحلام، تمتلئ بالمآذن والقصور والأشجار الوارفة.. كأن فيها شيئًا من رحيقِ الجنةِ.

أشد ما جذبني وأفقدني عقلي واتزاني هي قصور اسطنبول، الأكثر ضخامة وروعة من باقي مدن الألف قصر في البلقان بأسرها. كنتُ أعرفُ بقصة القصور هذه، التي درسناها في كتب التاريخ كأفضل ما فعله السلطان الفاتح.. ربما توازي فتحه للمدينةِ نفسها. لكنني لم أكن رأيتها من قبل ، ولم أتصور أنها بهذا الحجم وهذه الروعة.

أول ما طلبت من القبطان محمد هو أن نزور القصور أو بعضها، فأبدى تحمسًا، برغم أنه زارها كثيرًا من قبل. قال لي إن هذه القصور مثل النساء، لا تمل معاشرتهن مهما ضاجعتهن.

أخذني من أقصر طريقٍ من المطار إلى قصر ايرونيموس، آخر العلماء الذين عادوا من إيطاليا إلى الآستانة، وقصره هو أفضل القصور على الإطلاق. يقول القبطان محمد إن السلطان الفاتح أصر على أن يشيِّد كل قصرٍ أفضل من سابقهِ.

حينما وقفنا على الأبواب العملاقةِ، شعرتُ أننا أمام مدينة كاملةٍ، لا مجرد قصر.. مدينةٍ بأسوارٍ عملاقة، تستدير حول مساحةٍ ضخمةٍ من

الأسرار المختبئة، التي لن تصل لنهايتها أبدًا.. لقد تحول القصر إلى مزار سياحي.

يضحك القبطان محمد وهو يعلق على كتب التاريخ المدرسية، التي حكت موقف السلطان العظيم، ولم تحك ما آلت إليه مدن الألف قصرٍ، على مدار خمسة قرونٍ من حكم سلالتهِ.

العديد من القصور استولى عليها السلاطي؛، برغم أن فرمان السلطان أقر بانتقال ملكية هذه القصور إلى تلامذة العلماء، لا إلى سلالتهم. لكن السلاطين أهدوا بعض هذه القصور إلى حلفائهم ورجالهم، ليضمنوا ولاءهم، ونقلوا تلامذة العلماء إلى أماكن أخرى، مما أدى إلى هجرة بعضهم في القرون التالية، وعزوف بعضهم – من مدعي العلم — عن العلم والتدريس، وفُتحت بعض هذه القصور – منذ ذلك الوقت – كمزاراتٍ سياحية، يزورها الناسُ، ويجني السلاطين غنائمهم منها.

في داخل القصر، الذي يتكون من ثلاثة أدوارٍ عملاقة، انتشرت التحف واللوحات الفنية، والأثاث المكون من الذهب الخالص. وانتشر كذلك رجال الأمن وأجهزة المراقبة وكلاب الحراسةِ المقيدةِ . أخذتني هذه العظمة المشيدة، وأحزنتني طريقة إدارتها. وكأننا لا نستحق التاريخ الذي ورثناه عن أسلافنا، أو كأننا لا نمت بصلةٍ لهم.

في عصر الفاتح، كان الناس يلجون هذه القصور لتلقي العلوم في الفلك والطب والفلسفة، وكانت الندوات العلمية تدور في هذه الأروقة وبين هذه الجدران، ولم يكن ثمة رجل أمن يمنع الناس من سرقة التحف، أو كلاب مدربة تزمجر كلما اقترب منها أحد.

الان، لا يري الناس إلا التحف والذهب المنتشر بإفراطٍ يدير العقول بين أروقة القصر، ويتعايشون مع حقيقة أن العلوم انحسرت في عدد من الجامعات، التي تضع شروطًا مجحفة لدخولها، وتستورد طلبة العلم من أوروبا وأسيا، في صفقاتٍ سياسية أو علمية متبادلة. الآن اختلط كل شيءٍ بالسياسة، وتوقفنا حضاريًا عند عصرٍ معينٍ، واهتممنا بالقوة العسكرية والجيوش، بأكثر من اهتمامنا بالعقل الذي يحرك هذه القوة. بينما تنهض الدول التي تأتي لتلقي العلم في جامعاتنا، لتلحق بنا، بينما ندور نحن في فلك الماضي.

في أوروبا الآن يصنعون التاريخ، بينما نعيش الآن على رمقهِ.

كان القبطان يقفُ أمام تمثالٍ من الذهب، لعالمٍ متسربلٍ في حرملتهِ، يمسكُ كتابًا وينظر أمامه، كأنه يلقي خطابًا على تلامذته. قال لي وهو يدور حول التمثال:

- لقد وصلوا لقمة مجدهم.

كان التمثال فائق الجمال بالفعل، موضوعٌ على مدخل خلفي للقصر، في فناءٍ واسعٍ يمتلئ هدوءًا، برغم كثرةِ الناس التي تلف المكان بعينيها، بأكثر مما تدور على قدميها.

حكيتُ له ما كان يدور في أعماقي، فقال لي وهو ينظر للتمثال في شغف:

- هل تعرف شعور أن يصنع لك أحد تمثال من الذهبِ كهذا؟ لقد حقق هؤلاء القوم كل إشباعٍ دنيويٍ من مالٍ وجنسٍ وسلطة، منحها لهم السلاطين على مر العصور، وكان لديهم الوقت والرغبة والقدرة على الغوص في أعماق العقل، بحثًا عن الخفايا والأسرار. أما الآن، فلا وقت ولا

رغبة ولا قدرة لأحدٍ على هذا؛ إلا القليل من المنعزلين عن العالم وعن أنفسهم، ويحملون شبقًا للعلوم مثلك يا نور.

قلتُ له في دهشة :

- انا منعزلٌ عن نفسي يا قبطان؟!

ضحك وقال:

- حينما تأتي لمكانٍ كهذا، ولا تفكر في أن تعيش فيه حتى ولو كحلمٍ، وتفكر في عزوف الناس عن المعرفة. فأنت منعزل عن الدنيا وعن نفسك.

صعدنا السلالم المؤدية للباب الخلفي، وتركنا العالم الذهبي وراءنا، بينما القبطان يُكمل:

- الغرب تزداد شوكته قوةً يا نور، ويكاد يساوينا ثروة وقوة.. ربما لهذا يفزعُ السلطان ويعد عدة جيشهِ.

قلتُ له:

- يا قبطان، لقد نهضت أوروبا بأسرع مما تخيلنا. خلال عدة قرون، وصلت لما وصلنا إليه عبر أكثر من ألف وأربعمائة عام. صنعت فلسفات خاصة بها – حتى لو كانت تقترب من الإلحاد – وصنعت أنظمة سياسية واقتصادية، وقد وصلت لهذا بالعلم وحده، لا بعتاد الجيوش. الآن لم يبق إلا القليل لتنقض علينا.

جلسنا في صالة السائحين، وهي غرفة واسعة، متوفرٌ بها بعض المشروبات الساخنة والعصائر، وانتشر بها الطلاب الأجانب – وهم القليلون المسموح لهم دخول الأراضي العثمانية– في دوائر يضحكون ويتناقشون. قال القبطان وهو ينظر إليهم، ويرتشف القرفة التي يحبها:

- أتعرف يا نور! بعد طول رحلاتي التجارية لكل بلاد العالم، بماذا أحلم الآن؟

نظرتُ له متسائلا، فأكمل:

- أحلم أن يسافر الناس لكل البلاد، أن تنفتح القيود السياسية بين الدول، أن تختلط الثقافات وتتبادل، أن يتعاون الغرب والشرق. وأظنُّ أننا في طريقنا لهذا الآن، بعد أن صار الجميع على نفس درجة التقدم.

نظرتُ باستغرابٍ إليه، وقلتُ له وأنا ابتسم :

- كلٌّ يرى ما في جعبتهِ فقط؛ لكن أنت تعرف أن ما تقوله صعب التحقيق. هذا هو تعريف المثالية، الناس لا تتعاون ولا تتحد إلا في مواجهة خطرٍ مشتركٍ يهدد وجودهما معًا. لا أحد يتحد مع أحد لأن هذا أفضل. ما يحرك الإنسان هي غريزة البقاء، وأنانيته ورغبته في الاستحواذ على كل شيءٍ. وعدم ثقته في أي أحدٍ آخر، لا عطائه واتساع روحه في تقبل الآخر. الأمهات فقط يفعلن ذلك.

توقفتُ لحظة، وأنا لازلتُ مندهشًا من قدرتهِ على تمني أمنيةٍ مثل هذه، سألتهُ:

- ألا تعرف لماذا نحن هنا؟

قال وهو يتنهد:

- نعم يا نور، أعرف، الشركة الفرنسية، واتفاقية التجارة المجحفة، والرغبة في السيطرة على جانب من حياتنا الاقتصادية.. كل هذا أعرفه. لكني أظن كذلك أن كل ما يحدث محاولات من الطرفين لاختبار قوة الآخر، حتى إذا ما تأكد لكل طرفٍ قوة الآخر، وخسارته من مهاجمة الآخر

له، ستأتي اللحظة التي يكتشفان فيها أن تعاونهما مكسب لكل منهما. إننا في هذه اللحظة الفارقة من تاريخنا معهم، إما أن تحدث توقعاتك، أو أن تحدث آمالي.

حاولتُ أن أفكر في تفسيره، لكن شعرتُ أنه يبتعد كثيرًا عما يحدث فعلا. قمنا من مجلسنا، بعد أن أنهى القبطان قرفتِه المحببة، وخرجنا من القصر، وقد تركت جزءًا مني بين جنباته. وفي الخارج، وقبل أن أدلف إلى سيارة القبطان، ألقيت نظرةً أخيرة عليه، وعلى بوابته المفتوحة على مصراعيها، وتلذذتُ بعبق التاريخ يلفح أعماقي.

لا زال حُلمي في أن يعاودنا مجدنا القديم، في أن نحتفظ بعلومنا كأنها أسرارنا الخاصة، كما فعل الفاتح . سألتُ القبطان مبتسمًا:

- لو لم يقم السلطان الفاتح بإطلاق فرمانهِ القديم، وبناء هذه القصور، واستدراج العلماء الهاربين من أوروبا، ترى ماذا كان يمكن أن يكون وضعنا الآن؟

(٦)

الأرضُ متسعةً على امتداد البصر، مظلمةً إلا من أضواءٍ شحيحةٍ، تأتي من لمعان النجوم في السماء والقمر الشاحبِ الذي علته حُمرةً قانيةً. أغوصُ في الطينِ الذي أمشي فيهِ، وحولي أصنافُ من البشرِ تسير كالمسحورةِ، نحو مبنىً كئيب المظهر ضخمًا كالجبلِ، يأخذُ الأعناق.

الشيطانُ الذي يعزفُ الناي، يأخذُ الأرواح، ويهيج الشهوات في أعماقي، يجعلني أفقد عقلي وأركضُ في اتجاهه كالمسحور، أريدُ التوقف، أريدُ التفكير، لكن كيف؟

رميتُ نفسي على الوحل، لأتوقف عن السير.. حاولتُ أن أسد أذنيَّ بيديّ، كنتُ أرى الناس تخلعُ ملابسها، والنساء تتجه نحو الرجالِ عارية، تطالبهم بالعطاء.

شعرتُ كأن صوت الناي توقف للحظاتٍ، ثم عاد بأقوى مما كان. كنتُ أصرخُ، وقد بدأ صوتيَ في الخروجِ غاضبًا متمردًا ساخطًا. بدا لي وكأنني أرى شيئًا أسود، يسد عليّ الرؤية، وشعرتُ بأنني في مكانٍ مختلفٍ، فوق قمة البناءِ الكئيب. وكان الشيطان يجلسُ، متربعًا أمامي على الأرض، وفي يديه النايَ.

عيناه حمراوتان كالدمِ، وصوتُ الناي يخترقُ أعماقي.. زحفتُ إليه لأكسر هذا الناي الشيطاني، فاختفى من أمامي، وعدتُ من جديدٍ إلى المستنقع الموحل.

توقفتُ عن السير، وقد عاد لي بعضٌ من التحكم في نفسي. وقفتُ على قدميّ، وبدأت أنظر للناسِ من حولي، وقد فقدت وعيها مسحورةً. اتجهتُ إلى بعضهم، وبدأت أجذبهم، أصرخُ فيهم أن الشيطان هو من يعزفُ الناي ليسحرهم ويفقدهم صوابهم. كانوا يتساقطون على الأرضِ ثم يسدون آذانهم. جريتُ نحو الباقين، ثم وجدتُ الشيطان يقفُ أمامي، يمنعني عن الاستمرار. أمسكني، فارتعشت كل خليةٍ في جسدي، ثم ألقى بي في اتجاه قلعته الكئيبة. حاولتُ النهوض، وهو يسير في اتجاهي، ويلقي كل من تساقطوا نحوي.. بين يديه شعلة نارٍ، وقد قرر حرقي لأكف عما أفعل .

صرختُ في رعبٍ، وحاولتُ النهوض، لكن أطرافي لم تستجب لي، واصلتُ الصراخ.. وهو يقترب.. ثم. .

نهضتُ من نومي مفزوعًا. .

أنفاسي تتلاحق، وروكسي أمامي جزعة، لا تعرف ماذا تفعل. دموعها تتساقط وهي تقول:

- ماذا بك يا سيدي؟ ماذا بك؟ أحاول إيقاظك ولكنك لا تستجيب.

نظرتُ حولي، كنت محتارًا من هذا الحلم، الذي صار يزورني باستمرارٍ في الفترة الأخيرة. نفس الحلم بأحداثٍ متتالية، كأنه رسالةٌ ترسلها إليّ نفسي.

قلتُ لها:

- لا شيء يا روكسي، مجرد كابوس لا أكثر.

صحبتها معي في رحلتي إلى هنا، لما عرفتُ بطول عشرتها مع الطبقة الحاكمة، وفكرتُ في أنها لا ريب ستكون مفيدة لي في فهمهم، ومعرفة

طرق تفكيرهم وأساليبهم. برغم سنها الصغير، إلا أنني لمستُ فيها إدراكًا واعيًا لسياسات هؤلاءِ القوم، وطرقهم في تدبير المؤامرات، ورغبتُ في معرفة كل هذا.

التقينا في اليوم السابق مع الصدر الأعظم، الرجل الثاني في السلطنة، وكنا مجموعة كبيرة من الدارسين في أوروبا والاتحاد السوفيتي. ثم حينما التقاني في لقاءٍ خاصٍ، حكيتُ له عن اقتراحاتي، التي رغبت في عرضها عليه منذ فترةٍ طويلة.

ربما يكون من الجيد جدًا أن نعاملهم بمثل ما يعاملوننا، ونقوم بإنشاء الشركات العثمانية في أوروبا. لكن هؤلاء القوم لا يلتزمون بالأخلاق وبالاتفاقيات والأمانة، لأنهم سيحولون الأمر إلى حربٍ داميةٍ حقيقية، وأكبر دليلٍ على هذا هو ما فعله الدكتور نشأت ودولته، التي شغل فيها منصب وزير الاقتصاد لعدة سنوات.

أخبرته بأن السبب الأساسي في إقامة فروع لشركة مارسيليا ليس هو التبادل التجاري، كما أعلنت الشركة، وفقًا للاتفاقية الدولية. ولكنها أقيمت لتكون وسيلة، لسرقة خيرات الولايات التي تقوم فيها.

بعد قرونٍ طويلةٍ من الصراعات والحروب، والحملات الصليبية على الدولةِ العلية وما سبقها، ومع قوتنا الحربية القادرة على حماية كل شبرٍ في السلطنة، قرر الغرب أن يجد وسيلة أخرى لاستعمار البلاد اقتصاديًا بعد فشلهم حربيًا. ما فعله الدكتور نشأت، أنه قام باستيراد كل المواد الخام من البلاد، ليشحنها إلى بلاده، ثم يستورد منتجاتٍ تتنافى مع الثقافة العثمانية، مثل ملابس النساء الأوروبية، أو المنتجات الغذائية التي تحمل نسبة من الخمور ولحم الخنزير غير المصرح بها، ما أدى لسجنه ومصادرة هذه

المنتجات، وهي أمور تعمل على نقل الثقافة الأوربية إلينا، والتأثير على ثقافتنا بالسلب.

بالإضافة لهذا، فهو يقوم بسحب أموالٍ طائلةٍ من البلاد، في مقابل سلعٍ استهلاكية لا حاجة لأحدٍ بها، من خلال شبكات تسويقية بين عوام الشعب، فيستغل حاجة الناس إلى العمل ليسحب منهم أموالهم الشحيحة، مقابل تسويق سلعٍ أوروبية ينبهر الناس بها، لعدم اطلاعهم على هذا العالم البعيد عنهم. وتدريجيًا، يطبق في شركته كل أساليب تعظيم القيمة، دون الاهتمام بأي أخلاقيات مجتمعية.

عرضتُ عليه أيضًا خطتي بسحب كل رؤوس الأموال من المركز الرئيسي للشركة في باريس، لإنشاء مصنعٍ ضخمٍ في الإسكندرية، نطبق فيه أحدث طرق التصنيع، ونرد في نفس الوقت كل ما خرج من أموالٍ من البلاد، وهو ما يوازي ملايين الليرات.

أخبرته كذلك بمخاوفي من أن تتحول الشركات التي سنبدأ في إقامتها إلى شكلٍ آخر من أشكال سحب الخيرات إلى خارج البلاد. ربما كانت هذه هي خطوتهم الأولى في خطة إضعافنا اقتصاديًا، تمهيدًا لضربنا حربيًا في مقتل.

كان الصدر الأعظم يستمع لي، وقد علت وجهه كل ملامح الجدية والخطورة، فلما انتهيتُ من حديثي، شكرني وأخبرني أنه سيحتاجني كثيرًا فيما بعد.

كانت هذه هي خطتي لاسترداد نفسي وهويتي من جديد. وقد قررتُ أن أقف في وجه هذا الطاغوت القادم من الشمال. لا أعرف إلام سيؤول الأمر؛ لكنني كنتُ أوقن أن هذه اللحظة من اللحظات المصيرية في حياتي، مثلها مثل قرار سفري الأول إلى الغرب المبهر.

القسم الثاني

تحكيه:

إيمان إسحق بن عبد الملك النصراني اليعقوبي الغيطاني

(١)

طائرةٌ ورقيةٌ صغيرةٌ، كانت ترفُّ قبل عشرين عام في هذه الناحيةِ من الشارع، رافقتني مدى عمري بأكملهِ. طائرةٌ ورقية، كان يشدها صبيٌّ طويل القامة دقيق الملامح، يخفي شعرُه الأسود الطويل جبهتَه ويسقط على عينيهِ، رسمت حدود عالمي، وصارت مرآتيَ عن نفسي لفترةٍ طويلةٍ من العمر.

كان يشدُّ خيطها إليه بطول ذراعهِ، فترتفع عاليًا، ثم يتركه لها، فتتهادى كسلانة في الهواء. وكانت تأخذني هذه الحركات، وأتابعُ استجابة الطائرةُ في الهواءِ باستغرابٍ، وأجلسُ لساعاتٍ طويلة ألحظُ ما يفعلهُ ما بين ارتفاعها في الهواء، وهبوطَها المدلل، ورقصاتها كلما داعبها بذراعهِ ذات اليمينِ وذات الشمال، ثم ثباتها وذبولها التدريجي، كلما جلس ماسكًا حبلها موليًا وجهه عنها، سارحًا في عالمٍ مجهولٍ لم أكن أراه.

كان هذا هو لقائي الأول بنور.. طفلةٌ صغيرةٌ جديدةٌ على الحي، ينظرُ لها الناسُ باستغراب، لاختلاف ملامحها، ويضحكون لبراءتها. تذهبُ إليه مترددةً، بعد طولِ متابعةٍ. تمدُّ يدها إليه وهي تنظر له بقلقٍ، وتطلب منه بصوتٍ خافتٍ أن تلمس هذه الرجفة، التي تحسها في عمق السماء.

لا زلتُ أشعرُ صدى ضحكتهِ يأتيني عبر السنينِ الطويلةِ، وأحسُّ كفه التي حطت على كتفي، ويده التي تمتد لي بالخيطِ، ليخبرني كيف أداعب طائرته. منذ تلك اللحظةِ، شعرتُ بثمةِ رابطٍ بيني وبين تلك الطائرة الورقية.. وكان هذا الرابطُ هو نور. شعرتُ بأنني مثل طائرتهِ، وحاولتُ أن أفهم حركاتها وأقلدها.

تعوَّدتُ أن أتابعهُ، وتعوَّد أن يشاركني كلَّ ما يفعل. كان يمثل لي الرفقة، التي كنتُ أحتاجها في بلدٍ غريبٍ، أتيتهُ بلا أدنى رغبةٍ مني، فكان يهدمُ جدار الثلجِ بيني وبين الحياة، ثم صار تدريجيًا هو الحياة.

لم أكن قد تعودتُ بعد على شكل هذه الشوارعِ الأسفلتية، والمباني العاليةِ، التي تسكنها أسرٌ لا تعرف عن بعضها شيئًا.. السيارات الخاصة والحافلات التي تجري بسرعةٍ غريبةٍ، فتخطفُ بصري وترج أعماقي، فكان نور يمسكُ كفي، كلما عبرنا طريقًا، ويُدافعُ عني ضد استهزاءِ باقي الصبية ببشرتي السمراء.

كنّا نمثلُ عالمًا خاصًا باختلافنا عن كلِّ ما حولنا. نور الشديد الانعزال، لا أذكر أنه تكلم بهدوءٍ وطيبةٍ مع أحدٍ سواي.. وكان يقرأ، ويُطلعني على هذه العوالم المدهشةِ، التي يسافرُ إليها عبر الكتب، ويحكي لي حكاياتٍ سحريةٍ، حوّلت كتبه الملونة في نظري إلى مدنٍ أسطوريةٍ يحكمها الجنُّ والفرسان.

وكنتُ أحكي له عن بلادي الأولى، أرض النوبة، ومقاطعة إبريم، وجنّات الفواكه والنخيل. بدت لي ذكرياتي عن هذه الأرض بعيدةً جدًا عن حالي، وقريبةً جدًا من نفسي، وكنت لا أزال أعيشها في داخلي، ولا زلتُ أحسها في أعماقي حتى الآن.

لم أكن أفهم لِمَ رحلنا، وتركنا أرضنا الواسعة التي نزرعها كل عامٍ. لم أفهم لِمَ باعها أبي، وحمّل متاعنا الصغير البائس على ظهرِ بغلٍ يجرنا، ويترك ذكرياتنا وأحلامنا بين حضن الأشجارِ والأرضِ وطيورها، ويأتي بنا في محطة قطارٍ واسعةٍ، تزعقُ فيها أصواتٌ كأصوات الحيوانات الضالة. وتتحرك بضوضاءِ مزعجةٍ مرعبةٍ، كنتُ أصرخ خوفًا منها وأبكي، وتحملني أمي وتربتُ على ظهري، وتملأُ دموعها وجهي.

وحتى الآن لم أفهم لم اضطر أبي إلى الرحيل وترك أرضه.. كان يقولُ لنا كلما فتحنا الموضوع أنه لم يقدر على سداد واجب الالتزام، لأن الوالي هناك شديد الشراسة والطمع، وأن الأمور أهدأ كثيرًا في الإسكندرية.

(هامش: نظرًا لاتساع رقعة الدولة، فقد قسمها العثمانيون إلى ولايات أو "إيالات"، ثم قسموا كل ولاية إلى مقاطعات، وكلّ مقاطعةٍ إلى نواحٍ، وكل ناحية إلى أحياء وحارات. وكان الوالي يُعيد شراء منصبه من الصدر الأعظم كل سنة، فكان طبيعيًا أن يعمد إلى ابتزاز ما دُفع، من الضرائب الباهظة التي كان يفرضها على الرعيّة والموظفين الخاضعين لسلطته، كما كان طبيعيًا أن يعمد هؤلاء الموظفون بدورهم إلى ابتزاز المال بمختلف الوسائل من أفراد الشعب، وعُرف هذا النظام، أي جباية الضرائب السنوية عن مساحة من الأرض من أهلها من الفلاحين، باسم "نظام الالتزام)

لم أكن أعرفُ وقتها أن الوالي هناك هو نفسه الوالي هنا، إلا أنني عرفتُ –حينما نضجتُ– أن الأمر كان متعلقًا بعرقنا وديننا، خاصةً بعد أن ألغى الوالي نظام الملل.

(هامش: اتسم العثمانيون بعدم اتباعهم لسياسة هضم القوميات، الأمر الذي ساعد على نمو العصبات الحاكمة، وحفظ للقوميات طابعها القومي، فقد وضع السلاطين نظامًا خاصًا، عُرف بنظام "الملل"، قسموا بمقتضاه الشعوب الخاضعة لهم، ووضعوا كل ملّة أو عصبية تحت حكم زعيم لها، هو المسؤول عنها. ونفي زعيم النوبة، لأنها بدأت تطالب بحقوقٍ أكبر مما كان يمنحه الوالي. وأفرد الكثير من الجبايات على الزرّاع، ورفع قيمة الالتزام عليهم، ومنحهم اختيار أن يقدموا بناتهم أو زوجاتهم إماءً مقابل ما يدينون به من ديونٍ لهُ. ثم نشر رجالهُ في أراضينا يهتكون بعرضنا، ويأخذون نساءنا ومحاصيلنا، لسداد الجبايات المفروضة)

كان الأمر أشبه بحربٍ، قُتل فيها الكثيرون، ولم نكن الوحيدين الذين هجروا بلادهم وقدموا إلى الشمال، ونمى إلى سمعنا أن كل جيراننا وقبائلنا تفرقوا بين مقاطعات الولاية. وتدريجيًا تحوّلت الأرض والبيوت والقبائل المتجاورة والذكريات الممتدة إلى الفناء، وإلى مجرد حياةٍ تسكنُ جدران الروحِ، وتغيب في عمقِ الذاكرة، بينما يتغير بنا الحال، ويختلف شكل الحياة.

لم أكن أفهم كل هذا، وأنا بعدُ طفلةٌ صغيرة، تركضُ في الشوارعِ برفقةِ نور، وتتعرفُ معه على شكلِ الوجود. كنتُ أظن أننا يومًا ما سنعودُ إلى إبريم، وكنت أتألمُ كلما تذكرتُ أنني سأضطر إلى ترك نور ورائي. كان هو معلمي الاول، تعلمتُ على يديهِ كيف أنظرُ لنفسي، وأفهم حقيقتي، وتعلمتُ كيف أتجاوز المواقف الصغيرةِ وسخافات الناسِ، لأنظر في معنى

الحياة وطبيعة تواجدنا فيها، وتعلمتُ منه العشق، وضعتُ في حبه.. ربما دون أن يدري.

كنتُ أراهُ دومًا أميرًا من أمراء السراي، وكنتُ أحثه على أن يدخل مدرسة الإنكشارية، لأنها أول الطريق إلى السمو والمجد. لكنه كان يهزأ بعمائم السلطنة، ويسخر من مزجهم في الملبس بين الملابس الأوروبية والعباءات والعمائم العثمنلية في ذات الوقت، ولم يرغب أن يعيش قريبًا من هذه الحياة. كانت لحظاتٍ مثل هذه تكشف لي حقيقة اختلافه عن كل المهللين للسلطان والأفاقين والسائرين نيامًا في طريق الحياة. كنتُ أعلمُ أنه وُلد ليكون عظيمًا، وكنتُ أؤمنُ بهذا، وظننتُ أن هذا سيكون بإمرتهِ على مقاطعةٍ أو جيش. لكني اكتشفتُ، ونحنُ نترعرعُ سويًا، أن هذا أبعد ما يكون عن شخصهِ المتمرد على السلطة، المتوّقُ إلى المعرفةِ والعلم.

كانت مراحل تعليمنا مختلفة، التحق هو بالكتّاب ليدرس الفقة والشريعة وعلوم الرياضيات واللغة، ثم دخل بعدها جامعة بايزيد، ليأخذ درجة الإجازة في العلوم المالية والاجتماعية. وبرغم ابتعاده عن الناسِ وانعزاله عنهم، إلا أنهم كانوا هم شغله الشاغل، يبحثُ في أحوالهم، ويرغبُ في مساعدتهم ورفعة شأنهم، ويدرس أسباب كروبهم.

حاول والده أن يُلحقه بمدرسة الفتوة، كنشاطٍ فرعيٍ، فيهِ رياضة للجسمِ والروحِ؛ بل وأجبره على ذلك فترة طويلة، قاربت العامين. فلما رأي ميل ابنه للجانب المعنوي والروحي، ألحقه بمدرسةِ الآخية. كانت كل أمانيه أن يتعلم ابنه فنون القتال، وأصول الفلسفة الاجتماعية؛ لكن نور كره التدريبات الشاقة، التي كانوا يمارسونها في مدرسة الفتوة، ولم يمِل إلى الصوفية في مدرسة الآخية، فتركها، وسط سخط أبيه عليه وغضبه منه، إلا أنه عاد فساعد ابنه ليلتحق بالجامعةِ، التي كانت رسوم اختباراتها عالية.

(هامش: نظام الفتوة: هي منظومة منبثقة من العهود الإسلامية الأولى وتهدف لتنمية قدرات الشباب وتدريبهم على إجادة الحرف والصناعات المتنوعة وتلقينهم آداب الشجاعة والإقدام. أما نظام الآخية فهو نظام متطور من الفتوة انتشر بعد اضطراب الشعب تحت غزو المغول وحركات العصيان الداخلية فاحتاج الناس لرجال الدين ليوحدوهم فظهر فيمن ظهر مولانا جلال الدين الرومي، ويونس إمرة، وآخي أوران)

أما أنا، فالتحقتُ بكنيسة الأنبا تكلاهيمانوت الحبشي؛ فأبي لم يكن يقدر على سداد رسوم المدارس، بعد أن ترك مهنته الأولى ومهنة أسرته وأسلافه، ليعمل نجار حقاوي، كما نصحه الأب يوحنا راعي الكنيسة وبعض جيراننا.

(هامش: نجار حقاوي: هي إحدى المهن المشهورة في بر مصر العثمانية، وهي تجارة الطواحين والسواقي وآلات الزراعة والري، والحقاوي تعني الخشن)

تعثر ماليًا كثيرًا، واضطر للعمل كمساعد نجار، قبل أن تعتدل ظروفه، ويفهم طبيعة اختلاف الحياة. ولم يكن الفارق كبيرًا في الحقيقة، فكلا الطريقين يؤهلني للجامعة، التي أدخلها إذا اجتزتُ اختبارات القبول. الاختلاف الوحيد هو في ابتعادي طيلة أيام الأسبوع عن نور، للدراسة والعمل داخل الكنيسة.

عرفتُ في هذه الأيام كيف تستحيلُ الحياة بدون رفقتي لنور إلى خواءٍ.. كيف لا يكون للعالِمِ وجود، حينما لا أراه من عيني نور، وأسمع تعليقاته وإحساسه، الذي كان يملأ كل الكون من حولي، فأعرفُ موضع قدمي من الحياةِ، وأعرف معناها.

تعودتُ أن أعودَ في نهاية الأسبوعِ، أجري بين الشوارعِ، وأترك رفيقاتي، لألقاه بعيدًا في مكانٍ اكتشفناهُ معًا، عند ناصية شارع مُراد الأول، حيثُ يفضي إلى البحر. اعتدنا من قبلُ أن نلتقي هناك، حيث كانت محلات الأثاث المنزليّ، ومحالات العصائر. نشترى عصير القصب في أكواب بلاستيكية، ونشربه معًا.. أثناء مرورنا على محلات الأثاث، نتخيل شكل بيتنا معًا، ونستكشفُ أذواقنا، التي لم نكن نعرفها بعد. هناك، كنتُ ألقاه في نهايةِ كل أسبوعٍ، فيحملُ عني حقيبتي، ويخرج لي هديةً مختلفة في كل مرة. وكنا يأخذنا شكل النافورات العملاقة، عند ميدان مُراد أمام البحر، فنجلسُ بالقربِ منها نتكلم، وأحكي له تفاصيل أيامي الفائتة، وأسمع منهُ ما حدث في غيابي، ثم يعودُ كلٌ منا من طريقٍ، حينما نقتربُ من الحيّ.

كنّا نشعرُ أننا يجبُ أن نحفظ ما بيننا سرًا، لا يعرفه أحد. لكننا لم نعرف لماذا. وتأكدنا من صدق شعورنا، بعد أن بدأ يشتد عودانا، واقتربنا تدريجيًا من عنفوانِ المراهقة. بدأت أمي تلاحظ تعلقي الزائد بنور، وتسرد لي حجم الاختلافاتِ بيننا، ثم تضيّق عليّ الخناق في مواعيد خروجي وعودتي من الكنيسة، أو حتى مع بعض رفيقات الدير.

لم أشعرُ بأي اختلافاتٍ بيننا، بل على العكس كنت أرى اتفاقنا وتوحدنا في كل شيءٍ. لم أستوعب أبدًا معنى أن أكون مختلفة أو غريبة عن نور. سكنني، وانتميت إليه بأكثر مما أنتمي لأي شيءٍ آخر في الوجود.

حتى أبي، بدأ يعامل نور بشيءٍ من الجفاء، فيرده عن طريقي، أو يردني عن أي مكانٍ يتواجد فيه. لم أتحمل أبدًا حجم هذا الشر في الحياة.. كيف تنفلت روحي مني بعيدًا وأموتُ؛ بينما سر الحياةِ يكمن في كلمة منه أو رفقة له لدقائق؛ ثم يحجبونهُ عني بهذا الإصرار؟!

أما نور، فلم يكن يستوعب ما يحدث أو يفهمه. ظنُ أن أبي يبعدنا عن بعضنا البعض، لأنه لا يفهم ما بيننا، فحاول - ببراءةٍ متناهية- أن يوضح له ما بيننا. وكانت صدمة أبي، التي كادت تودي به للجنون، أمام هذه الوقاحة التي ظنها، من هذا الصبي المراهق. ذهب أبي لوالد نور، يخبره بما قاله ابنه له، فتعجب الأب واستدعى ابنه، فقال الولدُ العاشق لما أتى إنهُ يُحبني، وأنه ما أراد بي إلا خيرًا، وأنه يرغب في زواجه مني، حينما يشتدُّ عوده ويصيرُ ملكًا لنفسهِ، وهو لهذا الوعدِ حافظٌ أمينٌ.

سكت الوالدانِ لبرهةٍ، ثم عرفا ما سيفعلانهُ في الأيامِ القادمة. وبعد أن أخذ أبي ضيافته في منزل الحاج آدم، عاد إليّ بعصا من الخيزرانِ، لأتلقي أول ضرباتٍ مبرحةٍ في حياتي. بينما أمي تحاولُ أن تحميني من بطشه، فينالها منه ما ينالني.

تحدث عن العار الذي جلبتُه له، وعن قبيلتنا وما يمكن أن تفعلهُ، لو علمت بشيء كهذا. لم أصرخُ أو أرفض، فقد كانت دهشتي مما يحدث تتجاوز أي ألمٍ. وكان وجعي من فراقهِ يتجاوزُ أي دهشة.

خرجتُ من هذا اليومِ بروحٍ مختلفة.. روحٌ مسها الضرُّ، وطمست براءتها أيادي القهر والظلم. وعرفتُ أن ما تلقاهُ نور من أبيه كان أسوأ مما تلقيتهُ في هذا اليوم.. لقد كسر الحاج آدم ذراع ابنه، الذي قضى في المستشفى عدة أيامٍ، يعاني من حُمى غريبةٍ أصابته.

كان والدهُ يرفض أن يتزوج ابنه من نوبيةٍ غير مسلمة.. كنتُ أشبه بالجواري في نظره، وعرقنا هو عرق العبيد والخدم.. وكان كريمًا في التعامل معنا، لأنه متدينٌ فقط، ودينهُ يأمرهُ بهذا!

لم يستوعب نور ما يحدث أو يفهمه. هناك بعض الأشياء التي تتجاوز إدراكه، فيقفُ أمامها عاجزًا عن فهم معناها، لكنها تحركه بقوةٍ قهريةٍ، لا

يتوقف عندها ليدرك حقيقتها، بل يتمادى بإصرارٍ غريبٍ، يحمل من الرفضِ والغضب أكثر مما يحملُ من الوعي والمنطق.

حتى حينما استرد جانبًا من عافيتهِ، ظل يحاول أن يكلم أبي ويسترضيهِ بكل الطرقِ الممكنة، كي يصفح عنه لو كان قد أساء له. رفض أن يفهم أنه لم يقدّر لنا أن نصير معًا للأبد. وأننا انتشلنا قدرًا من السعادةِ في غفلةِ من الحياة، ستظل تومضُ في حياتنا، ونبحثُ عنها ما بقي لنا من العُمر.

والنتيجة، أن قرر أبي أن أقضي كل أيامي في الدير، ولا أخرج منه حتى في نهاية الأسبوع. وتأتيني أمي وتقضي معي كثيرًا من الوقت، كلما ساقها الحنينُ إلى ذلك.

وبرغمِ كل هذا، ساعد الحاج آدم أبي في محنتهِ، التي داهمتهُ حينما بدأ يستقل بعملهِ دون ترخيصٍ، فتوسط له عند المحتسبِ، ودفع له الغرامة التي قررها، على أنها دينٌ يرده أبي متى سمحت له ظروفهُ. وكان هذا أكثر من قدرتِي على التحمل.. كيف يقدر الرجلانِ بعضهما إلى هذه الدرجة، ويرفضان أن يتصاهرا؟!

(هامش: المحتسب: نظام الإحتساب هو أحد التشكيلات الشرعية والإدارية. والمحتسب هو أحد المسئولين في نظارة / وزارة الاحتساب. وقد جرى العرف على تعيين محتسب يرأسه أغا الاحتساب، وهو يشبه الوزير أينما عُين قاضٍ، ومن أهم وظائفه الحكم في امور تتعلق بالحرف أو الصنائع، وكذلك التفتيش والضبط ومراقبة الأسعار وجباية الرسوم ومنح تراخيص الأعمال، كل هذا ضمن صلاحيات قضائية، يستمدها من قاضي المقاطعة)

ظلت سنوات المنفى هذه أكثر ذكرياتي سوادًا، وأكثر ما جعلني أكره الدير والناس وأبي و الحاج آدم. كنتُ أقضي أيامي كلها في السهرِ والبكاء. ولم أستطع نسيانه، بل تكشفت في أعماقي مساحاتٌ من العشقِ الجنونِ، لم أكن أعرفها عن نفسي.

ظللنا على هذا الحال ثلاث سنواتٍ، حتى آن أوان التحاقي بالجامعةِ. لم أعرف أنني سألقاهُ مرة أخرى.. لم يكن ما يفصلنا بضعة كيلومتراتٍ، بل حدود محرمة، وضعها مجتمعٌ تعوَّد على التحريم والإباحة بقدر ما يسمح به السلطانُ أو الوالي. وهو يرفضُ لمجرد الرفضِ، ويقبل بلا أدنى سبب يدعو إلى هذا.

لم أعرف أنني سألقاهُ مرة أخرى.. كنتُ قد أرحتُ نفسي باليأسِ، واجترار ذكرياتي معه، وقبول حقيقة أن حياتي قد ذهبت إلى غيرِ رجعة. لم أعرفُ أن فصلًا جديدًا بيننا على وشكِ البدء. فصل له طعم وشكل مختلف، سيرسم بتفاصيلهِ حدود حياتي وعالمي.

(٢)

كنّا أطفالًا.. ثم لم نعُد كذلك ..

تغير العالم حقًا.. وتغيرت نفوسنا.. وتقلصت مساحة العالمِ في عيوننا، التي ازدادت اتساعًا ووعيًا..

وعلمتُ أنني كلما ازداد وعيي، ازداد معهُ عشقي لنور.

التقينا مرةً أخرى، في سنوات الجامعة. كانت فترةً مختلفة من حياتي، ومن حياتهُ أيضًا. التحق هو بجامعة بايزيد في الإسكندرية، وهي مخصصة للبنين، والتحقتُ أنا بفرع جامعة اسطنبول للبنات في دمنهور، لأنها كانت الجامعة الوحيدة التي تُدرّس التخصص الذي أريده. فاجتزتُ اختباراتها، لأدرس الفلك ومسارات النجوم. وكان كل ما أرجوه أن أعمل في إحدى وكالات الأرصاد وأبتعد عن الناس، فلا يظل في ذاكرتي عن البشر إلا نور. أما هو، فكان يتابع أخباري، وحين علم بمكاني جاءني في اليوم الأول، ليقابلني عند أسوار الجامعة.

كانت ملامحه قد ثبّت الحزنُ عليها راياته، وكساهُ بإرهاقٍ ويأسٍ يغلفُ كل سماته وأسلوبهُ، وحفر بين شفتيهِ ابتسامةً ساخرة، تطفو في وجعٍ يخنقني، ويفقدني كل أساليبي في التخفيفِ عنه.

أيضًا كان حجم التغيراتِ التي أصابته قد فاق تخيلي. لم ينسني يومًا، بل كانت أكثر مفاجآته دهشة بالنسبةِ لي هي دفتر العشقِ، الذي قدمه لي وهو

يخبرني أنه كان يعلمُ أننا سنلتقي يومًا ما.، فاعتاد أن يكتب لي كلما اشتاق إلى أحاديثنا، فتكوَّن لديهِ دفترًا عملاق الحجمِ مهيب القيمةِ، قضيتُ فيه أيامًا تحملُ من السعادةِ والحزنِ والألم ما لم أقدر على تحمله. كنتُ أستحلبُ كلماته، وأعيش معهُ أحلك لحظاتهِ، وأتابع تطوراته على مدى سنواتٍ، فتتكشف لي أسباب جديدةٌ للألمِ.

انعكس سخطه وغضبه مما حدث لنا على كل حياتهِ وتفاصيل روحه، فتحول كرهه لأبي الذي حاول أن يسترضيهِ بكل الطرقِ، وغضبهُ من أبيه الذي رأى ذبول روحه ولم يهتز، إلى رفض للمجتمع الذي أنتجهما، ورفض لتسلط وقهر وتشدد لم يبحهم دين ولا أقرهم إنسانية. ثم تدريجيًا رأيتُ بين صفحات رسائله كيف نمت رغبته في الهروب من هذا المجتمع، الذي صار يكرهه بكل تفاصيله وأشكال سلوكهُ وعلاقاته وتقديسه للسلطان. حدثني في هذه الأوراق كثيرًا عن أفكاره السياسية، وحلمه الكبير بالسفر، والبحث عن أساليب أخرى في العيش، لا تكمم الأفواه ولا تقتل الأحلام، ولا تفرض طريقة واحدة في العيش والتفكير. لم نكن نعرف عن الحياة في أوروبا الكثير. وكان نشر الأخبار عنها وعما يحدث فيها يعتبره السلطان بايزيد العاشر من أعمال الخيانات العظمي، ممنوع في كل أدوات الإعلام، التي كانت تؤيد هذا القرار الغريب. أذكرُ أنه أخبرني بسخريةٍ عن أمورٍ كهذه قائلًا: بسبب هذا الشعب، قال فرعونُ أنا ربكم الأعلى.

كانت هذه من عباراته التي تسطع، لتومض في داخلي مرارًا. وتتحول تدريجيًا إلى جزء من توجهي وانطباعي عن الحياة. عاد نور، لتتدفق الدماءُ في كياني، ويعود عقلي إلى التفكيرِ. عاد نور بأفكارهِ وحماسهُ وحبهُ المجنونِ لي، رجع بالأملُ إلى قلبي، وبالدماءِ إلى عروقي، ليمنحني قُبلة الحياةِ، التي أرجعتني بعد موتٍ طويلٍ إليهِ.

قضيتُ أيامًا ممتعة، اتصلت فيها لقاءاتِي به مع قراءاتِي لرسائلهِ، مع أحلامي المجنونةِ في حبهِ، مع انطلاقاتهِ التي عادت إليه، لنعيش حُبًا جديدًا مختلفًا، تجاوز كل ما شعرتهُ، وكل ما عاصرهُ قلبي في حضرتهِ، في كل سنواتِي السابقة.

كان تجليهِ الثاني في حياتِي يحملُ عُمقًا في روحي، يتجاوز بكثيرٍ متعة الأطفالِ وبراءتهم عندما تجلى لي في صورتهِ الأولى. كان يحملُ رأسًا أنهكها التفكيرُ، وقلبًا أعياهُ الشوقُ لي، وجسدًا سحلهُ الأملُ في الشوارعِ بحثًا عني، وروحًا أضناها البحثُ عن الحقيقةِ الغائبةِ في هذا البلدِ المنغلقِ على ذاتهِ، المتكورُ حول نفسهِ، المعادي لكل البلادِ الأخرى، بلا سببٍ مفهومٍ.

بحثُ عن صورةٍ مختلفةٍ للحياةِ التي خلقها الله —تعالى– في أراضيهِ الواسعة، وطالبنا بالهجرةِ إليها.. وسواسهُ، الذي يكرره دومًا في رسائله، هو كيف نتحملُ عبء الحياةِ التي سنحاسب عليها في النهاية، لو لم نتمكن من الاختيار.. ماذا لو لم يكن هذا هو الصورة الأفضل للحياةِ، وأن وراء أبواب سجن السلطان أرضًا أخرى، أكثر رحابةِ وأكثر إنسانية؟

لم نجرؤ على التخطيط لأن نسافر معًا بعيدًا، فالواقعُ يشدنا إليه بجذورٍ لا يمكن الانفلات منها. حتى حلمه بأن يسافر، يعلم مسبقًا باستحالته. تحدنا أسوارٌ من حديدٍ، تفصل بيننا وبين الطبقات الاجتماعية الأخرى، القادرة على أن تحلم مثل هذه الأحلام. وكنتُ أظن أن ما يفعلهُ هو مجرد محاولة من محاولاته المتعددة للهروب.

وبرغم كل هذا، ازداد تعلقي بحياتِي الجديدة هذهِ.. تعلقي وشغفي بالحياةِ إلى جوارِ نور، وحبي لمجال دراستي الجديدة في الفلك ومسارات النجوم، وتاريخ نشأة الخلق والوجود، وارتباط كل هذا بطبيعة حياتنا هنا

على هذا الكوكب، والتأثيرات المغناطيسية علينا. وتكون حلمي الكبير بأن أعمل في وكالة علوم وأرصاد تدريجيًا، حتى انصهرت فيه أعماقي، واجتزتُ العام خلف العام بسرعةٍ وشغفٍ وحبٍ ملأ حياتي كلها.

أثناء عامي الأخير في الجامعة، أنهى نور درجة الإجادة في تخصصهُ، ورفض أن يعمل بشهادة الإجازة ككل شاب، بل بدأ يبحث عن أي محاولاتٍ لنيل درجة التخصص أو الدكتوراة من أوروبا.. وكنتُ أعرفُ أن هذا مستحيل تمامًا، إلا أن رأيي لم يوقف نور عن محاولاتهِ.

ثم حدث ما غيّر شكل الحياةِ إلى الأبد.

كنتُ قد بدأتُ أفهم السبب الحقيقي لما فعلهُ أبي و الحاج آدم معنا.. لم تكن المشكلة في افتراقنا أول مرةٍ بسبب سننا الصغير، أو حتى اختلاف عقيدتانا، لأنهما لا يمنعان هذا الزواج. المشكلة الأكبر في شيءٍ آخر. علمتُ في هذا الوقت ارتباط أبي الطاغي بأرضنا الأولى، وعلاقاته التي لا زالت مستمرة مع أقاربنا وجيراننا وباقي أفراد قبيلتنا من العرب، الذين يسكنون في أحياءٍ مجاورةٍ لنا في الإسكندرية، والبعض يعيش في مقاطعاتٍ أخرى، ويجتمعونَ مرةً كل شهرٍ، ليحيوا عادات النوبة وتقاليدها، من خلال تأسيس مدرسةٍ للنوبة، يجتمع فيها المُهجَّرين من النوبةِ، ليحافظوا على تراثنا وعاداتنا .

كان من المستحيل –وفقًا لعاداتنا– أن أتزوج شابًا نوبيًا من قبيلةٍ أخرى غير قبيلتنا. من الكفر والهرطقة – في نظر أبي ورفاقهِ– أن أتزوج شابا غير نوبيٍّ. تقاليد وأعراف ثلاثة آلاف عامٍ تحكمنا، وقد أججها الغضب المشتعل الذي مارسهُ الوالي ضد النوبة.. وقرارَهم بأن يصنعوا هم شيخًا آخر خاصًا بهم يدينون له، ويحفظون به نسلنا وهويتنا من الانصهار

داخل المجتمع، فيمنعون الزواج من قبائل نوبيةٍ أخرى، ويحيون لغتنا، برغم أن قبيلتنا تتحدث العربية منذ زمنٍ الفتوحاتِ الأولى، ويحفظون عوائدنا، فيزورنا دومًا أقاربنا، ويقضون ليالٍ كثيرة في ضيافةِ أبي، الذي كان يزورهم بالمثل. كل هذا اكتشفتهُ متأخرًا جدًا، بسبب بقائي الطويل في الكنيسة أو الدير، وبسبب أن أبي كان يبعدني، حتى لا يعرف مخلوق من القبيلةِ أي شيءٍ عني.

في نظرهم، كان موتي أفضل كثيرًا من زواجي من شابٍ غير نوبيٍ. وهذا تقريبًا ما حدث .

في إحدى مرّاتنا، أثناء سيري مع نور في دمنهور، رآني عم حجّاج، وهو رجلٌ في الستين من عمرهِ، يحملُ تعصبًا لم أره من قبل في بشر. انفصل عني نور سريعًا، كي لا نثير شكوكه أكثر، وعبرتُ بوابةِ الجامعة أمام عيني الرجلِ الذاهلتين. وقلبي يكادُ يثب من فمي، وأنا أعرفُ أن كارثةً على وشك الحدوث.

حينما عدتُ، لم أتلق أي ضربٍ هذه المرة، بل تلقيتُ قرارًا لم أستوعبهُ ولم أفهمهُ. كان أبي قد قرر أن يبيعني جاريةً للوالي، ليسدد بثمني ديونه، ويتخلص من عاري، ولا يسمح لنسلٍ أدنى من عرقنا أن يتسلل إلى قبيلتهِ.

لم أصدق هذا، وكادت أمي تفقد وعيها وصرخت باتصالٍ كأنها سارينةٍ لا تتوقف. ثم توفيت قهرًا، وهي تحتضنني وتبكي بعد شهرٍ، حينما كان أبي ينهي إجراءاته بإرسالي للدير مرةً أخيرة قبل رحيلي.

عشتُ أيامًا أكبر من قدرتي على التحمل، وقد أتى نور إلى أبي مرارًا يرجوه أن يعفو عني، ويعده أنه سيبتعد تمامًا، ولن يراه أحد مرةً أخرى. ثم في لقائهِ الأخير مع أبي، أخبرهُ أنه نال منحةً إلى فرنسا من الجامعة التي

اخضعتهُ إلى اختباراتٍ مرهقة، وأنه راحلٌ إلى هناك، ولن يعود إلى الإيالةِ مرةً أخرى. ورجاهُ، حتى كاد يقبل قدميه، أن يزوجني من أي شابٍ نوبيٍّ يختارهُ أبي.

أخبرهُ أبي أنهُ لو رآهُ مرةً أخرى في أي مكانٍ فلسوف ينفذ وعيدهُ بلا أدنى تردد. أما إذا سافر بالفعل، فلسوف يكتفي أبي بتركي في الدير الذي كنتُ فيه في هذا الوقت.

لم أعرف من أين أتت كل هذه القسوةِ في نفس الرجل الذي رباني أنا وأخواتي، وهجر أرضهُ من أجل ألا تتحول بناته إلى جواري. هكذا يحولني إلى جاريةٍ مقابل بعض المال، ومقابل بعض القيود الاجتماعية، التي تحولهُ هو نفسهُ إلى عبدٍ لها.

هكذا سافر نور، بلا وداعٍ وبلا أمل، وبقلبٍ محملٍ بالألم والحزنِ والحسرة، وبروحٍ تحملُ من الغضب والرفض لهذا المجتمع وقيودهُ المتخلفة ما يكاد يودي بها إلى الجنون. هكذا سافر نور وتركني في حالةٍ بين الموتِ والحياةِ، احتجتُ سنواتٍ كثيرةً كي أخرج منها. سافر نور، وبقيتُ وحيدة في الدير، أرافق الراهباتِ، وأتعلم تدريجيًا هذه الحياة المختلفة والصعبة، وأجد في وحدتي وفي تقربي من الرب بعض العزاءِ وبعض العوض، وأزدادُ انغلاقًا حول ذاتي، وأبتعدُ عن كل مظاهر الحياة. أتعبدُ طويلًا في صمتٍ، وألمحُ في جانب روحي هذه الحياة الحافلة التي عشتها، تسطعُ بوميضٍ خافتٍ في ركنِ ذاكرتي.

أستيقظُ فجرًا لأداء صلاة تسبحة منتصف الليل، وأقضي فترة الصمت وحيدة متفردةً في قلايتي، ثم فترة الظهيرة في أعمال الحرف المختلفة، التي يتدرب عليها العذراوات تحت اختبارات الرهبنة. أما الليل، فأقضيهِ مع

السماء، ومع كتب الفلك، والتليسكوب العملاق الذي يدرس عليه الأب يوحنا بعضًا من علوم الفلك. وكنتُ أستأذنته في استخدامهِ، فمنّ عليّ ببعض دروسهُ، التي يهتم بها. وكانت هذه الدروس وتأملاتي الطويلة، هما ما جعل أيامي تمر، حتى جاء وقت تقييم الراغبات في الرهبنة، وأخبرتهم بعدم رغبتي في المواصلة.

حينما خرجتُ من الدير بعد عامٍ، واجهتُ العالم بنفسٍ عجوزٍ، تحمل سنواتٍ طويلةٍ من القهرِ والذل. كان العالم غائمًا أسود، ترتعُ فيه الشياطين، التي تزور نور في أحلامهِ كثيرًا، كأنها تدعوهُ بنايها المسحور إلى عالمها، الذي يحيا فيه الناسُ جميعًا، والذي أخرجُ إليه الآن.

خرجتُ إلى عالمٍ لم تعد أمي فيهِ.. عالم لا أحد فيهِ سوى أبي، وقد تزوجت آخر أختٍ لي، دون أن يخبرني أحد. خرجتُ إلى عالمٍ يحمل طيف نورٍ في كلّ ركنٍ فيه، ويحدثني بصوتهِ الذي أحفظ إيقاعاتهِ، فيتردد بين جنبات رأسي.

كل ما حدث أخذ من أبي كثيرًا من حيويته، وبدا أنه قد شاخ في العمرِ سنوات كثيرة، ربما بسبب موت زوجته، التي كان يحبها بالفعل.

بدأتُ في هذه المرحلة محاولات النسيان، كنت قد داويتُ روحي مداواةً بائسةً، لم تفعل غير إيهامي أنني قد شُفيتُ، فبدأتُ محاولاتٍ بائسةٍ أخرى في اتجاهٍ جديدٍ، لم تفعل غير أنها عرّفتني على صنوفٍ أخرى من البشر.

تقدم لي أكثر من شابٍ نوبيٍّ من قبيلةِ أبي. وقد مكثتُ في مرحلة تعرفي عليهم واحدًا بعد آخر بعض الوقت؛ لأكتشف أن روحي قد تم نحتها، وعقلي قد تم تكوينهُ، ليناسب رجلًا واحدًا فقط، لم يعد ينتمي لهذه الأرض.

وتلقيتُ رفضًا بعد آخر، ليخبرني آخر الخطّابِ أنني نوبيةً شكلًا فقط، لكن روحي وعقلي لا ينتميانِ للنوبةِ بأي شكل، وأن هذه أسوأ مواصفات ممكنة لزوجة رجل نوبيّ.

اكتشفتُ هنا – بعد غضبة أبي الثانية عليّ – أنني قدر لي أن أعيش أسوأ أسلوب ممكن للحياة. وشعرتُ تدريجيًا أن حُبي الأول هو لعنةً، تركت بصمة ضخمة على روحي، وشكّلت هويتي الروحية عن نفسي، لم أعد قادرةً على التخلص منها، أو حتى راغبةً في هذا، وأن هذه اللعنة هي أفضل ما حدث في حياتي.

وبدأتُ أرتاح تدريجيًا لفكرة أن أعيش وحيدة. حلمي باستكمال دراستي والعمل في وكالةِ للأرصاد وعلوم الفلك قد انتهى، بعدما توقفتُ عن الذهاب للجامعة، ودخلتُ الدير، فعملتُ بوظائفٍ مختلفة، ومكثتُ في البيتِ، أوقاتي الأكثر أقرأ وأتذكر شخصًا أخشى الاعتراف بوجودهِ بيني وبين نفسي.. أسافرُ أحيانًا لبعض أقاربي، وأذهب للمدرسة التي أقامها رجال القبيلة، إذا ما ساءت غضباتُ أبي المتتالية عليّ.

مرت سنوات عشرة على هذا الحال، مرت سنواتٍ لا معنى لها، ولم أشعر بها لحظة واحدة، وأنا أوقنُ في أعماقي بموتي، وأوقنُ أنني فقط لم أكتشف هذا الموتُ بعد.. حتى جاء ذلك اليوم الأسطوريّ، الذي لم أتخيل قدومهُ أبدًا..

يوم أن عاد نور..

بعد رحلةٍ طويلةٍ من الصراع والحرب في عوالمٍ لم ندرِ عنها أي شيء، عاد حاملًا قصة طويلة، وأحمالًا أكثر من قدرتهِ على التحمل، عاد ليلقي لي كل أحمالهُ، ويرتكنُ إلى حُبي من جديد.

عاد نور، وصار للحياةِ معنىً من جديد.

(٣)

منذ اللحظة التي صعد فيها نور إلى الطائرة، ليحلق بعيدًا إلى فرنسا، أدرك أن ما يحدث له ضد إرادته، وأن حلمهُ يتحول تدريجيًا إلى كابوس.

لم يكن في استطاعتهِ أن يتعامل مع هذه النوعية من المشاعر، هذه الدرجة من العمق كان يحسها، لكنه لا يستوعبها أو يفهمها أو يتعامل معها.. فقط يطرد الفكرة من وعيهِ، ويتركها تغوص وتتلاعب في لا وعيهِ، هازئةً بكل ما يقولهُ لنفسهِ.

بحثُ في هذه الأرضِ الجديدةِ عن أسلوبٍ آخرٍ في العيش، وفي العلاقات بين البشر.. عن شكل جديد ومختلف لتجربة الحياة. وهناك قابل الدكتور نشأت، في الجامعة العريقة القديمة التي خرج منها أساطين العلم. حمل في رأسهِ صورة ضخمة أسطورية، تحطمت على شوارع فرنسا الفقيرة، التي كان يسير فيها كثيرًا، متابعًا ملامح البشر، وعلاقات الناس في الشوارع .

انتهى انبهاره الضخم في أيامهِ الأولى، حينما كان يقضي أمسياتهُ في سكن الجامعة، فيسرق زملاؤه طعامهُ وشرابهُ وأمواله، ولا يستطيع أن يتهم أحدًا صراحةً، لكنهُ يحاول أن يكون أكثر حرصًا. قضى أيامهُ الأولى وحيدًا، يهيم في الشوارعِ بحثًا عن شيءٍ يتعلق به، لكنه اكتشف أن الحياة هنا فردية، وأنه لا وجود للحياة الجماعية كما هي في إيالة مصر .

قضى وقتًا طويلًا، حتى تعرف على الأستاذ الذي سيحضر معه رسالة الدكتوراه، واختارا معًا موضوعها، عن المقارنة بين النظام الرأسمالي والنظام العثماني في إدارة موارد الدولة. لاقى هذا هوىً في نفسهِ كثيرًا، وكان يعرف أنه سيتناول موضوع رسالتهِ بأبعاده الاجتماعية والسياسية، وليس البعد المادي فقط، كما بدأ يفهم أن هذا هو اهتمام أستاذه الوحيد.

بدأت علاقته مع البروفيسور نشأت تتطور كثيرًا، وبسرعة لم يتوقعها. وكانت محاوراتهِ هذه قد بدأت تحرك عقلهُ أكثر مما تحرك أهواءه. وبدا في هذا الوقت، هذا الكهل الأشيب أشبه بالصورة المجسمة للعلم. كان يقضي في بيتهِ أكثر مما يقضي في الجامعة، فكان الدكتور شديد الشغف بهذه الأرض المنغلقة على نفسها، تحيطها الأسرار، ونور يبدو له الجوهرة التي ستكشف له الكثير مما يخبئه صندوق الكنوز هذا.

حدّثهُ نور عن الحياة في مصر العثمانية، وسرد له تاريخ الحضارات الإسلامية السابقة.. حكى له عني بالطبع كثيرًا جدًا، ونقل له الصورة القاتمة السوداء، التي كان يحملها في نفسه بعد رحيلهِ المضطر. واستمع له البروفيسور في صمتٍ، وسرح طويلًا جدًا، ثم حدثهُ عن رحلاتهِ الطويلةِ حول العالم، وعن شركاتهِ التي بناها وكونها بفكرٍ تطور معه على مدار حياتهِ، وكيف تعكس هذه الشركات شخصيتهُ وأفكّاره وأفكار دولتهُ، التي يؤمن بها كثيرًا.

لنشأت أصول عربية قديمة، وقد سافر أهلهُ إلى فرنسا وعاشوا فيها، ضمن العديد من الأسر العربية، عندما حاول أحد السلاطين القدامى أن ينفتح على العالم الغربي. كان لأسرة نشأت اتصالٌ ببعض النبلاء، فجعل ذلك لها وضعًا خاصًا مميزًا. وقد تربى البروفيسور في البلاط الملكي للملك فرانسوا الثالث، ملك فرنسا، ثم صار وزير اقتصاديات مملكته.

كان الدكتور نشأت يحكي عن الملك فرانسوا، كأنه يحكي عن أحد الرسل القدماء. كان انتمائهِ لهذا البلد العريق، الذي يحمل في أراضيه مختلف الجنسيات، التي تعيش جنبًا إلى جنبٍ، بلا تفرقةٍ ولا نزاعات.. هذا من أكثر الأشياء التي انتبه لها نور، لقد انصهرت الجنسيات والأعراق جميعها داخل المجتمع، ولم يعد من الممكن التفرقة إلا بالاسم أو بعض التقاليد التي لا تظهر إلا بطول العشرة، وكان هذا يدغدغ مشاعره بقوة، ويقارن – بالرغم منه– بينه وبين السلطنة العثمانية، صاحبة الألف عرق، والتي اتبعت نظامًا صارمًا للملل، جعل كل عرقٍ يحتفظ بطبيعتهِ، وينفصل بذاتهِ عن باقي المجتمع.

ثم حدث أن طلب منهُ نشأت أن يسافر إلى فروع شركتهُ في ألمانيا، ليساعد ابنتهُ نيروز التي تتولى الإدارة هناك. ظنَّ نور وقتها أنه يريد أن يمنحهُ فرصة أكبر في اكتساب خبرةٍ لا يستهان بها، ويرى التطبيق الفعلي لما يدرسهُ بالفعل. لكنهُ أصيب فيما بعد بالدهشة، فالمجتمع الألماني على العكس تمامًا من الحياة في فرنسا. الحركة التي أشعلها الصديقان كارل ماركس وفزيدريك إنجلز منذ عدة عقود لا زالت تشتعلُ بقوةٍ في الشارع، وتنذر بثورة ضارية، يمكن أن تطيح بنظام القيصر كلهُ. الغضب العمالي والاتحادات العمالية والجمعيات التي أقيمت خصيصًا من أجل حقوق المعدمين، كلها أشياء تصارع، بجرأة لم يشهدها من قبل، نظام القيصر العنيف الذي يسيطر عليهِ الإقطاعيون والنبلاء.

أخذتهُ روح الثورة، وأخذتهُ هذه الجرأة التي رآها في الشوارع تشتعل بعنفٍ وبقوة. يسيطر على الشوارعِ إحساسٌ مجهولٌ، لمسهُ نور وملأ عليه خلاياه.. روحٌ مبهمةٌ، تجعلك تحب كل من تراهُ يصرخ ضد الظلمِ وضد القهر، وتجعله أقرب إلى نفسك .

شارك وقتها في هذه المظاهرات، انضم إلى الألوف الغاضبة في الشوارعِ، صرخ معهم حتى بُح صوتهُ، وتلقى الضربات المبرحة من رجال الشرطة، كان بداخلهِ غضبًا مكبوتًا في حاجة للخروج، رغبة في الثورة والصراخ وسببًا كافيًا لكراهية الظلم.

صقلت هذه الفترة الكثير من مفاهيمهُ عن الإرادة، أو هكذا ظنَّ، وتعرف في إحدى المظاهرات على تاليا، فتاة ألمانية لم تكمل تعليمها، وتعمل عاملة في أحد المصانع لرعاية أسرتها الفقيرة، وهو الشيء الذي اكتشف أن كل الطبقات الفقيرة تفعله. أخذتها ملامحه المختلفة بالطبع، ثم أخذتها فيما بعد عقليته وشخصيتهُ. كانت أول أنثى ينتبه إليها من بعدي. قال، وهو يحكي لي عنها، أنها كانت مجرد صديقة،شاركته ثورته ورغبته في الصراخ والغضب.. لديها أسباب كثيرة للغضب، وكان لديهِ كذلك.. لكنني أعرف الحقيقة.

يمكنني أن أتخيل كل ما حدث، لكن من الصعب أن يعترف بهِ نور حتى لنفسهِ. لا ريب أن شعورًا ما كان بينهما، مشاركةٌ ما، ابتسامةٌ ما كانت تلوحُ على الشفاة والعيون كلما التقيا، معانقةٌ ما وهو يساعدها على الهرب من رجال الشرطة.. لا ريب أن شيئًا ما قد حدث، شيءٌ جعلهُ يداوم على مراسلتها، حتى حينما عاد إلى مصر، حتى لو كان المعلن بينهما هو الصداقة لا غير.

مبرره لهذه المراسلات أنهما يتناقشان مناقشاتٍ عميقة في أحوال ألمانيا السياسية، وما خلفه ماركس بعد مائة عامٍ من وفاتهِ فقط. ماركس تلقى تعليمه في اسطنبول، وكان ضمن فوج الطلبة الأول من ألمانيا، الذي زار بلاد العرب، ليذهب لبلادهِ حاملاً من الخفايا والأسرار، ثم يتشارك – بعد

سنواتٍ طويلة – مع انجلز في فلسفة المادية الجدلية، ليخرجوا بالفكر الماركسي الملحد، الذي تؤمن به تاليا، ويؤمن به كل الثوار الألمان.

النهضة تنبعث كالنار في كل بلاد أوروبا، وقد سبقت فرنسا ألمانيا، التي كانت على وشك التخلص من ديكتاتورها الحاكم، بينما كان الملك في فرنسا أشبه بالديكتاتور العادل.

الوقت آنذاك هو بداية الألفية الثالثة من ميلاد المسيح، والبلاد تحتفل ببداية عصر تغيير التاريخ، الذي لم يعد ملكًا للملوك، وإنما ملكٌ للشعب والثوار، أصحاب القضايا الحقيقية.

عاش نور أحلام الثورة، حتى أجواء السجن عاشها، بكل ما تحمله من قهرٍ وغضب مشروعٍ وإحساسٍ بالذات. لقد قبض عليه مرتين، وقضى ما يقرب من الشهر في السجن، وفي المرتين استخدمت نيروز علاقاتها واتصالاتها لتخرجهُ. لم يكن موضع اهتمام منها، وهو شيءٌ لا أعرف كيف يمكن لامرأةٍ أن تفعلهُ. لكنها أخبرتهُ في المرة الثانية أنها لن تستمع لرجاء أبيها لها بأن تساعده، ثم طلبت منه بهدوءٍ غير مبالٍ أن يعود لفرنسا، ما دام لن ينفذ رغبة أبيها في العمل بالشركة، أو ينفصلَ عن أبيها ويقضي حياته مع هؤلاءِ الهمج.

لم يكن باستطاعة ابنة النبيل الفرنسي أن ترى هؤلاءِ المعدمين الباحثين عن حقوقهم إلا مجرد همج. هاجمها نور بعنفٍ، وأخبرها بأنها لا تعيش إلا في الجانب المرفه من الحياة، وأنها لا تعرف شيئًا عن شعور المظلومِ إذا ظَلم.

للأسف، كانت هذه هي بداية حوارٍ طويلٍ متصلٍ بينهما. حوار انتهى بعودتهما معًا إلى فرنسا، وبزواجهما فيما بعد.

لا أعرف كيف تسنى له أن يرى أي أنوثةٍ في امرأةٍ كالتي حكى لي عنها.

كان الظُلم الذي تعرضت له نيروز طيلة حياتها هو من أبيها، من أقرب الناسِ إليها بعد وفاة أمها أثناء ولادتها. لم تجدهُ إلى جوارها إلا فيما ندر. تزوج امرأة أخرى، وتركها تتنقل ما بين خالاتها وعماتها، وتكوّن حياتها وشخصيتها بعيدًا عنه. إلا أنها – وفقًا لمفهومها – استطاعت أن تتعامل مع الظلم الذي تعرضت له بإيجابية.. لم تتظاهر، ولم تطالب أباها بشيءٍ، ولم تتحول إلى ضحية للمجتمع، بل استطاعت أن تحصل من الحياةِ على كل ما تريد، أخذت العلم والمتعة والحب والعمل وحتى الجنس.

أعترف أن شخصيتها التي حكاها لي نور كانت كاسحة.. شديدة الترتيب والتنظيم، شديدة الحزم والصرامة، وشديدة الانفلات أخلاقيًا وفكريًا.. ولا أعرف كيف يمكن لامرأة أن تكون كل هذا معًا.

أنهت دراستها في السوربون أيضًا، ولكن بعيدًا عن أبيها، الذي قضى سنواتٍ طويلة يرجوها أن تعمل معه وتساعده. لكنها استطاعت أن تستخدم أخطاءه معها ضده، وتستخدم شعورهُ الأبوي لتسيطر عليه تمامًا، وتنزع عنه كل أسلحته معها.

لم يعرف نور كل هذا إلا مؤخرًا جدًا. لم ير في أيامهُ الأولى معها إلا امرأة متحررةً، تمثل كل الحرية التي يبحثُ عنها ولا يجرؤ عليها. مع نيروز فعل كل شيء.. ربما كانت هذه هي المرأة التي جعلتهُ ينساني، هي لعبت على غرائزهُ وأهوائهِ، وهذه أشياءٌ لم نقترب منها معًا.

في هذه الفترة واجه مشكلة أخرى في دراسته مع أبيها. فقد اقترب من انتهاء رسالتهِ، وتلقى غضبةً كبرى من الدكتور نشأت، بسبب ما وصل إليه في نهاية الرسالة.

الحياة لفترات طويلة في البلدان الثلاثة أعطته فكرةً عن أنظمتها الاقتصادية وتأثيراتها المجتمعية. لم يقتنع نور أبدًا أن علوم إدارة ثروة المجتمع تدور في فلكٍ بعيدٍ عن الأخلاق الإنسانية، التي تحكم علاقات المجتمع وتحفظ سلامته، وهو ما كان يرفضهُ أستاذه الرأسمالي.

في فرنسا، رأى حياةً يتحكم فيها الرأسماليون، أصحاب المصانع الكبري والأسماء الرنانة، يستخدمون موارد المجتمع من أرضٍ وذهبٍ وعمالٍ معدمةٍ، تدور في تروسٍ ضخمةٍ لتضخ الاموال للرأسماليين الكبار، ويأخذون هم الفتات.. في فرنسا، رأى حياةً تنتصر للفردية، وللقوة والقدرة على الفعل، وتؤدي إلى الظلم البين.. في فرنسا، كانت شريعة الغابِ هي الشرعُ والقانون، البقاء للأقوى والأقل خلقًا، وما عدا ذلك تدوسهُ الأقدام.

أما في ألمانيا، فرأى رد الفعل الغاضب العنيف، والذي يوقن أنه سيحدث يومًا ما في فرنسا، حتى لو تحولت لبعض التقدم بدون ثورة. وجد دولةً تتحول تدريجيًا إلى إلغاء الفردية، والانتصار للمجموع على حساب الفرد، ولو كان متميزًا، دولةً تستعد بهذه الضربات المتواصلة، لأن يتحول كل أفرادها إلى عمال لدى الحاكم، الذي سيتحول إلى طاغوتٍ رجيمٍ لا يمكن الوقوف أمامهُ، ويعامل الناس على أنهم صور باهتة من شيءٍ وحيد، يمكن إزالتهُ بطلقة مدفع.

وكلا الحالتين لم تكن النموذج المرضي لحياة الناس في نظرهِ. ولهذا فقد انتصر في رسالتهِ للنظام العثماني، الذي يحفظ التوازن بين فردية الأفراد وحكم الدولة، وفقًا لنظام قانوني لا يلغي التميز الفردي، ولا يلغي كيان المجموع.

كان من العار– في نظر الدكتور نشأت – أن يأتيَ هذا الفتى العثماني ليخبر جهابذة السوربون أن نظامهم خاطئ، ويعود إلى سلطانهِ العثماني

برسالةٍ مطولةٍ عن مدى تقدم دولته، ومدى تخلف الغرب. ولهذا كان لابد للفتى الصغير أن يعدل عن رأيهِ بأي طريقةٍ أخرى. وقد شاركت نيروز في المكيدة، مقابل مصالحٍ أخرى لديها بالتأكيد.

بدأ في الأيام التالية يذهب معها إلى الملاهي الليلية، ويرقصان رقصاتٍ مجنونةٍ شبه عاريةٍ، ويدخنان مختلف أنواع التدخين، ويتعرفانِ على كل أنواع البشر، ويعاقران الخمر، ويلعبان الميسر، ويكسبانِ أموالا طائلةً، يقضيان أوقاتًا طويلة في التفكير كيف يمكن إنفاقها بسرعةٍ أكبر. وفي الصباح يتحولانِ معًا إلى شخصين حازمين حادين، يأخذان القرارات الجديةِ التي تتحكم في مصائر الكثيرين .

فهِم في هذه المرحلة أن للحياةِ وجوها أخرى، وأن هناك متعةً مجنونةً تسحق الروح، لم يجربها من قبل، وكان راغبًا بشدةٍ في أن يصل إلى آخر حدود هذه المتعة.

كانت نيروز تسأله كيف يمكن لهذه المتعة أن تكون محرمة في بلاده العثمانية. لم يكن باستطاعتهِ أن يجيب بعقلهِ وهو تحت كل هذه الآثار المدمرة نفسيًا، فيميل إلى رأيها.. يتذوق العسل ويطالب بالمزيد، مهما كان الثمن.

نعم، لقد فقد نور صوابهُ، واختلّت هويتهُ ورؤيتهُ لنفسهِ. تذكر الحياة التي جعلتهُ يتخلى عني أنا حبهُ الوحيد، والموت الذي عشناهُ سنواتٍ كثيرة مفترقين، تذكر الحياة التي جعلته لا يحظى بكل هذه المُتع معي أنا، الأحق به من أي امرأةٍ أخرى على الأرض. عاد لهُ رفضهُ القديم، وانسلخ تدريجيًا وتحت تأثير المخدرات عن نفسهِ، حتى صارت هذه المرأة مرآتهُ لذاتهِ، ولم

يعد في استطاعتهِ أن يبتعد عنها.. وفكرة الفراق تذكرهُ بماضٍ قديم، لا يرغب في تكرار التعذب به.

هكذا ذهب إليها ذات يوم، يطلب منها الزواج، ويقرر أن يبدأ حياة أخرى مختلفة بعيدًا.. في أرض المهجر.

(٤)

توقف شروق الشمسِ..

توقفت دروسهُ، ولم يعد يذهب للشركة العملاقة..

توقفت أشياءٌ كثيرة، إلا حياته التي كانت تتحول تدريجيًا إلى السوء. .

كان قد اتفق معها أن يتوقفا عن كل الحياة المنفلتة التي كانا يعيشانها، ويصنعا صخبهما الخاص معًا بعيدًا عن الناس ..

يحكي لي نور أن هذه هي أكثر فترة توترت فيها نيروز بالفعل. يبدو أنها شعرت حقًا ببعض المشاعر تجاهه، وحاولت أن تتبع سلوكًا مختلفًا تجرب العيش بهِ. كان نور قد لمس الجانب الطيب في أعماقها كعادتهِ، ووصل إلى شبح الإنسانةِ التي تسكنها منذ خُلقت. لماذا لم تعرف يا نور أن الخير يصنعهُ الإنسانِ، لا يولد بهِ؟ أعرف أنك كنت تبحث عني في كل النساء التي كنت تلقاهن، لكن هذه كانت أبعد الناس شبهًا عني. ما الذي كنت تحاول أن تفعلهُ؟ تبحث عن متمردة متمرسةً تعلمك فنون التمرد، فتنقلب أول ما تنقلب على نفسك؟

لم يكن من المعتاد لنور بينهُ وبين نفسه أن يفكر بالعقل والمنطق في مشاعره، أو أن يبحث في دواخلهُ عما يريده حقًا ويفهمه. كان يفعل أقرب شيء يريدهُ ويشعر به، وأول وأسهل شيء يقوم به، ليقيم عليه حياتهُ

ويسير في طريقهِ دون أن يشعر. وكل ما أرادهُ أن يشارك هذه المتمردة تمردها، وأن يحتفظ به لنفسهِ فقط.

يعترف نور لي أنها حاولت بالفعل في شهورها الأولى معه أن تعيش معه بالطريقة التي اتفقا عليها. كانت تميل إلى شخصيتهِ كثيرًا، وتُعجب بتفتحهِ وانطلاقهِ، برغم أنه جاء من أكثر بلاد الأرضِ انغلاقًا حول نفسها. لم تكن تعرف الكثير عن البلاد التي أتى منها. وكانت أيامهما الأولى معًا هي بداية تلمسها الشخصية الأخرى في أعماقِ نور، ولهذا الكيان العملاق الذي أتى منهُ. حكى لها عني، وعن حياتهُ معي، وعن أحلامهُ.. واقتربت شيئًا فشيئًا، لتعرف أنه لم يكن في أعماقهِ يحمل الشخصية التي شاهدتها وتعاملت معها لشهورٍ طويلة، وأنها كانت عرضًا مؤقتًا في حياتهِ.

لم يكن مثلها في شيء، وإن كان يشبهها خارجيًا فقط. صار يحملُ طابعها الحازم الصارم في العمل، ويحمل تحررها أو انحلالها في أوقاتِ لهوهُ، وشديد الحماس وقوي الإرادة لفعل ما يريده، ولصنع الحياةِ التي يبغيها. أما أعماقهُ، فكانت حالمه، تهتم بالإنسانِ، وتبحثُ في العلم، ويحملُ رحمةً وحبًا وتسامحًا لكل الناس.

بدأت تلحظُ شخصيتهُ المختلفة، وترفضها، وتعلق عليها كثيرًا بأنها سذاجة لا ترضاها، وضعفًا لا تستطيع التعامل معهُ. تدريجيًا بدأت المسافات بينهما تتسع. وانشغل هو بدراستهِ مع والدها لفترة طويلة، كان ينهي فيها الرسالة، وقد انصاع لرغبته في التأكيد على هوية الإنسان الباحث عن المتعة، والجاد في حياتهِ، وفي جودة النظام الذي يفهم هذا الجانب في الإنسان، ويوفر له احتياجاتهُ. انتصر للرأسمالية، وأكد في نهاية بحثهُ أنها في تفكيكها لعناصر المجتمع وفي الصراع الدائر بينهم، وفي المنافسات القائمة إنما تطبق مبدأ البقاء للأصلح، وهو المبدأ الذي يضمن تطور الإنسانية على مر السنين.

لم يتكلم عن الجوانب الاستهلاكية، ولا عن استغلال الناس، ولا عن العبث بأهوائهم من أجل السيطرة عليهم، وهو ما تفعله النظم الخدمية والاستهلاكية بأن تصنع سلعة لا حاجة لأحد بها، ثم تستخدم نظمها التسويقية في خلق هذه الحاجة. نفس المبدأ لمن ينشر المرض بين الناس، ثم يصنع لهم المصل ويبيعهُ لهم، وينتظر شكرهم وتقديسهم لهُ، منتهى الوقاحة.

ربما لأن هذا هو ما كان يحدث معهُ، وكان من الصعب عليهِ أن يعترف بهِ لنفسهِ، فقط احتفظ بمخطوطتهِ القديمة لرسالتهِ، التي تحملُ هويتهُ، واستمر غافلا في حياتهِ، حتى صحا على فعلٍ غريبٍ لنيروز.

لعدة شهورٍ ابتعدت نيروز عن نور، وقضتها في السفر بين فرنسا وألمانيا، لتتابع إدارة الشركة. ولم تكن تقضي معهُ إلا أوقاتًا قليلة. ثم حينما بدأت تستقر في فرنسا، بدأت ترفضهُ في الفراش.

بدأ الأمر تدريجيًا، تخبره بأنها متعبة، أو أنها في أوقاتها الصعبة لدورتها الشهرية، ثم لما نفدت حججها ونفد معها صبرها، وبدأ تمردها في الظهور، رفضتهُ صراحةً، أخبرتهُ بصراحةٍ مطلقة أنها تطالبهُ بأن يعود للشخصيةِ التي تزوجتهُ بها، لأنها لا تستطيع أن تتعامل مع أفكاره المستضعفة المتخلفة التي تنفر منها بكل الطرق.

لم يكن يعرف ما الذي يمكنهُ أن يفعلهُ، وبسذاجةٍ مطلقةٍ حاول استرضائها. كل هذه الدرجة من الطيبة في نفسهِ لم تجعلهُ قادرًا على أن يشك في شيءٍ، كأنه نسي أيامهما الأولى التي عاشاها معًا بكل الطرق الممكنة، كأنه نسي ما حكتهُ له وما فعلتهُ في حياتها.. كأنه ظنَّ أنها تغيرت بالفعل.. أو كأنهُ صدق أن هذا هو السبب الوحيد لابتعادها عنه ورفضها له. لم يشك حتى حينما وافقت على طلب أبيها بأن تسافر إلى مصر معه

ومع زوجها، لإقامة فرع لمجموعة شركاتهُ هناك، وحينما ارتضت أن تعيش لأيامٍ كثيرة في نفس البيئة التي ترفض أن ترى ظلالها على نور.

تمادى الدكتور نشأت كثيرًا، ظنَّ أنه قد سيطر على تلميذه بالفعل، وقرر أن يبدأ به إحدى تجاربهُ، في أن يكون ذراعهُ الدائرة في أرض مصر. حكى لي نور بألمٍ كيف ظل يذكره بما لاقاهُ في أرض الإيالةِ، وكيف طالبهُ بأن يبدأ في بلاده من جديدٍ، كأنه شخصٌ فريد مختلفٍ، لم يجد بالفعل بين كل طلبة السوربون من هو في تفوقهِ وذكائهِ المجرد النظري، ومن هو في سذاجته الفطرية، التي لم تعبث بها الحياة.

في البداية، تعجب نور من أن أحد مديري القطاعات الصغيرة قد سافر معهم إلى مصر، ولم يكن العمل في حاجةٍ حقيقيةٍ له. جاء إلى مصر ليعيش في أرقى الأحياء السكندرية على البحر، وليعيش حياةً مرفهةً، بعيدة كل البعد عن الحياة التي عاشها من قبل. وليشعر بأنه بالفعل فوق هؤلاء البشر، الذين انتمى لهم يومًا ما.

إنه يتغير تدريجيًا، ويشعر في داخله بالانتصار، ويشعر بتفوقهِ. وبدأ في إقامة الشركة التي تطلبت منهم الكثير من الوقت والمجهود والاتصالات، والكثير جدًا من السفر بين قطاعات الولاية، كان تقريبًا يُعيد اكتشاف بلاده من جديد، لم يسافر إلى كل هذه الأمكنة من قبل، وأمسى يراها بمنظورٍ مختلفٍ، وبعينٍ مختلفة كثيرًا عما سبق. ثم عاد من إحدى أسفاره، ليجد زوجتهُ في أحضانِ رجلٍ آخر على فراشهِ.

لم يصدق ما رآه، ظن أنه يحلم، أو أن شيطانهُ الذي يحلم به كثيرًا يلعب معهُ لعبةً أخرى. لم يشعر بهِ أحدٌ منهما.. كانا سكيرين يشربان الحشيشِ، ويعاقرانِ الخمر، وغائبينِ تقريبًا عن كل ما يحدث حولهما .

وقف يحترق بما يراه، لم يعرف ماذا يفعل، كان هذا أكبر من قدرتهِ على التحمل أو الفهم. لم يستطع التعامل مع هذا التطرف الشعوري. لم يعذبهُ هذا مثلما عذبهُ كلامها حينما بدأت بلسانها الملتوي في الحديث عنه مع عشيقها الفرنسي، الذي لم يعرف سببًا لقدومهِ معهم، لكنهُ الآن عرف.

إنها تراهُ بأسوأ صورةٍ ممكنة، الهمجي الذي يركبها كأنه يركب بغلتهُ.. تتحدث عن مدى كراهيتها له، ومدى شعورها بالحمقِ لأنه عرفتهُ أصلا .

خرج من بيتهِ غائبًا عن الوعي، أو عن الحياة. قضى وقتًا طويلًا يحاول أن يختلي بنفسهِ ليعرف ماذا حدث؟ وكيف ستتغير الحياة بعد هذه اللحظة. استعرض في أعماقهِ كل حياتهُ السابقة، وتكشفت له حقائق باهرة الوضوحِ، لكنه كان غافلا عنها بسذاجةٍ مطلقة. حاول أن يعود إلى عمله، ولم ينم في هذا اليوم، وبمصادفةٍ بحتةٍ، سمع الدكتور نشأت يخبر ابنتهُ بقلقٍ أن زوجها قد عاد في اليوم السابق، ويسألها أهي متأكدة بأنه لم يعرف شيئًا. ثم سمع ابنتهُ وهي تلقي عليه اللعنة، وتخبرهُ بأنها لم تعد تكترث بشيء.

لم يستطع أن يستمر ذلك اليوم في العمل، شعر بالغضب كما لم يشعر به من قبل، لكن الغضب هذه المرة كان من نفسهِ، كان ثورةً ضده. واحتاج شهورًا طويلة حتى يفهم ما حدث.

كان هذا من الأشياء التي لا يقدر على التعامل معها مباشرةً، لكنهُ قرر في النهاية أن ينتقم .ولسوف ينتقم من الجميع، وسيكون أبشع انتقام من أستاذه الذي استغلهُ اسوأ استغلال ممكن.. لكنهُ في البداية يجب أن يقتل زوجتهُ.

هكذا استخرجت نيروز المجرم من أعماق نور، بينما استخرج هو أفضل ما فيها بلا أدنى تقدير منها .

وببساطةٍ متناهية، قام نور بتبديل قطعة الحشيش التي يعرف أن زوجته تتعاطاها بقطعةٍ أخرى مليئةً بالسم. ثم أوهم الجميع بسفرهِ، واختبأ في إحدى غرف البيت الواسع. احتاج هذا منهُ مجهودا مضاعفًا في الترتيب والتنسيق، ثم في تحمل ما رآه.

لم تستغرق نصف الساعة بعد أن شربتها، لتموت بين يدي عشيقها، الذي كان يلعقها وهي تتلوي من الألم لا من الهياج الجنسي. لكن الأحمق لم يعرف الفرق.

هرب الحيوان سريعًا، وترك وراءه ألف دليلٍ ضده. لكن ما استغربهُ كثيرًا، أن الدكتور نشأت قد أتى في هذه اللحظة. كان نور يجلس في الغرفة المقابلة، يغلق الباب نصف إغلاقٍ، ويتابع في الظلام ما يحدث.

رأي الدكتور نشأت يُصدم، ويبكي، ويجلس تحت قدمي ابنتهُ العارية لينوح طويلًا جدًا، قبل أن يتمالك نفسهُ، ويأخذ كل ما يدل على وجود رجلٍ آخر، ثم يُلبسها ملابسها، ويضعها برقي بالغٍ في فراشها، ويفتش في غرف البيت عن أي شيءٍ غير طبيعي. ثم يرحل.

عرف في اليوم التالي أن نشأت اكتشف أنه لم يسافر، وقد سأله عما فعلهُ، فأخبرهُ أنه كان يعد مفاجأةٍ لزوجتهِ.. كان نور قد اعدها بالفعل، حجز في فندقٍ كبير، واستأجر مركبًا عملاقًا، وأقنع نشأت أنه يحاول أن يسترضيها لتعود إليه.

أجاد تمثيلهُ بالفعل، ثم أجادهُ أكثر حينما مثّل الفجيعة والحزن على موتها، حينما عرف. كان في الحقيقةِ يعيد اكتشاف الكارثة التي فعلها، والجريمة التي قام بها، فيهتز من الرعب وعدم التصديق، وهو ما كان في حاجةٍ إليه ليجيد تمثيله المتقن.

بعد أسابيعٍ قليلة، قام بالخطوة الثانية التي كان يجهز لها. جمع كل أوراق الشحنات التي كان يستوردها نشات إلى الإيالةِ، وأرسلها إلى اسطنبول بلا توقيع، يخبرهم بحجم المفاسد التي كان يقوم بها البروفيسور في أرضهم، ونور يشارك لا إراديًا أو لا شعوريًا في التكتم عليها. بعدها جاءت البعثات العثمانية تبحث في الشركةِ، وتنقب عن أشياءٍ أخرى، ثم تستصدر حكمًا من أغا الاحتساب بالسجن المشدد والغرامة على الدكتور نشأت.

وكان دوره الثاني في التمثيل، وقد أجادهُ كسابقهِ تمامًا. واحتفظ في نفس الوقت بثقة نشأت فيه غير المحدودة، وبرغبتهِ في أن يدير نور شركاته في مصر وفرنسا بنفس الطريقة التي تعكس شخصية نشات، بل والاتصال بأصدقائه في باريس ليجدوا له مهربًا ما.

كان نور يعود تدريجيًا إلى نفسه، وإلى ذاتهِ.. يقترب أكثر من وطنهِ، الذي رفض كلاهما الآخر في مرحلةٍ سابقة، لكنه الآن يراه في تجلٍ جديدٍ، يعكس كل ما يؤمن به نور ويعبر عنهُ.

يقرر في أعماقهِ أنه سيمنح بلاده كل الخيرات التي شارك في خروجها منها، بل وأكثر بكثير. واستخرج مخطوطة رسالتة الأولى في التخصص، ليرسلها إلى جامعة بايزيد.

ثم قرر أن يتركني؛ لكن بإرادتهِ هذه المرة، ليرحل إلى الباب العالي، ويقابل الصدر الأعظم، لينقل له خطتهُ، لتنفذ على نطاقٍ أوسع.

لكنه وعدني بعودتهِ السريعة. وكنتُ في انتظارهِ.. كما كنتُ طيلة حياتي.

القسم الثالث

يحكيه: الدكتور نشأت العالم.

(١)

باريس

الأول من فبراير ٢٠١١

أهبطُ من الطائرةِ الخاصة، التي أرسلها لي الملك فرانسوا الثالث إلى حدود البحرِ، لينتشلني من الزورقِ الصغير الذي نزح بي إلى حدود المياهِ الإقليمية للعثمانيين.

أهبطُ من الطائرةِ، لا أكاد أصدق أنني عدتُ بالفعلِ إلى هذه الأرض، التي خرجتُ منها محملًا بأحلامٍ كثيرة.. أعودُ إليها، بعد أن كادت تتحول حياتي في السجنِ إلى حقيقةٍ فعليةٍ أعيشها.

أتاني نبأُ ما فعلهُ التلميذ الخائب، الذي يريد أن يتعدى على من عرّفهُ على شكل العالم. التلميذ المتهور، الذي لم يقدِّر أستاذهُ، ولم يحمل له الاحترام الكافي، وهو ما يستوجب العقاب على كل ما فعلهُ.

كان بالفعلِ يمثل لي المخرج الوحيد إلى العالم في سجني الكريهِ، وكنتُ أظن أن الحياة دولٍ كما يقول لي، وبأنني كنتُ نافذته الوحيدة على العالم الذي يتمناه .

أعترف أنه استطاع التلاعب بي، ورد ما ظن أنه تلاعب مني به، ولم يعرف أنني أعلمهُ الحقائق المطلقةِ، التي لا تقدر بثمنٍ، وأن ما يقولهُ هو محضُ وهمٍ وتهورٍ، لشابٍ صغيرٍ لم يتعلم شيئًا بعد.

أتاني نبأ سفرهُ إلى سلطانهِ الأحمق، ليعبث بتاريخي المديد، الذي يتعدى تاريخ بلاده بأكملهِ. وعرفتُ بجريمتهِ التي غطتها الشرطة، ولم تخرج نتائجها لأحدٍ، ومنحتهُ عفوها المطلق. ولم أستطع أن أتحكم في الغضب العتيد، الذي امتلأ بهِ كياني.

منحتهُ ابنتي ليتزوجها، فأهملها وتركها، ثم قتلها في النهاية، وأودعني السجن. لا أفهم لماذا فعل كل هذا، ولا أعرف هل ينتشر الجنون في باقي الأراضي العثمانية، التي ستسقط قريبًا جدًا لتحمل لواءنا المجيد.

في لقائي مع ملكنا العظيم، أخبرتهُ أن كل ما أريده الآن مقابل كل خدماتي الطويلة لمملكتنا الفرنسيةِ العظيمة هي رأس هذا الولد. لنا العديد من العيون في قصر السلطان، وقد أخبرنا باجتماعاتهم الطويلةِ بمجموعةٍ من شباب العلماء، كان من بينهم نور. وعرفنا كذلك أن هذا الولد يحملون له تقديرًا خاصًا واحترامًا مختلفًا عن الباقين.

من السهلِ جدًا توقع ما يفكرُ فيه هذا الولد الصغير، وفهم محاولاتهُ البائسة في التكفير عما فعلهُ ضد دولته. كنتُ أحمل له مستقبلاً أفضل بكثيرٍ مما اختارهُ هو لنفسهِ، ولا يعرف إلام سيقودهُ هذا.

استغرق الأمر عدة أسابيعٍ حتى انتهت اجتماعاهم في الآستانةِ، وعاد إلى الإسكندرية، حتى يأتيني الفريق الذي أرسلهُ الملك برأسهِ، ويضعوها تحت قدميّ.

نظرتُ إلى عينيهِ المحلقتانِ في الفراغِ، ورأيتُ صورة ابنتي الوحيدةِ ملقاةً عاريةً على فراشها، ورأيتُ صورتي وأنا مكبلٌ بالأغلالِ، ويقوم هو بالتمثيلِ المتقن في أدوارهِ الحمقاءِ.

رأيتُ كل هذا في عينيهِ، فأودعتُ فيهما خنجرينِ، وعلقتُ رأسهُ على باب الشركة، ليكون عبرةً لكل من يفكر في التطاولِ على أسياده. وكل من يرفض أن تسير الأمور وفقًا لنصابها الطبيعيّ.

خاتمة.

دمنهور

السابع من سبتمبر ٢٠١١

لقد توقف الشيطانُ عن عزفِ نايهِ..

كان هذا آخر ما أخبرها بهِ نور وهو بين يديّها، بعد أن تلقى الرصاصاتِ في أنحاءِ جسدهِ .

لم تستمع إليه، فقد كانت تصرخ صرخاتٍ متصلةٍ، غير واعيةٍ، تطلب النجدة، قبل أن ينقطع صوتها، وتسقط فاقدة للوعي.

لم تعرف بعدها ما حدث.. استيقظت بعد عدة أيامٍ في المستشفى، التي صارت تكرهها بكل ما أوتيت من قوةٍ ..

كانت علامة فقدها لنور..

علامة وحدتها، وضعفها، وحياتها التي تكرهها بدون وجودهِ فيها.

استغرقت ثلاثة أشهر حتى تستطيع أن تتكلم من جديد، وتخرج للعالم.. اكتشفت بوجعٍ أنها قضت نصف حياتها في رفقةِ نور، ونصفها الآخر في التعذب من فراقهِ.

عرفت لأول مرةٍ روكسلان؛ لم يحدثها عنها من قبل، وإن أشار لامتلاكه لجاريةٍ في عجالةٍ، لم تستطع معها أن تتوقف عندها. كانت روكسلان مصدومةٍ بالفعل، وبرغم أنها لم يعد لها سيد، ويمكنها بطلبٍ صغيرٍ تقدمه أن تمتلك حريتها، إلا أن حزنها لفقد نور طغى على رغبتها في التحرر. كانت تعرف أنها الأنثى الوحيدة التي أحبها نور بصدقٍ، ولم ينلها أبدًا. في حين نال كثيراتٍ لم يرغب فيهن. كانت دومًا هي التي تسطع في فراشهِ.

خرجت إيمان، لم تستطع أن تقضي يومًا جديدًا في الإسكندرية، تحولت المقاطعة بأكملها إلى دماءٍ تخرج من جسدِ نور. فسافرت إلى دمنهور لدى بعض من نساءِ قبيلتها، اللائي رحبن بها كثيرًا.

لقد توقف الشيطانُ عن عزفِ نايهِ. .

اكشفت هذا هي الأخرى، وكانت قد انتقل لها هذا الكابوس في صورٍ متعددة. .

تشاهد في السماءِ طائراتٍ ورقيةٍ يلعبُ بها الأطفال في الشارع، فتتذكر ماضٍ سعيدٍ موغلٍ في القدمِ. تتذكر طفلا جميلًا يغطي شعرهُ عينيهِ، وطفلةً كانت تتعرف على العالم من خلالِ عينيهِ المختبئة.

تتذكر هذه الأيام، وتلك الطائرةِ البعيدة التي شكلت حياها، والطفلة التي كانتها حينما كانت تركض في الشوارع بصحبتهِ، والعالم الذي كان أبسط وأيسر وأجمل من كل هذا.

حملتهُ في عروقها، وفي نبضها، وفي أنفاسها، وفي خلاياها، وفي ذاكرها، وحتى في أفكارها، وهي لا تريد التخلص منهُ أبدًا .

ياللموتِ حين يأتي. .

يا للموتِ حين يستخدمهُ الإنسان كسلاحٍ بسيطٍ يرضي به نفسهُ.. حين يعطس الحياةَ ويمنحها.. حين يفرد صليبًا في الطرقاتِ، يصلب عليه الرسل وحاملي شعلات الحياةِ، فقط كي يرضي غروره .

انفصلت تدريجيًا عن العالم، وغرقت في كل حياها معه.. كل الدنيا الواسعةِ التي كانت تحسها في رفقتهِ.. لم تشعر بمرور الوقتِ وتتالي الأيامِ، لم تشعر بضمور حياها وجسدها، كل ما تشعر به هو حياة نور، التي كانت تملأ عليها عالمها الداخلي .

تدريجيًا اكتسبت غضبًا داخليًا، حين أفاقت في يومٍ مرت فيه أمام الجامعة التي التقيا فيها في مرهما الثانية، في تجليهِ الثاني في حياها. اكتشفت أنه لم يمت فعليًا، وأنه في كل مرةٍ يُكسبها شكلًا مختلفًا للحياة، ويمنحها أسلوبًا جديدًا وتجليًا أروع من سابقهِ.

عادت بعد ذلك إلى الإسكندرية، تحمل نسخة من مخطوطةِ الرسالةِ التي كتبها نور في مرتهِ الأولى، فأعادت قراءها، وأعادت اكتشافها واكتشاف هذه الرؤية العميقةِ لحياةِ الناسِ من جديد .

سرحت كثيرًا بين كلماتهِ، بين رسومه البيانيةِ، وبين مصطلحاتهُ التي يمزجُ فيها بين ثلاث حضاراتٍ مختلفةٍ، استطاع أن يفهمها ويتعامل معها، ويقارن بينها، ويخرج بنتائجٍ أدت إلى قتلهِ في النهاية.

كانت تشعر أنها يجب أن تستكمل مهمتهِ، أن تنهي ما بدأهُ وما كان يعبر عن حياتهما معًا.. تشعر أنها امتدادٌ لوجودهِ، واستمرارٌ لخلودهِ في هذه الحياةِ، التي أتاها غريبًا ورحل عنها في لحظة عشقٍ بينهما.

كان يفصح لها عن حبهِ، ويرجوها أن تسامحهُ.

لم تعرف يا نور أنها سامحتك منذ طفولتكما معًا.. أنها سامحتك لأنك أعطيتها سببًا للوجودِ والحياة ..

في أيامها التاليةِ، قررت أن تقوم بفعلٍ إيجابيٍّ ..

ذهبت إلى جامعتهُ التي كان يدرس فيها، حاملةً معها المخطوطةِ.. قابلت أساتذتهُ، ورغبت في أن يتم مناقشة الرسالة ومنحها درجة التخصص، ونشرها في كتابٍ يحمل بين دفتيهِ ذاتهُ التي قاتل من أجلها. .

وبعد شهرين، كانت قد ناقشتهم في رسالتهِ.. وقفت بين عمالقة الجامعةِ تحكي لهم عن المقارنةِ التي أقامها نور بين الحضارات الثلاثة، وتخبرهم بتوصياتهِ .

فعلتها.. ثم اختفت إيمان. .

لا أحد يعرف لأين ذهبت. .

لكن اسمهما معًا كان يتردد في جنبات الجامعةِ، يحكون عن النوبيةِ الشجاعةِ، التي تصدت لأساطين العلم في الجامعةِ، تحاورهم بالحجةِ والمنطقِ عن أفكارِ رجلٍ دفع حياتهُ ثمنًا لها.

بعدها، ومع نشرِ الرسالةِ، تجاوزت القصةِ أسوار الجامعةِ. وصارت حديثًا مطروقًا في الصحف والشوارعِ.. وكانت الحكاية تحكي عن القصةِ التي تجاوزت حدود الحب، والتي لم يقف أمامها مجتمعٌ أو موتٌ أو حياة.

إيمان.. هي المثلُ الساطعُ على وجود شيءٌ يتجاوز الحب.. ويتجاوز العشق.. وهو أكبر من التسامح والمغفرة..

جسدت الدليل على الإنسانيةِ، التي لم تعرفها البشريةُ بعد.

تمت بحمدِ الله

الرسالة

(المركز الثالث مناصفة)

أحمد يسري إبراهيم الصباغ

يقال إن رفرفة أجنحة الفراشة على نصف الكرة الأرضية الشمالي، قد تساهم في خلق إعصار على نصفها الجنوبي.

* * *

١٩ سبتمبر ١٩٧٢ الثانية عشر ظهرًا

يسرع الخطوات في ذلك الطريق الضيق في تل أبيب، يقلّب في ذهنه مرة أخرى ما قرأه في تلك الوثيقة السرية، التي وصلته من مصدره. ينظر وراءه، يتأكد للمرة الخامسة إذا ما كان أحدهم يلاحقه. يستشعر أنه مراقب منذ الساعة، ولكنه لا يرى أحدًا يتبعه. يسرع الخطوات أكثر، فها هو منزله على بعد أربعة مبانٍ.. حدسه الأمني يصرخ أن شيئًا ما ليس على ما يرام، وهو قد تعود منذ بدء عمله في المخابرات أن يثق دائمًا بحدسه. ولكن لا شيء من حوله يدعم القلق الذي يتنامى بداخله.

يسترجع مصطفى المعلومات مرة أخرى، ويفندها في عقله.. شيء بداخله يصرخ ألا تدخل إلى منزلك؛ ولكن خطورة المعلومات التي وصلته تستدعي التعجل، ويجب أن تصلإالى القيادة في مصر بأسرع وقت ممكن.. يستعيد ما قرأه، ربما للمرة الخمسين..

"قام جون هوايت أبان الحرب العالمية الثانية بإطلاق إشاعة وسط الجيش النازي، مفادها أن خليج سانت مارجريت الإنجليزي، الذي كان

يفتقد إلى عناصر التأمين الملائمة، تمر من تحته أنابيب نفط، وإذا ما حاول النازيون مهاجمته، فسيضخ النفط إلى الخليج، محولًا إياه إلى مقبرة مشتعلة لمن يحاول عبوره. ومما تقدم، فنحن ننصح بشدة بدراسة الفكرة وتطبيقها على قناة السويس، الأمر الذي قد يمنع المصريين تمامًا من عبور القناة، ويساهم بشكل كبير في تأمين دولتنا العظمى إسرائيل"

يسرع في صعود السلم، ويتأكد للمرة الأخيرة من عدم وجود مراقبين من ورائه. يدير المفتاح في قفل الباب، ليدخل إلى الشقة المظلمة، ويغلق الباب من ورائه في سرعة، ويقف في الظلام يزفر بارتياح. محاولا أن يقنع نفسه ان كل شيء على ما يرام.. لكن لازال حدسه يصرخ بداخله أن اهرب قبل فوات الأوان!.. يصغي في الظلام، ويحرك عينيه في المكان، ليتأكد أن كل شيء لازال في مكانه.. يحرك أقدامه بهدوء، ليصعقه صوت أنفاس ثقيلة، يأتي من ورائه!.. يتجمد في مكانه لجزء من الثانية، لتتحرك يده لا إراديًا إلى داخل جيبه، ليخرج مسدسه في سرعة، ولكن قبل أن تصل أصابعه إلى المسدس، تباغته ضربة على مؤخرة رأسه. يحاول التماسك، فتباغته ضربة أخرى أقوى من الأولى، جعلت رأسه يدور. تضاء الأنوار في عينيه دفعة واحدة، ليجد مترله مترعا بالرجال والجنود. يمسك به اثنان من ذراعيه، ويجبرانه على الترول إلى الأرض، ليقترب منه أحد الرجال في الزي المدني، رجّح من وسط دواره أنه من المخابرات الإسرائيلية. يبتسم الرجل في وجهه قائلًا في تهكم:

- يوم جميل سيد مصطفى الجمال.. أليس كذلك؟

يرد مصطفى محاولًا التماسك

- اذهب إلى الجحيم

يبصق بعدها في وجه محدثه، الذي استقبلها بابتسامة ساخرة، قائلًا:

- عزيزي مصطفى اذا ما ذهبت أنا إلى الجحيم، فقبلًا سأجعلك تشاهد الجحيم هنا على الارض

حرر مصطفى يده في سرعة، ليمسك محدثه من ربطة عنقه، قائلًا في شدة:

- لنرَ كيف يبدو الجحيم الآن

أفلته في سرعة، ليخرج من جيبه جهازًا صغيرًا، ضغط ثلاثة أزرار فيه بتتابع، لتنبعث من الجهاز إشارة إلى مجموعة من القنابل، زرعها مصطفى في جميع أنحاء منزله، وابتسم قائلًا

- الوداع

لترتج المنطقة بالكامل من الانفجار، الذي أتى على المنزل في ثوانٍ.. من وسط الانفجار، تطايرت ورقة مخضبة بالدماء، احترق طرفها، كانت منذ لحظات صورة من وثيقة غاية في السرية، لابد من إرسالها إلى مصر بأقصى سرعة.

* * *

٧ يناير ١٩٧٣ الثانية ظهرًا

تحرك موشيه ديان، وزير الدفاع الإسرائيلي، في ذلك الممر الطويل، وهو يعيد مرارًا في ذهنه السيناريوهات التي تخيلها لمسار الجلسة السرية، التي طلب عقدها مع نظيره الأمريكي. ينظر حوله في تأفف، لكل البهرجة والتحف التي تزين الممر، ويفكر في نفسه.. لولا نقود اليهود ما وجد كل ذلك. ينفتح الباب في آخر الممر، على وزير الدفاع الأمريكي، وابتسامة

عريضة تملأ وجهه. اضطر موشيه لمبادلته الابتسام، على الرغم من ازدرائه لكل ماهو أمريكي.. يمد يده لمصافحته، مع إنه يود أن يخرج سكينًا يغرسها في صدر هذا المتعجرف الكسول، الذي لا يفعل شيئًا سوى الجلوس إلى مكتبه، وأكل الطعام الأمريكي المقزز، ولا يجيد شيئًا سوى كنز المزيد من الأموال، التي يدفعونها لهم ولمسئوليهم. يجلسان متقابلين، ويبدأ الأمريكي الكلام قائلًا

- ما سر هذه الزيارة المفاجئة سيد موشيه؟ بل والسرية أيضًا بناء على طلبكم؟

- فى حقيقة الأمر، جلستنا اليوم لنناقش موضوع خطير

- وما هو هذا الموضوع الخطير؟

- القيادة الأمريكية تعلم تمامًا خطورة مصر كدولة، وأظن لهذا السبب في الأساس دعمتم حربنا عليهم، وضربتنا الوقائية ضد قواهم. ونحن في القيادة الإسرائيلية، نحب دائمًا أن نحسب ونعد العدة لكل شيء

- لم أفهم بعد ما ترمي إليه

- نحن نسأل أنفسنا دائمًا، ماذا لو تجرأ المصريون وعبروا قناة السويس؟

- ولكنكم وخبراؤنا تجزمون أن ذلك لهو من رابع المستحيلات

- أعلم ذلك تمامًا، ولكن هناك دائمًا احتمال، ولو جزء في المائة، ونحن كرجال عسكريين، لابد أن نضع كل الاحتمالات في أذهاننا

- إذًا، وإن حدث ذلك، فأنا أضمن لكم الدعم العسكري الكامل من أمريكا، كدولة وقيادة

ابتسم موشيه في تهكم

- هذا شيء لا شك فيه، ولكن ما أتكلم عنه، وما أفكر فيه هو ضربة تأديبية

- حسنًا.. أظن أن ضربة جوية شديدة القوة، مع إنزال جوي للجنود على مدن القناة المصرية، قد يشكل ضربة تأديبية جيدة

- وهل تسمي ذلك بالتأديب؟!.. نريد شيئًا يرج العالم بالكامل، ويعلنها صريحة وواضحة: إسرائيل يجب ألا يحاول أحد التلاعب معها بأي شكل من الأشكال، أو حتى التفكير في مهاجمتها

- ما الذي تتحدث عنه بالضبط؟

- أتكلم عن السلاح النووي.. ضربة تأديبية نوويه بالطبع

- هذا شيء ضخم، ويحتاج إلى موافقات عديدة، وسيهز صورتنا أمام العالم أجمع

- أنا لا أتكلم فقط عن موافقتكم، بل أيضًا عن إمدادنا بالموارد اللازمة

- أي موارد تقصد؟

- رؤوس نووية.. أربعة منها

قام الأمريكي من مكانه كالمصعوق قائلًا:

- أربعة رؤوس كاملة!.. أظن القيادة لن تقر هذا أبدًا.. قد ندعم الفكرة؛ ولكن أن نعطيكم رؤوسا نووية.. أنتم تحلمون

ظهر على وجه موشيه الامتعاض، وقال ضاغطًا على كلماته

- اجلس، واسمعني جيدًا

- لكن.. هذا جنون

لم يتحمل موشيه مناقشته، واتهام كلماته بالجنون، فاستشاط غضبه، ووقف صارخًا بأعلى صوته:

- اجلس

لم يجد الأمريكي تصرفًا يفعله سوى الجلوس، ليلتف موشيه من حوله قائلًا:

- اهدأ واسمعني جيدا.. أنتم لستم حلفاءنا، ولم تكونوا أبدًا.. ما أنتم إلا دمى نحركها كيفما شئنا.. نقودنا هي ما تجعلكم تعيشون حلمكم الأمريكي المزعوم.. نحن لا نستأذن، بل نحن نطلب أربعة رؤوس نووية، في أقرب وقت ممكن.. اذهب إلى رئيسك في مكتبه الفخم، وقل له هذا.. قل له إننا نعلم عنه وعنكم جميعًا ما قد يزج بكم جميعًا في السجون.. اجتمع مع قادتك، واحضر لي ما أريد.

نهض، ووقف في مواجهته وقال:

- هل تفهم؟

* * *

٥ مايو ١٩٧٣ السادسة مساءً

زفر كمال بقوة، وتحرك بعصبية، بين أفرشة نوم زملائه، في معسكر القوات المصرية على الضفة الغربية لقناة السويس. أغمض عينيه في ضيق، وزفر مرة أخرى، ليسأله صديقه محمود

– ماذا بك؟

– مللت.. مللت يا محمود

اعتدل محمود في جلسته..

– مللت ماذا؟

– مللت ما نحن فيه.. قل لي ماذا نفعل هنا.. نخرج في الصباح لنتدرب.. نأكل ونستريح.. نتدرب مرة أخرى ثم ننام.. كل يوم كالآخر

يزفر مرة أخرى، ليضرب الحائط بقبضته..

– ما الفائدة؟.. نتدرب ونتدرب ونتدرب ولكن لِمَ؟

– حتى نكون مستعدين للحرب

– ومتى الحرب.. متى نعبر ونسترد ما هو لنا؟

– ....

– أنت لا تعلم ما أشعر به حينما أرى هؤلاء الكلاب على الضفة الأخرى من القناة.. أشعر أنني أود لو أطير، لكي أحط بينهم، أقطع أجسادهم بيدي العاريتين.. أتمنى أن أرفع ساترهم الترابي، وأردم جنودهم به أحياء.. أتمنى أن أقتل كل من حاول منهم الاعتداء على ما ليس له، وأطاردهم لآخر فرد فيهم.

– اصبر يا كمال.. اصبر وسيأتي اليوم الذي نحقق فيه ما تريد

– متى يأتي هذا اليوم؟

– قريبًا.. قريبًا إن شاء الله

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣.. الواحدة ظهرًا

انطلق صوت البروجي يدوي عاليًا في كل معسكرات الضفة في نفس التوقيت، وتحول المعسكر في لحظة من السكون إلى ما يشبه خلايا النحل. الكل يتحرك ويتساءل ما سبب نداء التجمع المفاجىء في هذا التوقيت، الذي غالبًا ما يكون وقتا للراحة، خصوصا أن أغلب الجنود صائمون. الكل يعدو يحاول أن يلملم حاجياته.. من وسط الحركة، يهمس كمال لصديقه

– غريب هو نداء التجمع هذا

– نعم غريب، وفي وقت أغرب

– فى الغالب، هو كعادة الأمر.. مجرد تدريب، وسنعود لما كنا عليه خلال ساعة

– تفاءل يا أخي، ولا تجعل التشاؤم سمتك.. سيأتي اليوم الذي تنال ما تبتغي

– فقدت الأمل فيما أبتغي منذ زمن بعيد. ربما انتهى الأمر كما يقول اليهود

في دقائق، كان كل من في المعسكر بعتاده العسكري في الساحة، يقفون مشدودة قاماتهم، عيونهم متعلقة بالقائد، الذي ينتابه الانفعال، ويظهر على كل قسمات وجهه. كمال، الذي فقد الأمل منذ زمن، انتعش الأمل من جديد بداخله، لدى رؤيته لعيون قائد المعسكر.. يتحرك القائد في دوائر، محاولًا السيطرة على نفسه

– تمام الطابور.. لا أحد غائب يا سيدي

قالها أحد الضباط لقائد المعسكر، ليأخذ نفسًا عميقًا، ويبدأ الكلام قائلًا:

- أيها الرجال.. اليوم لا أقف أمامكم بصفتي قائدًا لكم.. اليوم أخاطبكم كجندي يهينه في كل ثانية اغتصاب شبر واحد من أرض وطنه. ست سنوات مرت منذ النكسة، ست سنوات ونحن نتجرع الذل والمهانة.. ست سنوات ونحن ندمي من داخلنا على من قتلوا من إخواننا، على كل بيت هدم في غارة، على كل مدني قتل غدرًا على يد قوات العدو الصهيوني.. ست سنوات، ونحن ننتظر لحظة واحدة.. لحظة يتسنى لنا فيها الانقضاض على من اغتصبوا أرضنا، واستباحوا عرضنا.

يلهث من فرط انفعاله ويكمل:

- اليوم أزف لكم البشرى.. اليوم سنسترد كرامتنا وثأر شهدائنا.. الفرصة التي ننتظرها وجدت، واللحظة التي نتمناها قادمة الآن.. اليوم، في تمام الساعة ١٤٠٠ سينضم معسكرنا مع المعسكر ج، لنحقق ما نحلم به منذ زمن بعيد.. اليوم نحارب يا رجال

يدق قلب كمال من فرط النشوة، لدرجة أنه لا يدري بنفسه إلا ودموعه تنهمر من عينيه، ويهتف بأعلى صوته

- الله أكبر.. الله أكبر

ليرج المعسكر هتاف زملائه من بعده، وينتعش من جديد الأمل في نفوس الجميع.

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣ الثانية والنصف ظهرًا

اندفع كمال وبجانبه محمود، يعدوان على الرمال الحارة جنبًا إلى جنب.. رأيا أسراب الطائرات من نصف الساعة، تحلق منخفضة من فوقهم

كالنسور، تتجه إلى داخل سيناء، ليسمعا من بعدها الانفجارات ترج السماء. تشرق شمس الأمل في قلوبهم مع كل ضربة مدفع تنطلق، لتنفجر إما على الساتر الترابي، أو تخترقه لتدك حصنًا في داخل خط بارليف.. يتسلمان زورقًا مع زملاء لهما، وتأتيهم الأوامر أن اعبروا به إلى الضفة الأخرى.. أسلحتهم وكأنما نبتت لها حياة خاصة، تنتفض بين أيديهم، وكأنما تتوق إلى دماء الصهاينة.. ينطلق من قلوبهم الهتاف الله أكبر، مع كل خطوة يخطونها على الرمال الساخنة. يحملون الزورق، لا يشعرون بوزنه، ويسرعون به إلى داخل مياه القناة، كأنما تناديهم أن حرروني.. يشاهدون الكباري تنفتح فوق الماء، لتعبر عليها الدبابات.. يلمحون عشرات الزوارق، يحملها أخوانهم في الجندية، يسرعون بها إلى الماء، فتسرع خطواتهم، يريدون أن ينالوا الشرف أن يكون زورقهم أول من يصل إلى الناحية الأخرى، وأول من يرفع علم مصر مرفرفًا على أرض سيناء، معلنين تطهيرها من الدنس.

....

لحظة أن لمس قاربهم الماء، انفجر هاتف موشيه ديان برنين طويل، ليمتعض وجهه لدى سماع الجرس قائلًا

- رباه.. حتى يوم العيد.. ألا يتركني أحد وشأني أبدًا

تحرك إلى الهاتف، ليرد عليه

- أرجو أن يكون هذا ضروريًا

جاءه صوت محدثه المترعج قائلًا

- سيدي لقد.. لقد شن المصريون علينا الحرب

– ماذا تقول؟

– لقد ضربتنا طائراتهم، وقواتهم تحاول عبور القناة إذ نتحدث

إذن فقد فعلوها.. جزء صغير بنفسه كان يحدثه أنهم سيقومون بما يقومون به الآن، ولكن كذبه الجميع.. الأغبياء!

– ماذا نفعل يا سيدي؟

الآن يهرعون إليه طالبين منه العون.. يكذبونه ويضحكون من خوفه، وفي الثانية التي تليها يسألونه العون

– ماذا نفعل يا سيدي؟

– أعلن حالة التعبئة العامة.. أعلن الرمز الأحمر في كل معسكراتنا وقواعدنا.. أريد كل الأرقام على مكتبي خلال نصف الساعة، وأريد أيضًا وزير الدفاع الأمريكي اللعين على الخط الآمن.. ابعث إشارة إلى الجنرال شموئيل جونين، واكتب فيها بالحرف الواحد.. ابدأ الخطة باء.. احرقهم أحياء.

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣ الثانية وأربعون دقيقة

يضرب المجداف في يد كمال مياه القناة في قوة، وكل ضربة تلقي أثرها في قلب كمال وزملائه، ممن معه في القارب.. تقترب الضفة الأخرى في سرعة، ومعها تنهمر المجاديف في أيدي الجنود على مياه القناة، ليندفع القارب أسرع وأسرع.. تنهمر طلقات مدفعية العدو بجانبهم، فلا يلقون لها بالًا.. تتحرك أيديهم، وعيونهم معلقة بالضفة الأخرى، والحماس يأكل قلوبهم، والنشوة تزيدهم حماسًا.. "الله أكبر" تخرج من حناجرهم إلى عنان

السماء، ترج الماء من تحتهم، والسماء من فوقهم، وتدب الخوف في قلوب أعدائهم.

....

يتحرك الجنرال شموئيل بسرعة بين جنوده، يتسلم الإشارة التي جاءته من مركز القيادة.. ينظر فيها بسرعة، ثم يصيح بجندي الإشارة والمراسلة

– ابعث إلى كل المراكز.. افتحوا صمامات النابالم.. احرقوهم أحياء

....

أمتار قليلة تفصلهم عن الضفة الأخرى.. تمتلىء عروقهم بالحماسة، ويتدفق الدم غزيرا إلى عضلاتهم، ليجدفوا أسرع.. تزداد كثافة نيران العدو كلما اقتربوا مترا آخر.. يشعر كمال أن النار تسري في عروقه بدلًا من الدماء.. ترتفع الحرارة من حوله، فيشعر كأنما هي النار التي بداخله، تخرج لتحرق أعداءه أحياء.. نظره معلق بالضفة الأخرى، لا يرى أي شيء غيرها.. لا يرى النار التي اشتعلت على سطح القناة بطولها.. لا يرى قوارب زملائه التي أكلتها النار عن آخرها.. لا يسمع صيحات الألم من زملائه وهم يحرقون أحياء.. لا يرى سوى العدو.

تتحرك النيران في سرعة، تأكل قدميه.. تأكل معدته وأمعاءه.. يداه لا تتوقفان عن التجديف بمجداف احترق نصفه.. لسانه يلهث الله أكبر.. عقله لا يشعر بشيء، ولا يستشعر النار تحرق أطرافه.. لم يوقفه سوى اللهب يمتد إلى عينيه، ليطفيء نور الأمل بداخلهما.. يلتحم جسده مع مياه القناة الملتهبة، لتغطى النار بعدها كل شيء.

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣ الثانية وخمسون دقيقة ظهرًا

– سيدي الرئيس

تكلم اللواء محمد عبد الغني، رئيس غرفة العمليات، وبدت ارتجافة واضحة في صوته، الأمر الذي استرعى انتباه كل المتواجدين، ليوجهوا أنظارهم إليه

– لقد جاءتنا أخبار سيئة من الجبهة.. كل التقارير تؤكد أن العدو قد استخدم نوعًا ما من الغاز أو السوائل النفطية ليقوم بـــ...

ابتلع ريقه بصوت مسموع، وأكمل

– وقام بإشعال سطح القناة

انطبعت نفس النظرة على وجوه جميع المتواجدين، واندفعت العيون جميعًا إلى الرئيس، الذي أطال التحديق في الخريطة المعلقة على الحائط أمامه. طال الصمت، فقطعه الفريق الشاذلي متكلمًا ببطء

– وكيف هي خسائرنا؟

– الموجة الأولى يبدو أنها قد أبيدت بالكامل.. الموجتين الثانية والثالثة تعذر عليهما إكمال المهمة

لحظات صمت أخرى، مرت كالدهور، قبل أن يتكلم من جديد..

– سيدي الرئيس، القوات الإسرائيلية لابد أنها تحتشد الآن، وعنصر المفاجأة، الذي كنا نعتمد عليه في العبور قد انتهى.. ماذا تقترح سيادتكم؟

أخرج الرئيس السادات غليونه من فمه بأصابع مرتجفة، ونظر في الخريطة مليًا، ثم تساءل:

– وما حال القوات السورية؟

– مازال القصف المدفعي من جانبهم، ولكن كانوا يعتمدون على العبور من ناحيتنا، ليبدؤوا التحرك الفعلي

انطلقت زفرة حارة من الرئيس السادات، وقال:

– ابدأ خطة الانسحاب، حتى نرى ماذا نحن فاعلون.. لا أريد أن يصاب جندي مصري واحد في الانسحاب.. أريده انسحابا منظما ومأمونا.. لا تكرروا كارثة الماضي، فكفانا خسائر ليوم واحد.

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣ السادسة مساءً

استرخى الجميع في مقاعدهم، في غرفة عمليات الحرب على الجانب الإسرائيلي. كانت التقارير القادمة من الجبهتين المصرية والسورية تبشر بكل خير لهم.. الجبهة المصرية تنسحب في بطء منظم، بعد محاولة العبور الفاشلة.. القوات السورية اكتفت بالقصف، وقليل من التوغل في الجولان، تعاملت معه القوات الإسرائيلية بكل عنف. التعبئة العامة للجيش الإسرائيلي قد اكتملت، وتم تعزيز خط بارليف بضعف عدد القوات القديم. القوات كلها في حالة استنفار، وتم إحكام الثغرات التي نتجت من الضربة الجوية الناجحة من الجبهة المصرية. التقارير كلها تؤكد –بما لايدع مجالًا للشك– أن محاولة العبور الفاشلة للمصريين قد انتهت.

– لابد من تأديب هؤلاء المصريين الذين تجرؤا علينا

قالها أحد الجنرالات المسنين في غضب

– وماذا تقترح؟.. أقصد كضربة تأديبية مناسبة

قالها موشيه ديان باسترخاء، لتنهال عليه الاقتراحات من كل المتواجدين

- حملة جوية موسعة نصل بها إلى عمق القاهرة

- قصف الضفة الغربية بكل ما لدينا

- إنزال جوي على مدن القناة والسيطرة عليها

اتسعت ابتسامة ديان، ونظر إلى كل من حوله في استهزاء قائلًا:

- أهذا كل ما أنتجته عقولكم العسكرية؟.. أهذا ما تطلقون عليه ضربة تأديبية؟

تغيرت ملامحه في لحظة، وقام من مكانه..

- التأديب يعني إنزال العقاب.. البطش بكل ما أوتيت من قوة.. أن تضرب ضربة تجعل الجميع، وأعني الجميع، يخافون منك ومن قوتك

استعاد مكانه على كرسيه الوثير

- دعوني أكلمكم عن الخطة صفر

* * *

٦ أكتوبر ١٩٧٣ الثامنة مساء

- كيف تسمي نفسك رئيسًا للمخابرات؟

قالها الرئيس أنور السادات في غضب، مواجهًا رئيس المخابرات العسكرية

- سيدي الرئيس..

– لا تتكلم أو تحاول تبرير ما حدث.. خطأ بشع كهذا، لا يمكن أن يخرج إلا من جهاز للسكارى.. كيف تبرر عدم وجود معلومة كهذه عند مصادرك أو في تقاريرك؟

– لا أملك يا سيدي إلا أن أضع بين يديك استقالتي

نظر إليه في ذهول، وانقلبت شفتاه في بطء

– استقالة.. أهذا كل ما استطعت فعله؟.. أوتعلم أن كل من ماتوا اليوم.. حرقًا.. ذنبهم في رقابنا جميعًا.. أنا، وأنت، وكل من كان في يده صنع هذا القرار المتهور بالعبور

– سيدي.. لقد اتخذنا قرارنا بناء على ما توفر لدينا من معلومات.. واستقالتي ليست إلا جزء من اعترافي بالمسئولية

– لا استقالات الآن.. نمر بالبلاد من الأزمة أولًا، ثم بعدها نبدأ الحساب

– سيدي لدينا معلومات جديدة

– ما المصيبة الجديدة؟.. ربما أغير اسم جهازك إلى جهاز المصائب

ابتلع الإهانة وأكمل في سرعة:

– لدينا معلومات أن الجبهة الإسرائيلية تجهز لضربة تأديبية.. وربما يستهدفون القاهرة في تلك الضربة.. ربما يستهدفون قيادات الدولة

– ثم؟..

– نحن نحرك كل القيادات العليا إلى أماكن أخرى في باقي المحافظات، حتى تمر الأزمة

– أتريدني أن أترك مكاني؟ هل جننت؟.. هل أبعث بجنودي إلى الجحيم، ثم أفر بعدها من مكاني كالجبان؟!

-   سيدي.. هذا لمصلحة البلاد

وضع السادات يده على مكتبه مشيرًا إليه

-   لقد خدمت بلادي من هذا المكان، ويشرفني أن أموت في هذا المكان.. فليرحل من يرحل ولكن أنا لن أهجر مكاني وأفر كالجبناء.

* * *

٧ أكتوبر ١٩٧٣ الحادية عشرة والنصف صباحًا

لملم محمود أوراقه من فوق مكتبه، ليكدسها في حقيبته في سرعة.. ينظر في ساعته للمرة الألف.. يهرول إلى خارج الباب، ويغلقه وراءه بإحكام.. يضع القفل على الباب، ويشده بيده ليتأكد من انغلاقه جيدًا. ينظر إلى ساعته من جديد، يحدث نفسه أنه قد تأخر على القطار ولن يلحق به. الجزء المتفائل بداخله يحدثه أنه لم يتأخر على الميعاد.. يصل إلى باب العمارة، وينظر إلى الشوارع شبه الخالية.. إنها الظهيرة، في وسط نهار شهر رمضان، والجو حار نسبيًا اليوم، وساهمت الشائعات التي انتشرت منذ البارحة عن محاولة عبور فاشلة للقناة، في منع الناس من النزول إلى الشوارع في هذا التوقيت.. تتوارد إلى ذهنه خواطر شتى عن زوجته، التي تتخذ طريقها الآن إلى مستشفى في بنها، لتضع مولودها الأول.. ينظر في ساعته من جديد.. لابد أن يصل إليها في الموعد. يشير بيده إلى أول سيارة أجرة قابلته، ليتوقف سائقها فيقول:

-   أريد أن أذهب إلى محطة القطار

* * *

٧ أكتوبر ١٩٧٣ الحادية عشرة وأربعون دقيقة صباحًا

- لماذا تبكي يا صغيري؟

قالتها منال مخاطبة طفلها، الذي انفجر في بكاء هستيري.. نظرت إليه للحظة، لتفهم ما ألم به، لتلتقط طبقا مليئا بطعام الأطفال من على المنضده القريبة منها.. مدت إلى فمه ملعقة مملوءة بالطعام قائلة:

- أتريد أن تأكل.. هيا لنأكل

اشتد بكاؤه، وضرب طعامه بيده، ليقع الطعام على الأرض

- ما بك.. هل تشعر بألم؟

رفعته بيديها إلى كتفها، وهو لا يتوقف عن البكاء..

- ماذا بك يا صغيري؟ اتريد اللعب؟

أمسكت بلعبة من ألعابه، حاولت أن تسري عنه بها، فلم تفلح فعلتها، بل زادته بكاءً.. تقف أمامه حائرة، وتفكر قليلًا.. تضحك في وجهه قائلة:

- إذًا، لنخرج إلى الشرفة

* * *

٧ أكتوبر ١٩٧٣ الحادية عشرة وخمسون دقيقة صباحًا

يمشي في بطء بمحاذاة مياه النيل.. يجرجر قدميه، وعيناه تسبحان وسط زرقة المياه، التي تلامس زرقة السماء في الأفق البعيد.. ينظر إلى يده المفتوحة، التي استقر في راحتها خاتم خطوبة انطفأت لمعته.. دمعة تلألأت في عينيه، احتار أيحبسها أم يطلقها، ربما تسري عنه، فلم تنتظر قراره، لتنطلق تحفر طريقها في وجهه، معلنة لكل من حوله عما يمر به. ينظر إلى وجوه المارة المنهكة، يتلمس نظرة اهتمام ممن حوله، فيشعر كأنما لفظه

الكون ومضى في سبيله غير عابيء به.. ينظر من جديد إلى الخاتم في راحة يده، ويتذكر كلماها التي سمعها منذ لحظات

- لقد مللت كل شيء بيننا، ولا أرى فيك الرجل الذي أتمنى أن أعيش معه بقية حياتي

يحاول أن يتكلم، فتستوقفه..

- لا تتكلم أرجوك.. فلقد اتخذت قرارا، لا رجعة فيه.. أعطيتك أكثر من فرصة، ولم أر منك جديدًا

تنحشر الكلمات في حلقه، وتتعلق عيناه بعينيها، في نظرة عتاب مملوءة بالألم.. تخلع خاتمها في سرعة، وتضعه على السور بجانبها

- اعتبر أن ما بيننا قد انتهى

قاسية كحد السيف، باردة كالجليد.. أدارت له ظهرها ورحلت، تاركة إياه ينظر تارة إليها تختفي من أمام ناظريه، وتارة إلى خاتم خطبة، كان يوما يلمع كنور الشمس. دمعة أخرى شقت طريقها على وجهه.. ينظر إلى المباني والناس والسيارات من حوله، يتمنى أن يصرخ.. أن ينفث اللهيب الذي يستعر في صدره، ليغرق العالم من حوله في النيران.. ينظر إلى ما حوله في غضب.. ألا فليحترق العالم الآن، فلقدِ لفظتني خارج حياها.

* * *

٧ أكتوبر ١٩٧٣ الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة

فى نفس اللحظه التي لامست قدم محمود الارض مترجلا من سيارة الأجرة، كانت منال تدلف إلى الشرفة، حاملة طفلها على كتفها، وكان خاتم خطبة يقع من يد عماد، يشق طريقه في الهواء إلى الأرض، تتبعه عيناه

باستهتار.. شيء ما بداخل الجميع دفعهم إلى النظر للسماء في نفس اللحظة.. هاجس غريب لم يسبق لأحدهم أن اختبر مثله في القوة.. أو ربما كان هو ذاك الوهج اللامع الذي انتشر في السماء، التي تلبدت بالغيوم منذ الصباح؟!.. انفتحت العيون عن آخرها، وتجاوزت صورة النيران التي ملأت قبة السماء صوت صفارات الإنذار، التي انطلقت من كل مكان في القاهرة.. انفغرت الأفواه، وذهلت العقول، وعش غراب هائل يلقي بظله البغيض على وسط القاهرة.. موجة هائلة من الهواء انطلقت، تكسر النوافذ، وتلهو بالبشر والسيارات كالدمى، تقذفهم في الفراغ.. كأنما أبواب الجحيم انفتحت، اتسعت دائرة من نار في السماء، تتضاعف كل ثانية، تنفث اللهيب على الأرض من تحتها.

تحتضن منال رضيعها، وكأنما تريد أن تحتويه بداخلها، وعيناها معلقتان بالعمارات تتساقط في تتابع، وتقذف الأحجار في كل اتجاه.. يرتفع جسد محمود في الهواء، ويشعر كأنما يدين عملاقتين تضغطان جسده بينهما، تسحقان كل عظامه.. حرارة تتزايد في سرعة رهيبة، يستشعرها عماد، بينما انفغر فاه في غير تصديق لما يحدث.. صرخات تنسحق بداخل حناجر أصحابها، بينما لحومهم تذوب من على عظامهم.. عش الغراب الهائل يتسع، ويملأ السماء.. أحدهم ينطق بالشهادة، ينسحق جسده قبل أن يكملها.. يرفع الرئيس عينيه، بينما كان في حديقة قصر الرئاسة، يرى الهول القادم نحوه.. يغمض عينيه في بطء، وتنزل من عينيه دمعة، تبخرت قبل أن تفارقهما.. دقيقة كاملة، ساد فيها صوت الدمار، ليسود من بعدها صمت الموت إلى الأبد.

* * *

١١ أكتوبر ١٩٧٣ التاسعة مساءً

زفر نور في قوة، في جلسته المعتادة على المقهى، أمام بحر الإسكندرية.. نظر من حوله إلى الجالسين، الذين خيم الصمت على معظمهم.. حوّل عينيه إلى الشارع، الذي خلا من المارة، على غير العادة.. تئن معدته من الجوع، فهو يواصل الصوم منذ يوم الكارثة، ولا يأكل إلا ما يقيم أوده.. ومن يستطيع الأكل أو حتى الكلام في ظل كارثة كهذه؟!..

انخرس الساسة، والقادة، وذابت ألسنة الشيوعيين والماركسيين والثوريين والناصريين.. تلهج ألسنة رجال الدين بالدعاء والابتهال طوال الوقت.. انكسرت الأعناق، وذابت الفوارق، فالكل مصيبته واحدة. حتى مدعو الفهم والثقافة، تواروا في بيوتهم لا يتكلمون.. الراديو لا يبث سوى أخبار الكارثة مرارًا وتكرارًا.. مظاهرات هنا، واعتصامات هناك.. دول تشجب وأخرى تدين وصمت مطبق من كل الآخرين.. كل من كنا نظنهم أصدقاء أوفياء.. يمر الصبي الذي يبيع الجرائد صامتا وسط الناس، فلا يوقفه أحدهم، فكلهم يعلمون فحوى الأخبار التي يبيعها.. يخرج أحدهم نقودًا من جيبه، يضعها في يد الصبي، ويسحب منه جريدة، دون أن تتلاقى أعينهما، ودون أدنى صوت.. حالة من الخرس أصابت الجميع، لا صوت سوى صوت الأمواج تضرب المصدات، تتكسر عليها..

غضب عارم يتعاظم في نفس نور، ليقف في حده صارخًا بأعلى صوته

- وماذا بعد؟

تتجه إليه كل العيون في ذهول وتساؤل، ليكمل:

- أسنقف هاهنا في أماكننا بلا حراك؟

- وماذا نستطيع أن نفعل؟

يرد عليه أحدهم

- أي شيء.. نفعل أي شيء أفضل من جلستنا هنا

- ألا تفهم بعد؟ لقد انتهى كل شيء.. نحن لسنا سوى فئران عاجزة، تدور في المصيدة تنتظر مصيرها في أي لحظة

- نموت إذًا دون ان يكون لنا حتى الحق في الصراخ؟.. لا لن ....

قاطعه المذيع في الراديو، يعلن عن بيان عاجل، ليسكت الجميع مصغين باهتمام

"بيان عاجل: في ظل تلك الظروف العصيبة، التي تمر بها الأمة المصرية، تقرر إقامة مجلس قيادة عسكري وطني، للمرور بالبلاد من هذه الأزمة.. يرأس وزير الدفاع الحالي المجلس العسكري، ممثلًا له، لا ينفرد بقراره.. هذا وقد أصدر المجلس، برأي الأغلبية، قراره الأول"

ارتجفت القلوب للحظات، قبل أن يكتمل البيان

"قرار رقم واحد: بشأن المبادرة الأمريكية، التي دعا لها الرئيس الأمريكي، والتي تتعلق بالتزام الجانب المصري باتفاقية استسلام مشروط مع الجانب الإسرائيلي، والتي انطلقت يوم الثامن من أكتوبر.. فبعد الدراسة المتأنية، والتزامًا منا بمسئوليتنا تجاه أرواح الملايين، فقد أقر المجلس بموافقة الأغلبية من أعضائه استعداده لتوقيع الاتفاقية، حفاظًا منا على مقدرات هذا الوطن، والله الموفق"

* * *

١٥ أكتوبر ١٩٧٣ الثالثة عصرًا

سرت بعض الهمهمات في الكنيست الإسرائيلي، بينما يدخل أعضاء المجلس العسكري المصري، يقودهم وزير الدفاع، إلى القاعة الواسعة التي امتلأت عن آخرها. نظرة انكسار علت جميع الوجوه، وظهر التردد على ملامح البعض، قبل أن يتخذ الجميع أماكنهم في أول صف أمام ديان، الذي وقف منتفشًا على المنصة، وسرت ابتسامة تشفٍ في وجهه لثانية، قبل أن يسترجع نظرة الصرامة من جديد. كأنما هو قاض في محكمة، على وشك إصدار حكم بالإعدام على خصم عتيد له، يجول بعينه الوحيدة بين أعضاء المجلس المصري، قبل أن يبدأ كلامه..

- لا نطمح إلا للسلام، ولا نبغي سواه.. لكن هيهات أن تحظى بالسلام وسط هذا العالم الذي امتلأ بالكراهية لنا ولجنسنا.. لا نبغي سوى تأمين أنفسنا وأولادنا ومواطنينا.. لا نريد سوى الأفضل للجميع.

ارتج المكان بالتصفيق، ليكمل في زهو:

- ما دخلنا سيناء إلا لتأمين حدودنا من الهجمات الإرهابية على موطننا.. موطننا الذي خرجنا منه قديمًا، ورجعنا له الآن، ننشر العلم والنور والسلام لكل من حولنا.. لسنا بمتوحشين ولا برابرة نعشق الدماء، وما ضربنا أبدًا سوى دفاعًا عن أنفسنا. ودعونا قبل أن نبدأ، نقف صامتين لمدة دقيقة، حدادًا على أرواح شهدائنا، واحترامًا منا لروح الإنسان ومن ماتوا على الجانب المصري.

وقف الجميع على أقدامهم لدقيقة كاملة، انكسرت فيها نظرات مصر، وعلت الشماتة نظرات الآخرين، ليكمل ديان بعد جلوس الجميع..

- أشكركم جميعًا.. نجتمع اليوم لنوقع اتفاقية سلام بيننا والجانب المصري.. يلتزم فيها المصريين بالآتي:

١- بموجب هذه الاتفاقية، يعلن الجانب المصري استسلامه لدولة إسرائيل

٢- يقع القطر المصري تحت حكم مشترك من حكومة مشكلة من الطرفين

٣- يحظر على المصريين شغل مناصب وزير الدفاع، وزير الداخلية، وزير الإعلام، وزير التعليم، ورئيس الوزراء

٤- تقع مصر تحت الحماية الإسرائيلية، ويتم نشر قوات إسرائيلية للمساعدة في تأمين الدولة حسب الحالة الأمنية

٥- ....

توالت البنود المهينة، تنطلق كالرصاصات من ديان، تخترق صدور مجلس مصر، لينهي كلامه برسالة وجهها إليهم، بنظرة امتلأت بكل شرور الدنيا، كنظرة ذئب على وشك التهام فريسته

- نحن لا نريد احتلال بلادكم.. جل ما نريد هو تأمين أنفسنا.

* * *

٢٥ يناير ٢٠١١ الواحدة صباحًا

"حظر التجول يبدأ الليلة في الساعة الثانية عشرة صباحًا، وينتهي عند السادسة صباح الغد، ومن يخالف ذلك يتعرض للاعتقال الفوري"

تردد صدى الجملة الأخيرة في شوارع الأسكندرية الخالية، من ميكروفونات وحدة البث الحكومي، التي لا يخلو شارع رئيسي من أحدها، وتم إقرارها من وزير الداخلية شيمون باراك، بعد القضاء على حركة المقاومة القومية في منتصف الثمانينات، لإذاعة البيانات الحكومية اليومية على المواطنين. هدأت الأصوات في المنازل التي لاتزال مستيقظة، في هذا الوقت من فصل الشتاء البارد، واستمع الجميع إلى البيان، لتعلو أصوات التلفازات والمحاورات مرة أخرى من بعد البيان.. صوت رنين التليفون في بيت سامح، هو الوحيد الذي قاطع البيان في منتصفه، لينتفض جسد سامح في قوة لدى سماعه، ويقفز ليمسك بالسماعه قائلًا في اقتضاب بلهجة عسكرية صارمة:

– ما الأمر؟

توقف للحظات منصتا في اهتمام، وهز رأسه قائلًا..

– حسنا، سأكون جاهزًا خلال دقائق.. ابعث عربة الشرطة لتقلني

٢٥ يناير ٢٠١١ الواحدة والنصف صباحًا

بخطوات سريعة، دلف سامح إلى مبنى الأمن القومي، وتخطى الحراسة في سرعة، بعد أن أشهر بطاقة تعريفه، التي فتحت له كل الأبواب، ليتوقف امام ذلك المكتب الضخم، ويسأل الجالس خلفه

– ما الأمر؟

مط الرجل شفتيه في ملل، وتكلم بلهجة تقريرية..

– هجمه فاشلة على مركز البث الرئيسي غرب الاسكندرية.. خمسة مهاجمين بأسلحة نصف آلية وقنبلة يدوية.. مجند قتل، وآخر مصاب

بجراح متوسطة، من حراس مركز البث. أربعة من المهاجمين دخلوا المركز إلى الغرفة الرئيسية، والخامس تأخر في الدخول للتأمين.. انغلقت عليهم الأبواب تلقائيًا، بعد أن أطلقوا الإنذار الصامت، وظل الخامس بالخارج يحاول الدخول.. الغاز السام يقتل المحتجزين بالداخل كالعادة.. ووحدة الطوارىء لم تبذل جهدًا يذكر مع الرجل بالخارج، وقبضوا عليه بلا إصابات، سوى بعض الكدمات البسيطة التي أهداها له بعض المتحمسين من الضباط

- وماذا وجدتم مع الرجل؟

- لا شيء ذو قيمة .. لا شيء سوى قلادة، كان يعلقها على رقبته على شكل قلب

- هل عرفنا بياناته؟

- لا توجد معه أوراق، لكني أخذت عينة من حمضه النووي، وأرسلتها إلى المعمل منذ ساعة، لربما كانت بياناته عندنا

قاطعه صوت أزيز صدر من الكمبيوتر أمامه، لينظر إلى الشاشة للحظات، ويكمل بنفس الطريقة الرتيبة..

- لقد توصلنا إلى بياناته

أدار الشاشة في اتجاه سامح، كي يطلع على ملفه، فأغمض سامح عينيه في إرهاق وقال:

- ألا تراني يقتلني الإرهاق.. قل لي المعلومات المفيدة يا رجل

أدار الرجل الشاشة نحوه مرة أخرى

– حسنًا.. اسمه صابر.. طبيب.. ملتزم.. وحيد بلا أخوة.. أربع وثلاثون سنة.. سجله نظيف.. بعض أمراض الأسنان.. لا بيانات عنه منذ ثلاث سنوات

– وحالته الاجتماعية؟

– أرمل.. انتحرت زوجته منذ ثلاث سنوات ونصف، ولا أولاد.. ست شهور بعدها واختفى هو الآخر

– وأين هو الآن؟

– يجلس في غرفة الاستجواب في انتظارك

– حسنًا، أنا ذاهب إليه

* * *

٢٥ يناير ٢٠١١ الواحدة وأربعون دقيقة صباحًا

بينما ملأت وجهه الكدمات، جلس صابر المقيد لمقعده في غرفة التحقيقات، مغمضًا عينيه، وابتسامة واسعة تملأ وجهه، وحتى صوت فتح باب الغرفة، الذي تعمد سامح أن يجعله أعلى ما يمكن، بضربه الباب في طريق دخوله، حتى يثير الرهبة –كما تعود– في قلوب المتهمين، لم يغير من وضعيته أو اتساع ابتسامته.. نظرة حادة طويلة من سامح إليه، تتفحصه مليًا، استمرت لدقيقة، لم يغير فيها صابر وضعه، كأنما هو تمثال من حجر. دار حوله سامح مرتين، قبل أن يفرقع بأصابعه، ليفتح عينيه أو يتحرك، فلم يفلح ذلك.. ضرب مقعده بقدمه، فلم ينجح أيضًا، ليدوي من بعدها صوت لطمة نزلت على وجه صابر، ارتج لها وجهه، وفقد ابتسامته

للحظات، فتح فيها عينيه ببطء، ليجد أمامه سامح محمر العينين، ينظر له في شر قائلًا:

- أظن أن هذه اللطمه أزالت عنك ابتسامتك الحمقاء

نظر له صابر للحظات في برود، لتتسع ابتسامته من جديد، لتترل يد سامح على وجهه تزلزله مرة أخرى

- الأولى لم تكن بالقوة الكافية لتزيل ابتسامتك؟.. ما رأيك الآن؟

نظرة أخرى بلا معان من صابر، نبتت بعدها ابتسامته من جديد..

- حسنًا، أنا أفهمك.. أفهمك وأفهم نوعك جيدًا.. تريد أن تظهر أمام الناس أنك لا تخاف.. شجاعا مغوارا تتبسم في وجه الموت

قرّب سامح وجهه إلى عيون صابر وأكمل

- ولكنك ضعيف من داخلك.. هش بلا عظام حقيقية، وتعلم تمامًا أني أستطيع سحقك وقتما أشاء

ابتعد عنه سامح من جديد، ودار من حوله وهو يقول

- ولكني أشفق عليك.. أشفق عليك إذ تحاول التلاعب بآخر أمل لك في الحياة.. أنا.. آتي إلى هنا من بيتي، وأضحي براحتي من أجل مساعدتك، وعلام أحصل؟

لطمة جديدة على وجه صابر...

- أحصل على مغرور أحمق، يحاول إغاظتي بابتسامة حمقاء، لا يمسحها عن وجهه، المليء بعلامات مازالت طازجه لأحذية من هم يحافظون على الأمن من أمثاله

جلس أمامه على الجانب الآخر للطاولة..

- ولكن كفانا من هذا، ولنبدأ ما جئت من أجله.. التحقيق.. اسمك؟

ظل صابر على نفس حالته..

- حسنا، أنا أعلم إجابة هذا السؤال.. صابر، أليس كذلك؟

توقف سامح للحظة، ليقرأ رد الفعل على وجه صابر، فلم يجد شيئًا، فاستطرد

- لا تتعجب.. فنحن كما لا تعلم، نعلم كل شيء.. أنا أعلم اسمك.. وظيفتك.. سنك.. آلام أسنانك، حتى امرأتك المنتحرة، أعلم كل شيء عنها هي الأخرى

رجفة سريعة سرت في شفة صابر، لم يلحظها سامح، بينما انطلق عقل صابر يسبح وسط الذكريات.

* * *

١١ يونيو ٢٠٠٧ الحادية عشر وخمسون دقيقة مساء

- صابر أين ذهبت؟

قالتها أمل زوجة صابر، بينما كان يقود سيارته وهي بجانبه، متجهين إلى البيت

- ماذا تقولين؟

- أين ذهبت بعقلك يا حبيبي.. إنني أكلمك منذ ربع الساعة، ويبدو أنك لا تسمعني

- سرحت بمخيلتي

- فيم؟

- كنت أفكر في حالنا وحال بلادنا.. كنت أفكر ماذا لو كان الفوز من نصيبنا في نكسة أكتوبر.. ماذا لو لم ترم علينا إسرائيل صواريخها ودمارها.. ماذا لو كانت بلادنا لنا، نزرع فنأكل ونبني فنسكن.. خيراتها لمواطنيها، بلا خوف أو سلاح أو حظر تجوال.

- لا تشغل بالك بتلك الأمور، فقد ولى زمن الحرب منذ وقت طويل

- هذا هو ما يريدوننا أن نفكر فيه بالضبط.. يريدون أن نتخلى عن حلمنا في استقلالنا وخروجنا من تحت طوعهم.. يريدون ألا نفكر سوى في اليوم، ولا ننظر -ولو خلسة- إلى المستقبل

- لم لا تؤجل أفكارك الآن، وتسرع إلى البيت، فحظر التجوال سيبدأ عما قريب

- لا تقلقي، فالبيت على بعد دقيقتين من هنا

لم يكمل كلماته، إلا وانشقت الأرض عن سيارة دورية الأمن تمر بجانبهما بسرعة البرق، وصوت أبواقها ينبئهم أن يقفوا على جانب الطريق. لحظات، وكان ضابطا الدورية الإسرائيليان يقفان بجانب شباك سيارته

- أوراقك

- سيدي، هل لي أن أعرف ماذا اقترفنا؟

- أوراقك أولا

ناوله صابر الأوراق في هدوء، ليتفحصها الضابط في سرعه ويكمل

- ما الذي جعلك تخرق حظر التجوال؟

- سيدي، حظر التجوال لم يبدأ بعد، إنه يبدأ بعد خمس دقائق

- صحيح.. أنت على حق.. ترجل من السياره أنت ومن معك

- سيدي ...

- بلا مناقشة

لم يجد صابر بدًا من الترجل هو وزوجته، والوقوف بجانب السيارة. وقعت عين الضابط على أمل، فتفحصها مليا وقال:

- من الجميلة التي معك؟

ظهر الغضب واضحا في صوت صابر:

- إنها زوجتي؛ ومن فضلك تكلم معي

ابتسامة اتسعت على وجه الضابط وقال

- أنت على حق.. قف ووجهك إلى السيارة، وهي كذلك

فعل صابر كما أمر، ليقف الضابط بجانبه مسترخيًا ولا يتحرك، فقال:

- لقد فعلنا ما قلت.. ألن تفتشنا؟

- ولا كلمة

خمس دقائق مرت على هذا الوضع، والقلق يتزايد بداخل صابر، لينظر بعدها الضابط إلى ساعته قائلًا:

- والآن، ما الذي جعلك تخرق حظر التجوال؟

- ولكني لم أفعل

- انظر إلى ساعتك.. لقد بدأ الحظر منذ دقيقتين، وأنت في الشارع مع الجميله، إذًا فأنت تخالف القانون

نظر الضابط إلى زميله، الذي وقف وراء صابر، وغمز له بعينه قائلًا:

- أليس كذلك؟

لم يرد زميله، بل نزلت هراوته على كتف صابر، لتوقعه أرضًا، وتتوالى عليه الضربات من بعدها، ليكمل الضابط

- والآن لنقم بتفتيش الجميلة

* * *

١١ يونيو ٢٠٠٧ الواحده الا الربع صباحًا

بينما تئن كل عظمة في جسده، دس صابر المفتاح في باب شقته، تتبعه أمل، التي ارتسم الذهول على ملامحها، وحفرت دمعتان طريقهما على وجهها. يدخل وهو يئن بصوت خفيض، ويرمي بجسده على أول كرسي أمامه.. يتحاشى النظر إليها، وتتحاشى النظر إليه.. صمت دام لخمس دقائق، قطعه بأن تكلم بصوت مبحوح..

- لابد أن نتقدم بشكوى

كأنما كانت تنتظر ذلك.. انفجرت أمل في الدموع..

- أي شكوى هذه؟!.. أتريد أن تذهب إليهم قائلًا: لقد خرقنا حظر التجوال فأوقفونا

انفجرت كل مشاعر الغضب في داخل صابر، ولم يجد إلا أمل لتتلقى غضبه..

- إذًا ماذا تقترحين فعله؟.. أنسكت؟

- نسكت مثل كل الساكتين

تركته، وانطلقت تجري إلى غرفتها، فانطلق وراءها..

- حبيبتي.. أنا آسف لأني صحت بك.. أنا أعلم ما تشعرين به

- لا، لا تعلم شيئًا.. أنت لا تعلم ما شعرت به، حين لامست يداه جسدي.. حين سمعت لهاثه قرب أذني.. كأنما ديدان تتحرك تحت جلدي، أستشعرها إلى الآن.. أشم رائحته النتنة في كل شيء.. لن تفهم أبدًا معنى الانتهاك إلا حين تتعرض له

تماسكت بصعوبة وأكملت..

- دعنا ننسى كما يفعل غيرنا.. دعنا نعيش

* * *

١٨ يونيو ٢٠٠٧ الواحدة ظهرًا

جلس صابر يحدق في الفراغ، بعد أسبوع مما حدث.. يفكر ويسترجع كل ما حدث مرات ومرات ومرات.. يشفق على امرأته مما هي فيه، ويشفق على كل من سبقه إلى هذا، ومن سيليه.. يتفكر في حال أمل، التي هزلت وضعفت وعافت الحياة.. يسمع جلبة في الداخل، فيسرع ليرى ما هنالك، فيرى المنظر الذي حلم به كل ليلة من بعدها في حياته.. امرأته ترتمي على الأرض، والدماء تقطر من معصمها في غزارة، وشفرة حادة

ملقاة بجانبها، لابد أنها استخدمتها لقطع شرايينها.. تمتلىء الأرض ببركة من دمائها، وتغرق كل الموجودات من حولها.. يضغط بيديه محاولًا إيقاف النزيف، ولكنه طبيب، ويعلم مما رآه أنها قد فقدت بالفعل ما يكفي من الدماء لتقضي نحبها.. ينتحب بجانبها مناديًا اسمها.. تفتح عينيها بصعوبة، لتراه للمرة الأخيرة، وتقول بصوت هامس:

- ما عشنا أذلة إلا لأنا ارتضينا حياة الذل لأنفسنا

* * *

٢٥ يناير ٢٠١١ الثانية صباحًا

- للمرة الثالثة أسألك.. ماذا كان هدف عمليتكم في مركز البث؟

قالها سامح في حنق، وصابر لازال يجلس أمامه بابتسامة واسعة، ولا يتكلم

- أوتعلم.. أوقات كثيرة لا أفهمكم.. حركات المقاومة، أو أيا كان ما تسمون أنفسكم.. الحقيقة أنا لا أرى هدفًا لما تفعلون.. أفيقوا، لقد انتهت الحرب منذ أمد بعيد، وكل ما نريد هو أن نعيش بسلام، دون الحثالة من أمثالكم تهددون حيواتنا وأمننا

اتسعت ابتسامة صابر، فأكمل سامح:

- نعم أمننا، وأمن دولتنا، وأمن إسرائيل جارتنا.. كل ما يريدون هو الأمان من ناحيتنا، ويتركوننا وشأننا.. ولكن يأتي أمثالك، لينقضوا على المنشآت والناس كالكلاب المسعورة، ويحولوا بين استقلالنا وأماننا أكثر وأكثر .. تظنون أنكم تخدموننا، ولكنكم بغبائكم تبعدوننا عن هدفنا، كلما اقتربنا منه سلميًا

زفر زفرة طويلة..

- والآن، للمرة الرابعة.. ما هدف هجومكم؟

عندما لم يجد ردًا هذه المرة، زاد غضبه، فوقف على قدميه صائحًا

- أنا هنا لمساعدتك أيها المعتوه.. أمر إعدامك يتم توقيعه الآن، وسيتم تنفيذه بعد ساعات.. أنت لا تهمهم في شيء، ولكن إذا تعاونت معي، سأحاول جاهدًا تحويل الحكم إلى السجن، ربما إذا أعطيتني معلومات قيمة، أجعلهم يطلقون سراحك لتعاونك.. ساعدني لأساعدك

أغمض صابر عينيه، محافظًا على ابتسامته، ليهز سامح رأسه قائلًا:

- حسنا، إنه اختيارك.. إنها رقبتك أنت، كما يقال

تحرك سامح ململمًا أوراقه، متجها ناحية الباب، ليقاطعه صوت صابر، الذي سمعه لأول مرة..

- إذا كنت تريد الفهم حقًا، فاستمع إلى الرسالة

استوقفته الجملة، ظانًا أنها بداية الكلام، فسأله:

- وأين هذه الرسالة؟

ليعود صابر إلى حالته الأولى، مغلقًا عينيه، فيتطلع إليه سامح طويلا، ثم يترك الغرفة.

* * *

٢٥ يناير ٢٠١١ الثانية والنصف صباحًا

اندفع سامح بسرعة إلى غرفة الأدلة والمحفوظات، ليكلم الموظف الساهر بالداخل، يتابع مباراة كرة القدم المسجلة قائلًا:

- أريد كل ما تحفظتم عليه في الاعتداء على مركز البث

- ولكن.. الآن؟

رد عليه سامح في نفاد صبر:

- نعم، الآن

هز الرجل كتفيه، واختفى لثوانٍ، ليحضر كيسًا صغيرًا، ويعطيه إليه قائلًا:

- لا شيء سوى الأسلحة، وتلك القلادة بين يديك، التي كان يرتديها الرجل الذي ظل على قيد الحياة.. زوجتي عندها مثلها، ورثتها عن جدها.. هذا القلب ينفتح و...

- لحظة، هذا الشيء ينفتح؟

لم يكمل كلمته، أخرج القلادة وحاول فتحها، لتنفتح على صورة لسيدة في جانب القلادة الأيمن، خمن أنها لزوجة صابر الميتة، وشريحة بيانات صغيرة في النصف الأيسر، ليخرجها بين أطراف أصابعه قائلًا:

- لربما كانت هذه هي الرسالة!

أعاد القلادة إلى الرجل، واضعًا الشريحة في جيبه قائلًا:

- سآخذ هذه الشريحة معي لأستمع إليها في البيت، لربما ساعدتني في تقريري

* * *

٢٥ يناير ٢٠١١ الرابعة صباحًا

بينما جلس سامح أمام الكمبيوتر، وقام بتشغيل الملف الصوتي بالشريحة، الذي حمل صوت صابر.. كانت أصوات خطوات أربعة حراس أشداء، تضرب أرض الممر الواصل إلى غرفة التحقيق، التي يجلس بها صابر مغمضًا عينيه، والذي -حين سمع أصوات خطواتهم- قال في نفسه "ها قد حان الوقت"

"ما عشنا أذلة، إلا لأننا ارتضينا حياة الذل لأنفسنا"

يحملون صابر من ذراعيه، ليقف على قدميه، والابتسامة لا تفارق وجهه كعادته، ويدفعونه إلى الخارج..

"وما كان لنا أن نستعبد في بلادنا، إلا لأننا قبلنا أن نعيش كالعبيد.. نزرع ليأكل غيرنا، ونصنع، ولا نستفيد مما صنعنا"

يتحركون به في الممرات، حتى يصل إلى باب كبير، انفتح على خلاء كبير، نصب في وسطه عمود حديدي..

"دائما ما أفكر، ماذا لو كانت لنا الغلبة في الحرب؟.. ماذا لو عبرنا وصنعنا المستحيل؟"

يربطونه إلى العمود الضخم، ويأتي أكبرهم رتبة، ليقرأ عليه أمر الإعدام في عجالة..

"لربما لم نكن لنصبح أعظم وأكبر الأمم، ولكن أقله، كنا احتفظنا بالحق في اتخاذ قراراتنا.. كنا احتفظنا بتاريخنا وصحة أولادنا.. كنا احتفظنا بأخلاقنا وقيمنا"

يقف أربعة مسلحين قبالته، يحملون بنادقهم في وضع الاستعداد..

"لربما، وربما، وربما الكثير، ولكن ما تعلمته من التاريخ أن الخيال والحلم لا يكفي لصنع الحاضر والمستقبل، بل يجب أن تصحبه الإرادة.. إرادة التغيير"

يقف أكبر الضباط رتبة قائلًا بأعلى صوته:

- استعد

"كلنا وجد في الحياة، لكي يصنع االتغيير، أيا كان حجمه. وإني إذا مت الآن، فرسالتي إليكم ألا تجعلوا الحلم يموت بداخلكم.. علموا أولادكم من هو العدو الحقيقي لهم.. أطلعوهم على هويتهم، وأحيوا الأمل بداخلهم"

- صوب

"علموهم معنى الوطن، ومعنى الحرية.. علموهم فوائد الوحدة وشر الفرقة.. علموهم كيف يحبون ويعشقون كلمة واحدة"

يغمض صابر عينيه في هدوء.. يستنشق هواء الفجر الوليد.. يفتح عينيه، فيرى الشمس تلقي بضوئها على الحياو.. تتسع ابتسامته قائلًا:

- أنا قادم إلى البيت حبيبتي

"علموهم أن يحبوا مصر"

- أطلق النار

"تحيا مصر"

جوهار صقلي

(المركز الثالث مناصفة)

مصطفى سيف الدين



إهداء

إلى كل من يلقون حجر النرد دون وعي

إلى أصحاب القمصان السود الجدد

إلى كل أصحاب النوايا الحسنة الذين هم في الأساس قنابل موقوتة

أهديكم تلك الرواية.... لعلكم تعقلون

أبريل ١٩٣٤

قبض على حجري النرد بيده، وبدأ بهزهما جيدا داخل قبضته، وهو يستمع إلى مانياني يقول له:

- هذه المرة يا ماركو لن تنجو أبدا، فاحتمال الهرب أصبح ضعيفا جدا.. أنت في مأزق حقيقي، لن ينجيك إلا جوهار

كانا يلعبان طاولة النرد، وهي لعبة غريبة في ذلك المكان (باليرمو)، لكن مانياني وأسفاره الطويلة إلى الشرق، واختلاطه بتجار عرب، جعله يتعلم تلك اللعبة جيدا ويحبها، لذا اشترى تلك الطاولة وهو يعود لمدينته، وعلمها لصديقه الصغير (ماركو)، الذي يصغره بأكثر من عشرة أعوام؛ لكن رجاحة عقله تكاد تطوي ذلك الفرق طيا.

ما زال (ماركو) يرج النرد بيديه ثم يطلقهما، قبل أن يضحك ضحكة الظافر، حين شاهد الناتج..

- شيش جوهار

باندهاش شديد كان مانياني يتابع النرد، قبل أن يهتف في صديقه:

- أنت تغش!

رمقه ماركو بتلك النظرة الساخرة، التي تنم عن أنه انتصر في تحديه الخاص، قائلا:

- كلا لست كذلك

توتر مانياني أكثر، وبدا عليه عدم التصديق وهو يقول:

- كلا، إنه غش بين.. الحظ لا يحالف شخصا طوال الوقت، ومنذ عامين وأنا ألعب معك، والحظ دوما حليفك

- لقد كدت تفعلها هذه المرة وتربح

- نعم، بل مارست خطة الضغط عليك ومحاولة شل حركتك، حتى أن القطعة الأخيرة لك، التي يسمونها خشب، كانت في مأزق، لا ينقذها إلا جوهار، وها أنت تفعلها مثل كل مرة.. بالتأكيد تغش

- حسنا، سأعيد الرمية

- أغمض عينيك، وسأعطيك النرد بعد أن أرجه أنا، وبالتأكيد لن تحدث مرة أخرى

وبالفعل، قام ماركو بتنفيذ تعليمات مانياني، وهو مغمض العينين، قابضا على النرد.. صار تركيزه فقط على شيش جوهار. وألقى النرد، وفتح عينيه على صرخات الدهشة من مانياني، فكان أمامه (جوهار)

- كيف فعلتها؟

- لا أعرف، هذه المرة لعبت بدون تركيز؛ كنت أود أن تربحني. لكن حين رأيت نظرة الظفر في عينيك وأن تحكم الكمين، الذي تقع فيه قطعيا، شيء من المنافسة غزا روحي، فجعلني أفعل كما أفعل دائما.. أركز حدسي على شيء معين، ثم حين ألقي النرد يحدث ما ركزت فيه. قد تسميه أنت

حظا، بينما أسميه أنا الحدس.. شيء ما بداخلي، بعد رج النرد مرات معينة، يقول لي ارمِهِ الآن.. شيء ما لا أعرفه

**

كان ماركو جالسا بجوار إحدى الطاولات في المقهى، ينتظر (جينا) صديقته وعشيقته، يراقب كل من حوله من المارة، الذين يرتدون تلك الملابس الفضفاضة، وتلك السراويل المنتهية بالحمالات، المنتشرة في ذلك الوقت من الثلاثينيات.. عربات الخيول هي وسيلة المواصلات الأهم، غير أن هناك بعض السيارات الضخمة تجوب شوارع باليرمو؛ ولكنها قليلة جدا.

قاطعه عن فترة تأمله (جينا) القادمة من بعيد، ترتدي قبعتها الأنيقة، وفستانها الأبيض الجذاب. كانت حقا في منتهى الأناقة، إلا أن ملامحها ومشيتها تحمل بعض الغضب!.. إنه بالتأكيد (لويجي) ذلك الكائن القميء، لا بد أنه آذاها أو تعرض لها.

جلست أمامه دون أن تتحدث، فقط مشاعر الحنق تبدو عليها، أمام نظراته المتسائلة المتعجبة، قبل أن تقول:

- يا له من شخص بغيض ذلك الـــ (لويجي) لا يكف يوما عن قطع طريقي ومضايقتي! كيف يظن أنه بتلك الطريقة سينال قلبي؟!

ارتسمت علامات التعجب على وجه ماركو، تلك العلامات الممتزجة بالخوف..

- قلبك! هل تظنين حقا أنه يريد قلبك؟ إنه يريد كل شيء فيكِ إلا قلبك

- بدون قلبي لن ينال شيئا مني، لقد صفعته اليوم حين جاء للكازينو الذي أعمل به

قال لها ماركو في هلع:

- صفعتيه!.. أمام الجميع؟
- نعم ، لكن لماذا أنت خائف؟
- لست خائفا من لويجي، بل ممن ورائه، فشخص مثل لويجي ظهرت عليه معالم الثراء فجأة، بالتأكيد وراءه من يدعمه
- هو شخص مريب بحق

قالتها، ثم لم تلبث أن ابتسمت، لتعيد للشمس نورها، الذي كاد ينحجب حين تحدثت عن لويجي، ثم قالت:

- دعك منه يا ماركو، لن نقضي أمسيتنا كلها في الحديث عن ذلك المأفون
- معكِ حق، فلنترك الأمور تسير بنا أينما تشاء، واخبريني أي عطر ساحر هذا الذي بدأ ينسم الهواء حين أتيتِ
- أوه، إنه عطر فرنسي، جلبته لي صديقتي صوفيا، حين آبت من باريس.. هل أعجبك؟
- لولا أنني تحت تأثير سحر أعظم، مصدره عيناكِ، لقلت إنه سبب نشوتي

احمر وجهها خجلا، وقالت هامسة بصوت تكاد الأذن لا تسمعه:

- كم أحبك يا ماركو

**

دلف لويجي لذلك القصر العظيم، المشيد غرب باليرمو، والذي يحرسه رجلان ضخمان، ما إن رأيا لويجي قادما، حتى فتحا البوابة وأحدهما يقول:

- دون جيوفاني ينتظرك بالداخل، وهو عادة يكره الانتظار

امتقع وجه لويجي، فلقد تأخر عن موعده، لأنه لم يستطع أن يمنع نفسه من تجرع الخمر واحتساء بعض النظرات من الحسناء (جينا).. لكنها قد صفعته أمام الجميع من أجل ماركو، وأي صقلي يرفض الإهانة. ولويجي ليس مجرد صقلي، لذا قرر أن يلقنهما درسا.

وصل حيث يجلس دون جيوفاني في حديقة قصره الغناء، يتصفح إحدى الصحف. وما إن رأى (لويجي)، حتى وضع الصحيفة جانبا، وهتف به غاضبا:

- لماذا تأخرت؟ ألا تعرف من يكون دون جيوفاني؟ هل نسيت نفسك؟ أنت مجرد عين لنا ترينا ما يحدث بين الناس وتخبرنا به، لكن يمكننا أن نفقؤها بسهولة، فنحن نملك من العيون ما يكفي لبسط سيطرتنا على الجزيرة كلها

ارتعدت فرائس لويجي، ووضح ذلك على نبرة صوته وهو يقول برعب:

- سيدي، أنا آسف.. أنا أعلم حجمي جيدا، لكن هناك خطبا هو ما أخرني عنك

- ما هو؟

- لقد عرفت من المتسبب في قتل كارلو (صمت قليلا، كأنما أراد أن يضيف لكلماته هيبة الغموض) إنه رجل يدعى ماركو سيسليانتي

رفع دون جيوفاني حاجبيه في اندهاش مستنكرًا قائلا:

- من؟ هذه أول مرة اسمع فيها ذلك الاسم!

لوح لويجي بيده في الهواء كمن حقق انتصارا خاصا، وبدأ يتحدث كمدرس يقوم بشرح كل شيء لطلبته..

- نعم يا سيدي، هو شاب مغمور يعمل في إصلاح السفن، كان كارلو قادما، بعدما جمع الأموال من كل الحوانيت في تلك المنطقة، نظيرا لحمايتهم، ولم يبق سوى محل عمل ماركو. لم يكن صاحب الورشة موجودا، أو حتى أي من العاملين، فقد كان وقت الغداء، لذا رفض ماركو دفع الأموال من تلقاء نفسه. وبدأ الشجار بينهما، حين تلقى كارلو ضربة على رأسه، فنظر خلفه ليرى من ضربه، ليجدها (جينا) صديقة ماركو، التي أتت لتبقى معه في فترة الغداء. حين التفت كارلو نحو جينا، طعنه ماركو طعنات متتالية بالسكين، ثم حمله مع جينا، وألقياه حيث وجدناه عند كومة القمامة القريبة من الميناء

تعالت ملامح الغضب على جيوفاني وهو يصرخ:

- تافه مثل ذلك الشاب يقتل كارلو!.. لو فضح أمر ذلك الحادث، لانتهت هيبتنا وضاعت مخافة الناس منا

صاح في أحد الحراس بجواره: أريد رأس ذلك المدعو ماركو وصديقته على هذه الطاولة غدا

بينما لويجي يخفي ضحكة ساخرة شامتة

**

العمل في إصلاح السفن هو بالتأكيد عمل مرهق؛ لكن ماركو كان سعيدا، فالحظ يحيطه من كل جانب.. فاتنة مغرمة به، عمل يعشقه، حتى طاولة النرد التي علمها له مانياني .

صعد إلى داخل إحدى السفن، يحمل حقيبة فيها أدوات للتصليح، وظل يعالج بعض المسامير بمفتاحه، قبل أن يسمع صوتا أجشا في الخارج، يسأل صاحب الورشة عن مكانه. لذا كتم أنفاسه، وانتظر ما سيحدث. كان صاحب الورشة طيبا يحبه، لذا، حين استشعر التحفز من الرجل، ورأى سلاحا ناريا أسفل حلته، قرر أن يكذب فقال:

- ماركو لم يأتِ اليوم
- اعطني عنوان منزله
- حسنا

وبعد أن أعطاه العنوان، ما زال الصوت الأجش يتحدث:

- هل تعرف جينا صديقته؟
- كلا، لا أعرفها
- احفظ لسانك ولا تبلغه أنني كنت هنا، وإلا فأنت تعلم ما سيحدث لك
- بالتأكيد أعرف سنيور باستو

أصاب ماركو الذعر حين سمع اسم باستو، فهو يعرفه.. إنه يجمع الأموال من الحوانيت لمصلحة دون جيوفاني. لكن لماذا يسأل عن جينا؟.. هنا، تذكر ما فعلته جينا بـــ (لويجي) وعرف من يدعمه.

حين رحل باستو، صعد صاحب الورشة للسفينة، وقال لماركو:

- ارحل يا بني من باليرمو، ليس لك عيش هنا، ما دام رجال جيوفاني يترصدونك

- إلى أين؟

- لا أدري.. لكن يجب أن تهرب، فما رأيته على وجه باستو لا ينبيء بخير

أعطاه صاحب الورشة بعض المال، وانطلق (ماركو) إلى الكازينو حيث جينا، التي انتزعها من رسغها وغادر بها راكضا. قبل أن يصل إلى مكان آمن، بعيدا عن الأعين. وأخبرها بما حدث، ثم قفزا في أحد المراكب الصغيرة، الراحلة عن صقلية لروما .

**

كل الطرق تؤدي إلى روما.. هكذا كانوا يقولونها، ويبدو أنهم كانوا صادقين. روما العتيقة الحديثة، أرض تعشق الفن، والفن والحب مشتقّان من نفس القلب، لذا كانت التماثيل البديعة تزين الطرقات، الكابيتول يخفي لنا جمالا حقيقيا، يكمن في تحديه للزمن، كل ذلك سيكون ممتعا لهما، لولا أنهما هاربان.

- صوفيا أخبرتني أنها ستكون في روما اليوم (هكذا قالت جينا)

- هل تعرفين أين ستكون؟

- نعم، إنها تتعامل مع أزياء ريتشي، فلنبحث عنه

ومضيا يقطعان الطرق نحو أزياء ريتشي، بعد أن عرفا أين يقع، في الطريق قالت لي جينا، وهي مفعمة بالحزن:

- هل تشعر بالندم لأنك تعرفني؟ فأنا من جلبت لك كل ذلك

ارتسمت ابتسامة حانية على وجه ماركو، وتحركت أنامله لتلامس بشرها الندية، بينما يقترب أكثر نحوها، قائلا بصوت هامس:

- بل أشعر بالندم لأنني لم أهرب بكِ من قبل (فابتسمت) هذه أسعد لحظات حياتي، أن أشعر أنني فارسك، الذي يقاتل الجميع من أجلك، ولكنني أضعف من أن أكون فارسا، لذا فأنا أفر

- كلا، بل أنت فارسي الذي أجد الأمان بقربه، مهما كانت الحياة قاسية

أزال دموعها بأنامله في رقة، وأكملا طريقهما، حتى وصلا أزياء ريتشي. كانت (صوفيا) واقفة هناك، تقوم بتسليم الأزياء التي صممتها وحاكتها، قبل أن ترى صديقتها (جينا) فتهب إليها

- جينا! هنا في روما!.. ما الأمر؟

قصت جينا على صديقتها كل شيء، بينما صوفيا تربت على كتفيها.. قالت:

- لا تقلقي، سأتدبر لكما مكانا للسكنى هنا، ثم سنبحث غدا عن عمل لكما

يبدو أن حدس (ماركو) دق ناقوس الخطر، فهو لم يكن مطمئنا منذ حل بروما، لكن لا خيار لديه. إيطاليا قاسية هذه الأيام، وإن أردت الاختباء، فعليك أن تختار أكثر الأماكن ازدحاما، ولا يوجد في إيطاليا ما يضاهي روما ازدحاما.

أصحاب القمصان السود (١) في كل مكان على الطرق، لا تحتاج لحدس حتى تقرر الابتعاد عنهم، والمضي من طريق آخر؛ بينما هم لا

يكفون عن الدوران. أوقف ثلاثة منهم ماركو والفتاتين، وهم في طريقهم إلى السكن الذي ستتدبره صوفيا.. هتف قائدهم:

- أوراقكم لو سمحتم

أخرج الجميع أوراقه، بينما يتفرس القائد ملامح ماركو وجسده الطويل، قبل أن يقول:

- أنتم من صقلية، فماذا تفعلون في روما.

القلق والخوف كانا يفضحان سريرة ماركو، إلا أنه حاول أن يستجمع رباطة جأشه وهو يقول:

- صديقتنا صوفيا (وأشار ماركو اليها) كانت تحتاج بعض العون، كي تقوم بنقل بعض البضاعة التي تشتريها من هنا، لذا أتينا معها لنساعدها

نظر القائد إلى ماركو، نظرة بمعنى لا أصدقك يا هذا، قبل أن يقول:

- حسنا، فلتذهب الفتيات، وأنت تعالى معي

- إلى أين؟

- ستعرف

**

قادوه إلى مخفر الشرطة، وهناك استوقفوه على باب إحدى الغرف، بينما يستمع إلى الصرخات، التي جعلته يشاركها وجدانيا بداخله، فيصرخ في نفسه: لماذا؟!

لماذا المدة الزمنية للسعادة لا تتعدى لحظات، ويعكر صفوها الآخرون؟.. إلى متى حبيبتي لن أستطيع أن أحملك على حصاني وأطير؟..

هناك داخل الغرفة، حيث يجلس أحدهم بملابسه الرسمية، خلف أحد المكاتب، وما إن رآه حتى أعاد النظر لأوراقه، وقال بصوت عال:

- ماركو سيسليانتي، عامل إصلاح سفن، من باليرمو... اممممم، هل أديت الخدمة العسكرية؟

(١) أصحاب القمصان السود: أتباع موسوليني لم يكن لهم أي تواجد أثناء الحرب العالمية الأولى، وفجأة ظهروا بعشرات الآلاف من المضللين، الذين يحملون هوية الحزب الفاشي، وينعمون بامتيازاته، وسط أوضاع سياسية واقتصادية متردية، فتحولت الاشتراكية إلى فاشية، واستطاع موسوليني أن يجعل حزبه بديلا للدولة، التي لم يعد لها وجود، وقام بحملة ديماغوجية، استطاع بها إشباع غرائز التعصب لدى العاطلين وفلول العصابات السابقين، ليملأ الفراغ السياسي والروحي، المأزوم بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى

تلعثم ماركو ولم يجب، فأكمل الضابط:

- ألا تعلم أن موسوليني قد جعل التجنيد إلزاميا؟.. ابتسم يا صديقي، أنت الآن فرد في الجيش الإيطالي العظيم

**

- خذوا نفسا عميقا، واشحذوا كل هممكم من أجل إصابة الهدف. وحين تكونوا جاهزين، أطلقوا رصاصاتكم. هيا يا حملة لواء إمبراطوريتنا العظيمة، يا أحفاد أوكتافيوس.. أمجادنا تناديكم، واعلموا أن من ستصيب كل طلقاته الهدف، سيحصل على إجازة لمدة أربعة وعشرين ساعة

كانت هذه الكلمات لقائد التدريب، وهو يحثهم على إصابة الأهداف. لكن حين قال كلمة إجازة، أصابته ارتعاشة، تلك كانت كلمة السر التي

انتظرها، كي يلملم كل قواه ويشحذ كل همته.. هناك فرصة أن يخرج ويطمئن على جينا. شهر كامل وهو بعيد عن عينيها، التي هي منبع لحياته. شهر من الطوابير اليومية التي لا تنتهي، والأحكام العسكرية التي لا تنقضي، والنظام الصارم الذي لا يرحم. لذا كانت رغبته في الإجازة كفيلة بأن يصوب بدقة متناهية، كأنه يرى الهدف الذي على مسافة مائة متر منه كأنه على بعد متر واحد. هكذا هي عين جينا، تقرب المسافات البعيدة .

توالت طلقاته، لتصيب الهدف تماما، بينما قائد التدريب مصاب بالذهول وهو يراقبه، ثم طلب منه الحضور إلى مكتبه.

**

في خطى متسارعة، هرع ماركو إلى قائده، ممنيا نفسه بجائزته. وما إن دلف إلى الغرفة، حتى قال له القائد:

- احسنت يا ماركو.. لا أدري كيف فعلتها، لكن كي تصيب جميع الطلقات الأهداف، ذلك يحتاج لتدريب طويل، وليس مجرد شهر.. ربما كنت عضوا في المافيا، أو أنك....

- سيدي، أنا عامل إصلاح سفن، وما إصابتي للهدف غير أني أنفذ تعليماتك بدقة، وعشقي لبلدي وأمانيّ في أن تصير أعظم الإمبراطوريات هو دافعي

نظر إلية القائد نظرة غير المصدق لكل ما يقوله؛ لكنه قال:

- حسنا، سأحاول أن أصدقك، لذا سأمنحك الإجازة التي وعدتك بها. ليست كمكافأة، ولكن كي تعد نفسك للالتحاق بفرقة جلوريا، التي ستغادر هذا الأسبوع إلى والوال

- والوال؟!

- نعم، إنها واحة في أوغادين بأثيوبيا، حيث شيدنا هناك حصنا؛ لكن قوة أثيوبية تعد بألف جندي، طلبوا من حاميتنا، التي هي جنود صوماليون، الانسحاب. ولما رفض قائد الحامية الانسحاب، وأبلغ القيادة في أواردر، التي تبعد عنه عشرين كيلو مترا، حدثت الاشتباكات. لذا، فنحن نعزز موقفنا هناك، ونحشد الجنود.. يبدو أنك لا تتابع الأخبار أبدا (٢)

(٢) حقيقة

- و لكن يا سيدي، أنا....

- انتهى الحديث أيها الجندي، فلتذهب

**

طرقات روما، من جديد، تحمل الكثير من الغموض والحيرة.. فماركو لا يعرف أين قد تكون جينا!.. هل استطاع رجال جيوفاني الوصول إليها، أم أنها ما زالت مختبئة في تلك المدينة الكبيرة المزد.... ، مزدحمة؟

كلا، ليست كذلك.. لا يوجد آدمي في الشوارع، أين اختفى البشر؟.. غير مهم بالنسبة له؛ كل ما يملك تفكيره الآن هي، سيبدأ البحث عن أزياء ريتشي، ربما عرفوا أين صوفيا، ومن صوفيا يصل لمعشوقته.

قدماه ما زالتا تحملانه في المدينة المهجورة من الناس تماما، إلا بعض أصحاب القمصان السود غير الودودين بالمرة، لكنهم لم يستوقفوه؛ ربما لزيه العسكري. وجد المحل مغلقا، كسائر حوانيت المدينة. سمع نداء هامسا له، ينبعث من خلف أحد أبواب البيوت بجواره.. كان يقول:

- أنت يا هذا ماذا تريد؟

اقترب من مصدر الصوت، وجده رجلا أشيبا فقال له:

- أزياء ريتشي، لماذا هي مغلقة اليوم؟

- أنت لا تعرف حقا؟ كل أمر غريب في روما يحدث هذه الأيام معلوم مصدره، موسوليني أصدر أمرا، بمناسبة المباراة النهائية في كاس العالم بين إيطاليا وتشيكوسلوفاكيا، التي ستقام اليوم في ملعب الحزب الفاشي، ينص على أنه يجب على الجميع الذهاب إلى الاستاد، ومؤازرة منتخبنا العظيم، وتوعد كل من سيجده في الطرقات أثناء المباراة.

- ألهذه الدرجة هو يهتم بالرياضة؟

- كلا، ولكنه يريد أن يضيف الكأس إلى أمجاده، حتى يثبت للجميع أن عصره أفضل العصور، وهذه الكأس ليست عادية، فانتصاره فيها يعني انتصارا على جميع دول العالم

- هل ستعود الحوانيت للعمل بعد انتهاء المباراة؟

- لا أظن، فلو ربحنا ستعلق الزينات وتقام الأفراح، ولو خسرنا فلن يأمن رجل في روما بطشة وغضبة موسوليني

- إذا لن أصل لجينا اليوم.

يا له من حظ عثر بالنسبة له، فكر في طاولة النرد، وكيف كان يرمي نرده ليحقق ما يريد، لكن الآن، حتى يوم إجازته التي حصل عليها بعد جهد جهيد، أقيمت فيه مباراة لكرة القدم، تلك الكرة التي تنتقل من قدم إلى قدم من صقلية لروما ثم والوال.. ترى ماذا تخبىء لك الأقدام أيضا يا ماركو؟!

**

وقف منتصبا حين رآه، ثم لم يلبث أن أدى التحية العسكرية له حين دخل إلى مكتبه، ذلك هو القائد أريجو بينتو، قائد الفرقة جلوريا. كان أريجو يتفحص أوراقه قبل أن يهتف:

- عامل إصلاح سفن، ماذا يفعل في فرقة مشاة؟ لماذا لم يلحقوك بسلاح البحرية؟

- لا علم لي يا سيدي

- أنا أعرف، فالقائمين على توزيع القوات لا يعلمون شيئا عما يفعلونه، أرى في الأوراق أن قائد التدريب يثني عليك، ويقول إنك متميز في إصابة الأهداف المتحركة والثابتة، ربما هذا ما جعلهم يرجحون أنك أصلح للمشاة

- ربما يا سيدي

- هم لا يعلمون شيئا عن المشاة، فالأهم ليس دقة التصويب، إنما الإخلاص والإيمان بالقضية التي يضحي الفرد بنفسه من أجلها، وقبل كل ذلك ثقته في أنه قادر على مواجهة أحلك الظروف.. فهل أنت كذلك؟

- نعم يا سيدي

- إيماني بأنه يجب أن تقدم روح المحبة والألفة في الكتيبة الواحدة، هو ما يجعل لفرقتنا جلوريا ذلك الصدى الرنان بين كل فرق الجيش، لذا يعطونها كل المهام الصعبة. من ذلك المنطلق، سأضعك في الكتيبة الرابعة، تحت إمرة صقلي مثلك اسمه (فابيو جالياني)

فابيو جالياني، ردد الاسم وابتسامة داخلية بقلبه، ذلك الصديق الوغد الذي لم يسمع عنه أية أخبار منذ رحل هو وأسرته. الآن هو هنا يجده، يا لها من مصادفة!

**

مرت خمس أعوام منذ آخر لقاء جمعهما على ميناء باليرمو، ليتجمعا مرة أخرى على ميناء روما. العودة للبحر مرة أخرى، حيث لحظات صباهم،

حين كانا يبنيان هناك أحلاما من رمال تطأها أقدام الفقر. الركض بين السفن، اعتلاء الصواري والنظر إلى بعيد، حيث يحط بصرهما إلى آخر الأفق، لا يدريان إن كان قد وصل إلى والوال، أم أنهما يركضان أبعد من البصر. لكن كل ذلك لم يمنعهما من ثرثرة الأصدقاء، واجتياز الماضي بقارب الذكريات، والعدو بين الأحلام المتلاشية عبر الزمن.

لذا، كان سؤال فابيو عن آخر شيء توقفت عنده أمواج الذكريات..

- كيف حال جينا الآن، هل ما زلتما معا؟
- معا؟ فقدها في روما المزدحمة
- وما الذي أتى بك إلى روما

قص عليه كل شيء، منذ تركه حتى أعاده القدر إليه، لتغلق الدائرة، وفي انتهائها سقطت منه جينا.

- جلوريا مختلفة يا صديقي، فنحن لسنا مجرد فرقة، بل نحن أسرة (هكذا قال فابيو)

**

ومضت السفينة تمخر عباب البحر المتوسط، تحت السماء الصافية، مودعة حلما ضائعا نحو الجنوب، حيث باليرمو، التي ترك فيها ذكرياتٍ موتَى، ولا تتوقف.. تنطلق نحو الجنوب أكثر، حيث الغموض يكتنف برقة، ومن ثم تنطلق شرقا نحو الأسكندرية الدافئة، حتى وصلت بورسعيد، في طريقها نحو القناة الضيقة، والإنجليز يقفون على جانب القناة، يقلبون في أوراقهم، حتى سمحوا بالمرور، بينما فابيو لا يتوقف عن الحديث، كأن بداخله شحنات عالية من الصمت عرفت طريق انفجارها..

- حبي لجلوريا بقدر بغضي للسياسة، وهؤلاء الإنجليز هم من صنعوها. الحقد عليهم يتزايد حين أرى أفعالهم.. أعلم أنك لا تتابع شيئا من الأخبار، لكني سأعرفك. موسوليني نقض معاهدته مع إثيوبيا، واتخذ حصنا في والوال، بدأت المشادات.. إثيوبيا عضو في عصبة الأمم -كما نحن عضو فيها- تشتكينا، فنشتكيها، والعصبة تعلم الحقيقة، ولا تتخذ مواقفا. والإنجليز يعرفون، بينما صامتون يسمحون لنا بالعبور من قناهم المصرية، رغم أنهم يعلمون إيلام نسعى. لا تسألني إن كانوا يفعلون ذلك لأنهم يحبوننا، فالإجابة هي كلا.. لديهم أسباب أخرى لا أعلمها، وأشعر أنهم يحيكون لنا فخا

ماركو ينصت إلى صديقه، يحاول أن يعي الحياة التي سيقبل عليها، في حين أنه لا يعرف من الدنيا سوى الصاري والشراع والبحر. البحر الذي صار أكثر شيء صاف رآه في حياته. قال له صديقه أن اسمه البحر الأحمر، كم هو مبهر.. كوجه جينا الباسم تتلألأ مياهه كأسنانها الفالجة، بينما فابيو لا يكف الثرثرة، عن الدائرة التي بدأت حين انفصل عن صديقه، ورحيله إلى نابولي محملا بطموحات صغيرة، يسعى فيها وراء أسطورته الخاصة، لم تكن باليرمو حقلا تصلح فيها زراعة الأحلام، لذا غادرها، لكن نابولي لم تستقبله بالورود، فبركانها الخامد فيزوف يصمت عن كل شيء، لكن حممه لا ترحم الأحلام، فتحيلها دوما لرماد.

موسوليني لم يرحم إيطاليا، وأصحاب قمصانه السود قتلوا أرواحهم، فالتحق بالجيش الإيطالي ليبحث عن آمال جديدة. مقته لموسوليني لم يجعله يتوانى عن أن يصبح أحد أدواته، فيقينه أن كل طاغية سيزول هو ما قاده إلى التطوع في قواته. فالجيش الذي يأتمر بأمر الطاغية دون حب الوطن، سيقوض كل أساسات الدولة.

انتقل من فرقة لفرقة، حتى حط الرحال أخيرا في جلوريا. احترم قائده أريجو بينتو، وتمنى لو كان مثله.. صارما حين يتطلب الأمر صرامة؛ ولكنه يحمل قلبا عاشقا لكل ما هو إيطالي. هو يستمتع هنا، يشعر أنه في نزهة، والسفينة تنتقل من ميناء لميناء في مصر، ثم السودان، ثم اريتريا، ولا تتوقف رغم أن الحرارة تشتد وتشتد، فتصل إلى الصومال الفرنسي (جيبوتي) وتكمل طريقها نحو الصومال البريطاني، قبل أن تصل أخيرا إلى ملاذها الأخير، الصومال الإيطالي، وترسو في مقديشيو

استقبلتهم الحامية الإيطالية هناك استقبال الظمآن إلى الماء. فهم يشعرون أنهم في المنفى، يؤدون مهاما مجبرين عليها، أغلبهم ليس مثل فابيو، مؤمنين بأهمية صنع إمبراطورية رومانية.

مكثوا في الصومال عدة أيام، استغلوها في التنقل بين أنحائها. الحرارة الشديدة لم تمنعهم من البحث عن الجديد، والجديد هنا طفلة سمراء، لها عيون صفراء زائغة، وشعرها مغزول في ضفيرتين. إيطاليا، رغم الطواغيت فيها، لم يروا تلك العيون البائسة.. هل تكرههم تلك الطفلة التي لم ترهم من قبل؟ سؤال اختلج بصدورهم، ولم يعرفوا له إجابة.

الطبيعة في الصومال بديعة، أشجار باسقة في صحراء جرداء.. إنها الحياة حين تحمل المتناقضات!.. وأخيرا، وصلوا واحة اوغادين، التي مكثوا فيها طويلا، تأتيهم الأخبار أن سيلاسي، حاكم إثيوبيا، ما زال مصرا على أن عصبة الأمم هي من ستمنحهم الأحقية في والوال. حينها كان يضحك فابيو، ويحدث صاحبه أن سيلاسي رجل مضحك حقا.. إن كان لا يرى التسويف الواضح الذي تقوم به عصبة الأمم، حتى تكتمل قواتنا، فهو أعمى.. وإن كان بالفعل يظن أن العصبة تستطيع أن تمنح حلا، فهو غبي.

سأله ماركو ببراءة الساذج سياسيا:

- وبريطانيا؟ هل ستتركنا هكذا؟

- هذا ما يحيرني يا صديقي، ولكن تفسيري الوحيد أن بريطانيا لا تريد الاحتكاك بموسوليني

**

سبتمبر ١٩٣٥

شهور مضت منذ وصولهم، ينتظرون ما ستسفر عنه مفاوضات عصبة الأمم، حتى أتى الأمر اليقين بأن قرار العصبة هو تبرئة الطرفين من اعتداء والوال، وكأن شيئا لم يكن. عام كامل من الحياة المملة، بلا سلم أو حرب.. فقط يراقبون الجنود الأثيوبيين، ويتأهبون لملاقاتهم. اعتادوا الآن الحرارة الشديدة، والحشرات الغريبة، ورائحة الأحراش المترامية حولهم، بل ألفوا تلك اللغة العجيبة، التي يسمعونها من جنود الأحباش.

كان وقتا كافيا بالتأكيد لحشد قوى إيطاليا للغزو المنتظر، الذي قد حان في الخريف.. ففي الخريف، تتساقط الأوراق.. وكانت إثيوبيا مجرد ورقة، تآمرت عليها القوى.

في أحد أيام الحرب، وقف أريجو بينتو ليحفز رجاله، ويحثهم على النصر بالمثابرة، ويستقبل أسئلتهم ويجيب عنها. إيمانه بأن الجندي ليس مجرد آلة تنفذ الأوامر هو ما يقربه منهم.

سأله أحد الجنود:

- لماذا البريطانيون والفرنسيون يؤازروننا؟

- حتى لا تنهار جبهة ستريسا

- ستريسا؟

- نعم، هي تلك الجبهة في عصبة الأمم، المكونة منا ومنهما، وهو حلف معادٍ للسياسة النازية لألمانيا

- لكنهم يتحدثون عن فرض عقوبات ضدنا إن لم نتوقف عن غزو إثيوبيا

- كلها أكاذيب، بريطانيا ليست بالقوة التي تستطيع أن تجابهنا، فرض العقوبات هو حديث صوري، كي يحفظ ماء وجه عصبة الأمم

الآن فهم فابيو لماذا الإنجليز لا يمانعون في حشد القوات الايطالية، التي تمر عبر قناة السويس.

**

وانتهى اليوم العاصف، وساد السكون.. وحين سمعوا الصمت، أصغوا إلى صرخات الضمير، ماركو الطيب يستعيد تلك اللحظة الأولى، التي تخترق فيها رصاصته رأس أسود، ليمتزج الأحمر بالأسود، كأنها لوحة مخيفة.. الآن فقط عرف أي جرم يرتكب هنا!

الهدوء هو ما يجعلنا نرى الحقائق؛ لكن انشغالك في الحرب يجعلك تهجم أو تصد هجوم.. تقتل كي لا تُقتَل؛ وهذا يلهيك عن صوت الضمير. روحه لم تمت، رغم إزهاقه للعديد من الأرواح، لذا، منذ تلك اللحظة، قرر ألا يدع للهدوء مكانًا، سيبحث عما يشغله.

أخرج أوراقه، ورسم على الورقة عيني جينا، تبتلع البحر لتصل إليه.. سالت دموعه، لتختلط بماء البحر على اللوحة، وهو يصرخ:

- صرت غير جدير بك، أنا قاتل

فكرة الرسم لم تشف جراحه الداخلية، كان فابيو يلاحظ ألم صديقه، اقترب منه:

- كي تتحقق الأحلام لا بد من خسائر
- لكن الخسائر أفدح من الحلم
- حلمنا هو المجد (جلوريا)
- جلوريا أسرة، والأسر لا تُغير بعضها على بعض. هل تذكر تلك القرية التي دككناها دكا؟
- للمجد سلم ذي درجات، يجب أن توطأ
- تتكلم كموسوليني يا صديقي
- موسوليني يريد امتطاء السلم وحده
- وأنت؟
- حلمي إيطاليا العظمى
- والدماء التي تتناثر؟
- هي ضريبة الحلم. ولا تأس عليهم؛ لو لم تقتلهم لقتلوك
- ولولا الحلم ما كنا هنا
- ما زال قلبك رفيقا، لا تعي الحقائق. لو لم تحلم أنت، لحلم غيرك بأكلك، ولتحولت ساحة الحرب هناك في باليرمو

ظل ماركو يفكر في كلمات فابيو الأخيرة، وهو يتذكر لويجي، وما فعله به.. ودون (جيوفاني) وهو يستعبد باليرمو.. هما أيضا لهما أحلام، لها ضحايا..

- صدقت يا فابيو، إنها قوانين الغاب، حيث الوحوش لا ترحم

بعد أن دانت لهم إثيوبيا، قاموا بجولة في أراضيها، حتى وصلوا لبحيرة تانا، اللجين المتلألئ منها، الذي يصنع نيلا عذبا فراتا، ينحدر نحو الشمال. مدوا أيديهم، واغترفوا شربة هانئة، كأنهم لم يتذوقوا ماء من قبل.. إنه ماء ما زال بكرا

نظر فابيو نحو الشمال، حيث مجرى النيل. ثم ذهب لقائده أريجو يسأله:

- سيدي، أليس هذا النهر يسير نحو الشمال؟

- بلى

- أليست تلك السودان ومصر البريطانيتين؟

- بلى

- أليست بريطانيا تفرض عقوبات على إيطاليا، حتى وإن كانت صورية، فكلمة عقوبات تثير في نفوسنا نحن الطليان اشمئزازا، فتدع العالم يفهم أننا أقل قدرا منهم

- بلى يا فابيو، كل ذلك حقيقي، فماذا تريد؟

- لماذا ندعهم ينتفعون بالنيل؟ ويبنون من خيراته ثرواتهم

ظل يفكر أريجو في قول فابيو.. هو أيضا يكره الإنجليز، ويتمنى أن يذبحهم جميعا أحياء، من هؤلاء الذين يطلبون حصارا اقتصاديا على إيطاليا، لذا قال:

- هل تقصد أن نبني سدا؟

- كلا يا سيدي، بناء السدود يحتاج إلى معدات ومهندسين، وكل ذلك سيستغرق وقتا طويلا

- اذا ماذا تقترح؟

- اريتريا تحت سيطرتنا، واثيوبيا أيضا، فلماذا لا نصنع العديد من المجاري المائية من بحيرة تانا إلى البحر الأحمر، بذلك سينقسم الماء من النبع بين كل المجاري، فتقل حصص دول الشمال، ويتعرضون لجفاف

- طريقة بدائية سهلة، ستستدعي بعض الجهد، والأيدي العاملة موجودة من الصومال واثيوبيا واريتريا، ولكن هذا بعدما توافق القيادة

**

الأفكار أمواج هادرة لا تتوقف عن المد.. كانت كالبركان الثائر متضارب الحمم، يبحث عن لحظة الانفجار. وماركو ينعزل عن الجميع، ويبحث لنفسه عن منفذ يبيح له ما اقترفه، واكتشف أن كل يوم هو دين جديد يثقل ديونه نحو الإنسانية، طفولته في باليرمو صنعت منه كارها للقهر، وها هو الآن آلة من آلات القهر، ينظر إلى الشمس الغاربة، حيث الرجال السمر يسوقون أبقارهم، باحثين عن لحظة راحة، يودعون فيها معاناقم، ولا تأتي تلك اللحظات؛ لأن ماركو ورفاقه هنا. كم يكره تلك الحياة التي ينقسم فيها الرجال إلى قاهرين ومقهورين، إلى جيوفاني وصاحب الورشة، إلى موسوليني وصاحب المسكن، بالقرب من ريتشي.. حيث فقد جينا.

جينا، أنتِ فقط من جعلتيني أؤمن أن الحياة ما زال بداخلها الجمال. وحين فقدتك، اكتشفت أنني فقدت معك روحي وإحساسي بالجمال. امتطيت المطايا الراحلة عنك، وقطعت الدروب، ولم أعرف أنني أقطع قلبي، وأمزق إنسانيتي. لو قدرتِ ذنوبي الآن، فهي تعلو سفوح الجبال، بينما أنتِ بلا ذنب، فكيف يجتمع من هو على قمة الذنب، مع من هو على أرض الصفاء؟!

قطع أمواج خواطره صوت قائده أريجو، وهو يناديه:

- ماركو تعال هنا

حاول ماركو أن يزيل بعض دموعه، التي سالت فأغرقت وجهه، حين ذكر عشوقته، وتقدم نحو قائده في خطى، حاول أن تكون ثابتة؛ لكن القائد الخبير من نظرة واحدة استطاع أن يعرف ما يخفيه

- نعم يا سيدي

- أعلم أنك ابن البحر، لم تخالط البشر.. ولاحظت خلال العام المنصرم أن ما صنعته في التدريب من دقة تصويب، إنما هو مصادفة.. أنت هنا بالخطأ يا ولدي، قد أتتني الموافقة على صنع قنوات تصب في البحر الأحمر، سنحفر قنوات من الأنهار المغذية لبحيرة تانا، قنوات من أنهار آباي وماجاش ودمبرا وجيلتي وجومارا وورب، سنختار أقرب نقطة للبحر من كل نهر منهم، ونصنع منها قناة. المصريون حفروا قناة السويس منذ سبعين عاما، واستغرقوا اربعة عشر سنة، بينما الآن هناك جرافات وثلاث حكومات تساعدنا، وأيد عاملة، يمكننا حفر تلك القنوات سريعا

كان يستمع ماركو لقائده، وهو لا يقدر مدى خطورة تلك القنوات، لذا كان يستمع فقط، وقائده ما زال يتحدث:

- سأعيدك إلى البحر.. أعد نفسك للسفر إلى أسمرة، لتتفقد المنطقة الساحلية، وتحدد نقاطًا لمصبات القنوات في البحر، لكي نكمل خريطتنا، وستظل هناك في أسمرة حتى ننتهي من ذلك

**

الأحوال في روما صارت لا تطاق.. التضييق على جموع المواطنين من كل جانب، الضرائب التي لا تتوقف، بل تزداد دائما وجامعوها من أصحاب القمصان السود الذين لا يرحمون. هذا حال الرومي ابن روما،

فكيف حال الغريبتين صوفيا وجينا، صوفيا كانت كفرس منطلقة نحو الشمس، تبحث دوما عن الإشراق تريد أن تحقق مجدها الشخصي، لذا كانت بارعة في تصميم الأثواب، وشعرت بأن روما صارت مقبرة لها، فموسوليني يحارب الجمال ويقتل الحرية. وريتشي ضاق به الحال، فالمواطنين صاروا لا يهتمون بالموضة، لذا هو على شفا حفرة الإفلاس، وصوفيا لن تتوقف، لذا قررت الهروب إلى باريس.

- هناك في باريس، أتعامل مع بيت أزياء فيليمون من حين لآخر، وهم ودودون معي سيعينونا على بدء حياة جديدة هناك

- وماركو؟

- ماركو؟ عام كامل انقضى، ولا يوجد خبر عنه، هكذا حال كل من يقع تحت يد أصحاب القمصان السود

- قلبي ينبئني أنه سيعود.. أشعر أنه يناديني

وانخرطت جينا في بكاء لا ينقطع، وصوفيا تحتضنها وتغلفها بيديها، كأنها قطعة شيكولاتة تنصهر من القهر:

- سيعود يا جينا، قلبه سيقوده لكِ.. حين نستقر في باريس، سنرسل لريتشي ونخبره عن عنواننا، ليبلغه إلى ماركو

احتاجت جينا بعض الوقت لتربط جأشها، بعد أن انهارت حين ذكرت ماركو، قبل أن تحزما حقائبهما القليلة، والبحث عن وطن جديد، يستطيع احتواء أحلامهما الصغيرة.

**

أسمرة والبحر الصافي الهادىء يعيدان للحياة بعض الجمال الذي افتقده.. لكن جينا لا تعود أبدا، وهذا ما كان يكدره. لذا، قرر الانشغال

طوال الوقت.. في النهار، يتجول في المناطق المحيطة، ويرسم الخرائط، ويكتشف الأراضي ليحدد مجرى القنوات و كيف تصب، وبالليل، حيث تنشط الذكريات، قرر الهرب منها بالانشغال بشيء آخر يحبه.. السفن.

نعم، فقد لاحظ في الصباح سفنا شراعية صغيرة، يستخدمها المحليون في الصيد، تتميز بالقوة والصلابة، فقواعدها من الساج الهندي القوي، وجوانبها من خشب السبيط الصومالي، ومن هنا أتت له الفكرة. فكر في جمع خواص تلك السفن بالسفن الحربية السريعة، فقام بشراء إحدى تلك السفن، وأضاف لها رفاصا بحريا ذا صفائح انسيابية، ليمكنه التحكم في سرعات السفينة، حتى تصل لسرعات عالية، وجعل نظامها يعتمد على الوقود، بدلا من الشراع، الذي تركه أيضا للتمويه.

قام بعمل نوافذ في جوانبها، تستطيع استيعاب مدافع صغيرة – كأنها سفينة قراصنة – تلك المدافع تخرج من بطن السفينة بذراع ميكانيكية. لذا، فالسفينة في مظهرها العادي سفينة شراعية، تستخدم في الصيد أو التجارة، وفي باطنها قنبلة موقوتة. ذلك التصميم استغرق منه وقتا، قبل أن ينتهي منه مع انتهائه من وضع الخرائط، وليذهب بهما إلى أريجو.

و لكن قبل أن يجد أريجو، قابله فابيو، الذي قال له:

- ماركو الرقيق يصنع سفينة قتالية!!

- ماركو الرقيق تائه، لا يدري أي طريق يسلك.. كل الطرق تقذف به بعيدا عن روما، حيث قلبه.

- ماركو الرقيق سيعود لقلبه حتما. القلوب تقود أصحابها لها، هكذا تقول كل الروايات.. لكن كيف لمن يرى أنه مذنب أن يصنع سفينة محاربة؟

- الذنب حين يغزو جسدا بلا قلب، لا يقابله من ذلك الجسد مقاومة

- هل اقتنعت بأن الضحايا الضعفاء ضرورة حتى تجابه الأقوياء؟

- كلا، ولكن لمجابهة الأقوياء يجب أن تكون قويا. لم أصنع تلك السفينة لقتل الضعفاء، بل للدفاع عن أنفسنا ضد الأقوياء

ابتسم فابيو ابتسامة ساخرة، ولم ينطق بكلمة. فصديقه الرقيق ساذج، لا يعرف أنه بصنعه تلك السفينة وتقديمها لموسوليني، الذي لا يفرق بين الاقوياء والضعفاء، إنما شهوة القتل ما تقوده دائما. صمت فابيو، لأنه يقتنع بأفكار موسوليني التوسعية

**

كان أريجو يباشر العمال في حفر إحدى القنوات بنفسه، حين أتى عليه ماركو حاملا تصميمه الجديد، ويعرض فكرته الجامحة، فقابله انبهار أريجو

- لهذا كنت أرى أن الأفضل لك الالتحاق بفرقة بحرية، أنت مبدع يا ماركو.. سأرسلك قريبا إلى روما على ظهر سفينتك، لتعرضها على القادة هناك، وأنا متأكد أنهم سينبهروا بها

**

روما من جديد تناديك، تفتح ذراعيها لك يا ماركو، تنتظرك حيث تخبىء قلبك بداخلها، والآن أنت تعود إليه.. ستجده، فلا أحد يتوه عن قلبه.

أمواج البحر الأحمر ساكنة، والسفينة تعتمد على شراعها، وتسير بهدوء، حتى لا تثير فضول الإنجليز. بطيئة، لكن الفؤاد متسارع النبضات، يطير إلى روما ويسبقه.

قناة السويس مرة أخرى، حيث الإنجليز على أطرافها يفحصون تصريح المرور إلى إيطاليا. تمر حيث حصار اقتصادي لا يحول، الأخشاب على ظهر السفينة توحي بأنها تجارية، وأن الشتاء في روما قاسي البرودة. لن يعرفوا أبدا أنها أخشاب السبيط والساج الهندي، ولن يهبطوا على ظهرها ويروا مدافعها المخبئة أسفل نوافذها.

البحر المتوسط أمواجه غادرة، تقصيك دوما عن بلوغ أهدافك، وأنت يا ماركو ضعيف، الذنب أنهكك ولن تقو اليوم على المقاومة. شراع السفينة يئن، والصاري يترنح، ولكن السفينة قوية حتى وهي هادئة. لقد صنعتها يد خبيرة، لكي ترسو على شاطىء الوصل. جينا، أيتها الطفلة الكامنة في شمال الخريطة.. مهما علت أمواج الذنوب الفاصلة بينكما، فهي تتحطم على صخرة الحب الصامدة، غير القابلة للتآكل. سيصل إليكِ قريبا، وسيضع جسدك الرقيق بين ذراعيه القويتين، لتمنحيه أملا جديدا في أن يراكِ ثانية.

**

ما إن وصل لروما، حتى قدموه لقيادة القوات البحرية، حيث المهندسين هناك يقومون بفحص اختراعه الغريب. قال كبيرهم:

- ومن أين حصلت على الساج الهندي؟
- المحليون يقومون بتهريبه من جنوب السودان
- جنوب السودان؟ هو لا يزرع هناك؟
- بالطبع لا يزرع هناك، لكن الإنجليز أحضروا شتلاته من ميانمار والهند، وأعادوا زراعته هناك (١)

ضحك المهندس بسخرية قائلا:

- الإنجليز يعيدون تشكيل الطبيعة، لتخدم مصالحنا ضدهم

لم يفهم ما يقول المهندس، لأنه لم يهتم يوما بالسياسة. كل ما يعرفه أن مصالح روما ولندن لا تتفقان، كلاهما يحلم بحكم العالم، لكن لا توجد مواجهة مباشرة بينهما؛ فالفريقان يخشى كل منهما الآخر.

قاموا بسؤاله بعض الأسئلة الخاصة بالسفينة، واقترحوا بعض الاقتراحات التي تجعلها أكثر انسيابية في الماء، لكنهم لم يخفوا إعجابهم بالفكرة، وأطلقوا عليها اسمه (سيسليانتي)

وقدموا تقاريرهم لقادتهم ولموسوليني، أنهم إن صنعوا مثل تلك السفن الصغيرة القوية الخادعة السريعة، سيكون لديهم سلاح بحري جديد، لا يشق له غبار.

**

بعد أن حصل على يومين إجازة، كان الشوق يقود قدميه، ويحثه على الإسراع بكل قوته نحو أزياء ريتشي. لا توجد كئوس عالم أخرى تعوقه عن الوصول إليها. جينا يا نور الضحى، أين أنتِ، كيف يحيا بلا شمسه كل ذاك الوقت؟!

وما إن وصل لدى ريتشي، إلا وكانت اللهفة تقتله، فيقتل هو بدوره المكان بحثا عن صوفيا.

- إنها ليست هنا، غادرت مع صاحبتها إلى باريس، قالا لي إنك ستحضر لتبحث عنهما، التوتر والقلق كان يعتريهما عليك

- هل لديك عنوانهما هناك؟

- كلا، لكني أعلم أن صوفيا تتعامل مع أزياء فيليمون

- عنوانه؟

- لا أعرف.. لم أذهب إلى باريس قط . صوفيا هي من كانت حلقة الوصل بيننا وبينهم، لكنه شهير، ما إن تطأ أرض باريس وتسأل عنه ستجده

- أذهب إلى باريس؟ لا يحق لي مغادرة روما! قل لي لماذا رحلتا إلى باريس، وهل ستعودان؟

- لماذا رحلتا!! ألا تنظر حولك؟ لا يوجد زبائن هنا، الإيطاليون أهل الأناقة ابتعدوا عنها لأنهم لا يجدون مأكلهم، صوفيا لن تعود حتى يرحل موسوليني

- سأترك لك رسالة، أرجوك ابحث عن عنوان ذلك الفيليمون، وأرسلها إليه

- حسنا سأفعل

(١) حقيقة

**

حبيبتي جينا

يا عروس السماء البكر التي لم تلوثها الأرض بثراها، كم أتوق أن أتذوق شهد وصلك ثانية، وأن ترفعيني إليكِ عاليا، فينطفيء لهيب الاشتياق في بحار عينيكِ.

ستة عشر شهرا مضت، لم أكن فيها ماركو الذي تعرفينه، بل كنت شخصا قميئا. اكتشفت أنني لا أكون ذاتي إلا حين أكون بقربك. اشتقت لذاتي الساكنة فيكِ، اشتقت لنجمات السماء اللامعة الباهرة، لا كتلك النجوم التي تحملها سماء إثيوبيا، نجوم باهتة.

نعم إثيوبيا، وعام من العذاب والذنب، وتلك الأشياء الخبيثة بداخلي، ولم أكن أراها لأنني كنت بقرب نبع الصفاء، أشرب منه غرفة فيطهرني.. لكن الهجر يدع القلب عرضة لعواصف الظلام، النكت السوداء تثقب قلبي، وصرت أخشى أن يقتلني، والآن يخبرونني أنكِ رحلتِ عن روما، ولم أكن أقاتل من أجل إيطاليا، بل كنت أقاتل من أجلك.

الآن يخبرونني أنكِ في باريس، وأنا ما زلت سجين أوامر قادتي، أفرغ رصاصاتي في صدور الضعفاء والبائسين، أحلم بكِ ولا يحملني إليكِ حلمي، بل يوقظني كابوس واقعي أنني أسير، وأنكِ ما زلتِ تبتعدين.

غدا سأعود إلى إثيوبيا، ولا أعلم متى سأحظى بحريتي. ولكنك بالتأكيد ستعلمين، لأنه سيكون ذلك اليوم الذي أطفىء فيه لهيبي بين شفاهك

أتمنى لكِ أن تجدي السعادة، التي رحلت عن إيطاليا.. وأتمنى لي أن أصل إليكِ قريبا.

عاشقك، الذي ما زال يأسره قلبك..

ماركو

**

النهار في روما كالليل المظلم، كلاهما قاسٍ، فالمعاناة واحدة طاغية.. النهار لا يرحم، والضمير بالليل لا يرأف، والذنوب ثقوب تصيب القلب كل آن، وماركو الحزين حائر، لا ينام ولا يقوم من غفوته.. هذا حال البائسين. يخوض كل يوم في الخطايا، ولا يستطيع الوقوف.. يشعر أنه أخطأ، لكن لا سبيل للرجوع.. المجد يناديك، سيسليانتي ستمخر في بحار الدنيا حاملة اسمك، ستقتل الكثيرين تحملك وزرها، وأنت تائه تتخبط،

لكنك عامل سفن بسيط يرقع السفن الخرقاء، ويعيد للبالية زينتها، ويراقب البحر.. هل سيأتي اليوم برسالة منها داخل زجاجة؟.. كلا، البحر غادر يغرق رسائلها، ولا يبقي إلا أمواجه العاتية تطيح بقلوب العاشقين. ماركو الطيب يعود إلى مهندسي السفن في روما، يحاول إغراق نفسه في العمل، حتى لا يقتله الشوق. ظل شهرا هناك، يعمل ليلا ونهارا، يصنع مقترحات المهندسين، كي تصبح سيسليانتي أسرع وأقوى. أضافوا لها محركات أكبر، دعموا رفاصها بصفائح معدنية، فصارت أكثر انسيابية، ثم قاموا بوضع مدافع أكثر قوة وأصغر حجما. وبعد ان انتهوا من الشكل النهائي لسيسليانتي، أمروا ماركو بالعودة إلى أسمرة، وأن يلتحق بالفرقة البحرية (باليني)، القابعة هناك، وفي ورشتهم الخاصة يصنع من تلك السفينة ما يستطيع.

**

شدة الحرارة في أثيوبيا لم تكن عائقا كبيرا في حفر القنوات؛ لكن ما يعوق حقا هو المطر الصيفي الكثيف. ومع ذلك، لم تتوقف جلوريا عن الإشراف على الحفر، كل جرافات اثيوبيا والصومال تقوم بالحفر من نقاط مختلفة إلى البحر، كل الماء العذب سيسير نحو الانتحار في البحر، وسيقف جنود جلوريا مبتسمين. لكن الآن، الرجال ذوي البشرة السمراء يترفون عرقا يقطر على أرضهم السوداء، ليمتزج بقنواهم التي يحفرونها، فتمنح الماء العذب بعض البؤس، حتى يصبح لانتحاره قيمة. والرجال ذووا البشرة البيضاء لا يكفون عن الصياح والبصق، ليمتزج ماؤهم بقنواهم، التي يشرفون على حفرها، فتمنح الماء العذب بعض الدنس، فيهرب ليغتسل في ماء البحر. كل الطرق كانت تؤدي إلى البحر الأحمر، الشمس قاسية رغم المطر، لكنها لم توقف (فابيو). كان يحلم بذلك اليوم الذي تجف فيه تانا، ليشعر أنه صنع شيئا سيتحدث به وله التاريخ.

يونيو ١٩٣٨

السنوات تمر.. ولكنها بطيئة جدا في أسمرة. كم تمنى لو كان هناك في باريس، التي لم يرها قط، لكنه يسمع -كالباقين- عنها، وعطرها الذي كان يزكو بشذا جينا، مازال يسكره. أربعة أعوام مضت منذ اختطفه من بين يديها أصحاب القمصان السود. ولكنها مضت كأنها أربعين، صنع العديد من سيسليانتي حتى الآن في أسمرة، عاونه الحيتان (باليني) الذين علمهم سرها، وفي ذلك اليوم استدعاه قائد الفرقة:

- كما تعلم، فقد انتهت جلوريا من عملها، وها هو الماء يجري إلى البحر في قنواته الممهدة، لذا أتتهم الأوامر بالرحيل من إثيوبيا، وأنت سترحل معهم.

- ألست ملحقا على باليني؟

- بلى، لكن أتت الأوامر بذهابك مع جلوريا إلى ليبيا

- ليبيا! ألن يعودوا إلى روما؟

- نعم لن يعودوا الآن إلى روما، فالقائد العظيم موسوليني قرر أن تكون ليبيا إحدى محافظات إيطاليا، وعلى جلوريا إقناع الليبيين بذلك. أما أنت، فعليك البقاء في ميناء طبرق، والالتحاق بفرقة البحرية هناك، لصناعة العديد من سيسليانتي هناك

- والساج الهندي؟

- سنرسله إليك على سفننا من هنا

لم يشغل ماركو الذهاب لليبيا، فالشمس في الغربة سواء. ولم يفرح كثيرا بعودته إلى جلوريا، فهناك سيتركهم بالتأكيد. العمل مع الجماد أراحه بعض الشيء، فهو لم ير تلك الوحشية التي عاملوا بها المحليين.. أثناء الحفر

هو لا يرى إلا البحر، رغم صنعه لقنابله الموقوتة، التي تحمل اسمه، إلا أنه لا يرى نفسه قاتلا، فلا يوجد قتل بلا دماء، ولم يترف من سفنه إنسان، فهي ما زالت حبيسة الموانئ

وجد نفسه بين ذراعي صديقه فابيو، وهو يحتضنه قائلا:

- أخيرا عدت لنا يا صديقي

- لم أعد لكم طويلا، فما إن أصل إلى ليبيا، سأترككم وألتحق بفرقة سكوالو

- نعم أعرف ذلك، لكني لم أرك منذ غادرت إلى روما، فهل رأيت جينا؟

- كلا، ربما كانت غاضبة مني، لا تريد رؤيتي

- هل رفضت مقابلتك؟

- هي لم تكن بروما أبدا، هاجرت إلى باريس

- إذًا كيف علمت أنها غاضبة؟

- لم أرها في منامي منذ فترة

- لا عليك يا صديقي، ستصل إليها قريبا، ستراها

- لا أدري، لم أعد واثقا أنني ما زلت أستحقها.. فلأتمنى لها السعادة بعيدا عني

- ماذا تقول؟

- أربعة أعوام وأنا لا أملك نفسي، أتنقل بين المدن بأوامر، ولا أعرف متى سيأتيني أمر بالمغادرة إلى باريس.. ربما بعد عشرة أعوام، فلماذا تنتظرني؟

- لأنها تحبك!

- ستحب غيري وتجد معه السلوى
- لن تجد قلبك
- قلبي الآثم المليء بالثقوب؟
- بل قلبك الطاهر المليء بالحب
- في باريس بالتأكيد قلوب طاهرة

اقترب منا أحد الرجال وقال لنا: سمعتكم تقولون باريس، فهل أنتم على علم بما فعل منتخبنا هناك؟ بالأمس كانت المباراة النهائية في كأس العالم، الذي يلعب هناك، وكانت بين منتخبنا والمجر؟

قال له فابيو: كلا، لا نعرف شيئا عنها. ولكن ما أدراك بكل ذلك.

أجاب الرجل: عرفت من الإذاعة الإثيوبية، أتدرون؟ موسوليني هدد اللاعبين إن لم يعودوا بالكأس، سيسجنهم جميعا

أجاب ماركو وعيناه زائغتان: وهل يضير الأسير سجنه، إيطاليا صارت سجنا عظيما

نظر إليه فابيو نظرة حادة، وأمره بالصمت، قبل أن يحملوا حقائبهم ويذهبوا إلى سفنهم المغادرة إلى ليبيا.

**

ضمت ساقيها إلى صدرها، وطوقتهما بذراعها الأيمن، بينما يدها اليسرى ممسكة بالخطاب المبلل بدموعها، ورحلت إلى بعيد، هناك خلف البحر حيث باليرمو، حين كانت طفلة صغيرة تركض في الساحات، وتحلم بالنجوم، تلهو مع أطفال الحي، بينما هناك طفل واحد يحتضنها ويحميها ويفهمها. في غيابه تشعر باليتم، هكذا هي الآن.. يتيمة تحلم بأنامله

تتحسس وجنتيها برفق. ولكنه بعيد هناك، تفصله بحار وبلاد عنها، ويبعده حلم لطاغية إلى حيث لا تعلم.

اقتربت منها صوفيا، تمسح على رأسها بأناملها قائلة:

- مرت فترة طويلة ولم تسأمي من قراءة ذلك الخطاب؟

- وكيف أسأم منه؟

- لكن لدينا عمل يجب أن نهتم به، كما أنه يهتم بعمله الآن

- قتل البشر؟ ماركو يقتل!.. لا أصدق ذلك

- حتى القلوب المرهفة عليها الدفاع عن حياتها. إن لم يقتل سيقتل

- نعم، لا يهم ما يفعله الآن، فعندما يعود سيغتسل ذلك القلب بين أضلعي

رفعت جينا رأسها نحو صوفيا، لتظهر جمرتا اللهب كعينين تصرخان، بينما بيديها تحاول إزالة دموعها قائلة:

- سيصل لي قريبا بالتأكيد، سيصل لي، أليس كذلك يا صوفيا؟

- بلى يا حبيبتي، سيأتي ويقرع بابك، ويجدك كما أنتِ. فعليكِ أن تكوني حينها زهرة باريسية يانعة، فلنتم عملنا.. أنتِ تعرفين أن لدينا الكثير من التصميمات يجب أن ننهيها. باريس ليست مثل روما، مازال أهلها يهيمون بالجديد، لذا يجب علينا أن نشبع لديهم تلك الشهوة

- شهوة انسلاخ جلود الأفاعي القديمة، لتتباهى بثياب جديدة. أهذا ما تقصدينه؟

- نعم

- وهل تنسلخ قلوب الثعابين كجلودها، فترتدي قلبا جديدا؟

ربتت صوفيا على كتفيها، وابتسمت تلك الابتسامة التي تحمل لونا باهتا، قبل أن تقول:

- دعك من تلك الأسئلة التي لا طائل منها، ولننتهي من عملنا.

صوفيا كانت بارعة حقا في التصميمات، لها ذوق لا يضاهى، لكن تصميماتها كان ينقصها شيء ما لا تعرفه. حين قامت بتعليم صديقتها جينا، وجدت ذلك الشيء فيها.. هو الروح، نعم، أصبحت لتصميماتها روح ذات إحساس مرهف. كانت تعرض التصميم على جينا، فتضع لمسة واحدة منها، فيتغير كل شيء. كانتا تشكلان معا فنانا بارعا.

**

ما إن وصلت السفينة للماء الليبي، حتى تنسم ماركو رائحة مختلفة.. رائحة صحراء جافة قاحلة ممتلئة بالماء، رائحة لا يعرف وصفا لها، فهي تحمل متناقضات عدة. لكنه شعر بالهدوء حين كان أول الهابطين من السفينة في ميناء طبرق، حيث وصل لمبتغاه، بينما جلوريا سيهبطون في ميناء بنغازي.

وطأ الأرض فشعر أن الدماء تحت أقدامه لم تجف بعد، الصحراء رمال تئن، والقلوب الصارخة تهتف بالعطش إلى بعض الماء، بينما قوارير النبيذ ليس بها إلا الدم. رأى كل ذلك بعينيه حين تنسم الهواء.

في طريقه إلى هنا، سمع أحاديث أصدقائه من جلوريا عن ليبيا، ومعاركها التي لا تنتهي. كانوا يقصون عن رجل اسمه عمر، كيف واجه الطاغوت بلا قوة أو سلاح، إلا رجال قليلون يؤمنون به.

وصل إلى مقر فرقته الجديدة سكوالو، التي كانوا على علم بمجيئه، وسخروا له العتاد اللازم لصناعة سفنه، وأمدوه برجال ليبيين ليساعدوه، فقد كان كل الجيش الإيطالي في ليبيا منشغلون بإقناع أهلها باكتساب الجنسية الإيطالية.. اقناعا جبريا، لم يعرف ماركو نصوصه أو مفاده؛ لكنه كان يشعر به في عيون الليبيين الذين يساعدونه في عمله، شعر بالألفة بينهم، فهم مثله أجبروا أن يكونوا هنا الآن.. كثير منهم يجيد الإيطالية، فاستمرار احتلال أرضهم قرابة الثلاثين عاما جعلهم يتحدثون بها –ليس كالأثيوبيين– فماركو لا يجيد غيرها لغة.

كان ينظر نحوهم وهو يشرح طريقة صنع السفينة، حتى أشار إلى جزء منها قائلا:

- هنا نصنع كوة صغيرة، تسمح بمرور مدفع منها

هتف فيه أحدهم:

- تماما كما تنظرون إلى ليبيا.. مجرد كوة تخرج منها مدافعكم

نظر إليه ماركو بتعجب، لم يتعود أن يتحدث إليه أحد السكان المحليين بتلك الطريقة، فسأله:

- ما اسمك؟

- عبد الله

- حسنا يا عبد الله، فلتعرف أنني مجرد عامل إصلاح سفن، لا أخبر دروب السياسة.

- لكنك هنا ترتدي زي المعتدين.

- لكنني لست مثلهم

أكمل ماركو حديثه عن السفينة، وشرح كيفية صناعتها، وبين الحين والآخر ينظر إلى عبد الله ويحدث نفسه (أنا مثلك، حملني البحر إليك، وليس لمن يخوض البحر اختيار المرسى)

**

حرارة ليبيا ربما كانت أقل من حرارة إثيوبيا، إلا أنها جافة أكثر، ذلك الجفاف الوحشي الذي يحيل النهر إلى حجارة. وذلك لم يمنع بالبو، حاكم بنغازي، من عمل حفلة صاخبة، دعا فيها كل الجالية الإيطالية، ومعهم قائد جلوريا العام، وقادة كتائبه. فابيو كان هناك منبهرا، لم يعرف أن هناك حفلات مثل تلك في المستعمرات، أو حتى غير المستعمرات. نابولي وباليرمو، حيث قضى حياته، لم ير فيهما مثل ذلك؛ فقط كان يسمع أن هناك من يحيون في ثراء فاحش، لكنه لم ينصت لمثل تلك الموسيقى الصاخبة والضحكات الساخرة بلا عقل، فالكل منتشٍ، إلا فتاة تجلس وحيدة هناك، بعيدة عن ذلك الصخب، لا تجد لها رفيقا. كانت ترتدي ثوبا أزرق كالبحر، وهو كأي صقلي ينجذب نحو الأزرق! اقترب منها فابيو، لمح في قسمات وجهها الامتعاض..

- العريف فابيو جالياني من الفرقة جلوريا للمشاة

نظرت إليه بتعالٍ ولا مبالاة، كمن يرى حيوانا يهيم في البادية يبحث عن فريسة، ثم تنهدت، فشعر بحرج بالغ، لكنه حين اقترب منها، رأى في عينيها وميضا غريبت أزرق، وشعرها الحريري منسدل على أطراف وجهها، تتصفحه بأناملها، وتقول دون أن تعيره كثير من الاهتمام:

- حسنا، أنا فرانشيسكا راسبوليني

نظر إليها مستفسرا، ينتظر المزيد عنها، لكن دون إجابة.. فقط الصمت من يجيبه، فعاد لأصدقائه الجلوريين، يهيم معهم بين الموسيقى والشراب، وبين الحين والآخر يذهب بناظريه نحوها، ليفوز منها بلمحة

**

وقف جميع الجلوريين ينصتون لقائدهم أريجو، وهو يبعث فيهم الحماس قائلا:

- لسنا هنا لنحقق آمال موسوليني في تدشين إمبراطوريته الخاصة. نحن هنا لنصنع تاريخا جديدا لروما. أعترض مثلكم على أن يتجنس هؤلاء الحثالة بجنسيتنا، ويصبحوا مثلنا، ونحن أعظم الأمم. لكن ردة فعلهم القوية، ورفضهم أن يصبحوا إيطاليين، أصابني بالغضب مثلكم. من هؤلاء رعاة الغنم، كي يرفضوننا؟ كي نكون عظماء – ونحن كذلك – علينا أن نثبت أننا الأفضل؛ وكي نصبح كذلك، علينا أن نلقنهم درسا لن ينسوه، ستنقسم كتائبنا لتُغير على المناطق المحيطة ببنغازي، ونجبر جميع الليبيين على الخضوع. الشباب منهم سينضمون إلى جيشنا العظيم، أما الأطفال سيتعلمون لغتنا العذبة، والعجائز هم رهائننا الذين نحقق بهم أهدافنا. الليبيون أغبياء، يصنعون لعجائزهم تلك الهالة من الرهبة والوقار، التي تجعل الجميع يمتثلون لهم، ومن هنا سيكون هدفنا. روما تصنع تاريخا جديدا، وجلوريا هي من تمنحه المجد

**

الكتيبة الرابعة من جلوريا، بقيادة فابيو جاليايي، كان نصيبها الشرق، حيث مدينة البيضاء. كانت مدرعاتهم تسابق الريح، حتى وصلوا إلى

هدفهم.. عند منتصف المدينة، وقف هو ورجاله، وهتفوا بكل قوة أن يا أهل المدينة لا نريد تنكيلا بكم، فقط امتثلوا لأوامرنا.

اجتمع المحليون من كل أنحاء المدينة، كي يتسمعوا لما يريد فتابع فابيو..

- أنتم تعلمون أن دماء القياصرة تجري في عروقنا، وأن تاريخنا وحضارتنا لا يمكن المزايدة عليهما، فنحن خير أجناس الأرض، أول من أعطى الحكم للشعب، ودشن النظم الجمهورية

هتف أحد الرجال في آخر الصفوف:

- تتباهون أنكم أول من أعطيتم الحكم للشعب؟ انظروا لأنفسكم الآن كيف تقهرون الشعوب

نظر إليه فابيو نظرة نارية، وصرخ فيه:

- نحن لا نقهر الشعوب، نحن فقط نصنع مجدنا، وكل قطرة دم في سبيل ذلك الهدف النبيل هي درة تعقد على جبين صاحبها. نريد أن نصنع لكم ليبيا جديدة، نحن من وحدنا صفوفكم، وجمعنا برقة وطرابلس تحت لواء واحد، ونريد أن نجعل ليبيا تحت لواء واحد مع إيطاليا، لتصبح إمبراطوريتنا عظيمة. لماذا ترفضون ذلك؟ لا أدري.. لكنكم شئتم أم أبيتم ستتحدث ألسنتكم الإيطالية، وستخدمون في جيوشنا العظيمة، وتدينون لنا بالولاء و...

لم يتم كلماته، فالجميع يرحلون عنه، غير عابئين بتهديداته. لذا وجب عليه أن تكون ردة فعله قوية. مضى بقوته العسكرية إلى أطراف المدينة، حيث ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت. كان يعرف ماذا يعني ضريح صحابي في نفوس المسلمين، فأصدقاؤه حدثوه عن المختار، وكيف سقط في الأسر لأنه أراد زيارة ذلك الضريح.

أعد مدافعه، وقرر قصف الضريح، كرد فعل على تجاهلهم إياه. ترقب الجنود صيحة قائد الكتيبة تأمر بالتحطيم؛ لكن شيئا ما منعه من الإطلاق. إنه صوت أنثوي يقول:

- ماذا ستفعل أيها المجنون؟

كانت تلك فرانشيسكا، تصرخ في لهفة وهي تركض نحوه..

- أفعل ما يتوجب عليّ فعله، كي يتعلموا ألا يتجاهلون حديثي

- تلك حماقة

- الحماقة التي تصل بنا للمجد عبقرية

- أي مجد؟

- حضارتنا العظيمة ستنتشر

- لا توجد حضارة تبنى على إهانة القبور، فقط الطواغيت من يفعلون ذلك

- فرانشيسكا انتِ مخطئة، يوليوس العظيم دمر مكتبة الاسكندرية، ليصنع مجدا عظيما لروما

- وتلعنه البشرية جمعاء حتى يومنا هذا

- لا يهم

- فلتتعقل يا فابيو قليلا قبل مداهمتك للضريح. أعتقد يجب أن تستأذن من قادتك، فما ستفعله هنا ستدفع ثمنه أضعافا أنت وفرقتك

فكر مليا قبل أن يقول:

- حسنا، لكِ هذا.. لكن ما الذي أتى بكِ هنا

- السؤال الأدق، ما الذي جعلك أنت وجنودك تأتون إلى هنا، فأنا أتيت مع أبي إلى ليبيا منذ عشرة أعوام، واستقر بنا الحال في البيضاء.. رأيت المختار (١) ووحشيتكم، شاهدت رجالا يلقون من الطائرات، لأنهم يزودون عن أعراضهم، التي هتك من جنود لا يبحثون إلا عن نزواهم، رأيت همجيتكم وأنتم تطلقون النار بعشوائية، لا تفرق بين الطفل والمرأة، رأيت حقيقتكم الهشة، التي تخفونها تحت ساتر الحضارة، فأصابني الاشمئزاز منكم. لذا حين دعا موسوليني الليبيين للتجنس، كنت أعلم إجابتهم جيدا، فهم أفضل منكم

احمر وجه فابيو، واستشاط غضبا وصرخ فيها:

- إن كنتِ ترين أننا كذلك، ما الذي دعاكِ إلى حضور حفل صاحب على شرف الهمجيين

نظرت له بتعال قائلة:

- إصرار أبي ليس إلا، فله أعمال عديدة معكم يخشى عليها
- ألا تخافين أن تصل أراؤك لأبيكِ؟
- هو يعلم أنني أكره روما موسوليني وعصابته
- لسنا رجال موسوليني، نحن رجال روما
- روما دافنشي وأنجلو بريئة منكم

ثم رحلت تختال بفستانها الأزرق، تاركة إياه متعجبا محتارا.. قرر ألا يقصف الضريح في ذلك اليوم، حتى يصل إلى مرسى يطفيء فيه حيرته. هذه أول مرة يخطر بباله أن دافنشي وأنجلو صنعا حضارة لروما، لا تقل عن حضارة يوليوس واوكتافيوس

صدره يلتهب بالنبضات القوية، شيء ما بداخله يرتج.. فرانشيسكا قوية صلبة، لا تعبأ بنيران المدافع، وتدافع عما تراه.. في حين أنه يقف خلف المدافع، يريد أن يدك قبرا، لأن الأحياء أهانوه.. كم أنت ضعيف يا فابيو، وكم كانت هي محقة وقوية؟!

**

وقف مواجها للبحر، يتنسم هوائه الرطب ويملأ صدره به، فهو يحمل عطر جينا الباريسي. ولكن استوقفه صوت (عبد الله) ليقطع عليه خلوته:

- سيدي، أنت هنا؟ كنت أبحث عنك

(١) هو الشيخ عمر المختار، تم شنقه عام ١٩٣٢ بعد نضال طويل مع الإيطاليين، استمر أكثر من عشرين عاما؟ تم اعتقاله في عهد جراتسياني الحاكم الإيطالي لليبيا

لم ينظر إليه أو يرفع عينيه عن البحر، لكنه قال:

- خلف ذلك البحر من هنا تركت ذكرياتي (وأشار للشمال تجاه صقلية) ومن هنا تكون حياتي (وأشار نحو الشمال الغربي تجاه فرنسا) البحر قاسٍ دوما، يفرق بيني وبين كل ما أملك، ولكنني أحبه.. أتعرف حلا لتلك الأحجية؟

- كلا، فهناك أحجية أخرى.. خلف ذلك الجبل تركت قوما لا يطيقونكم مثلي، ورغم ذلك انضممت لكم وأساعدكم

- لماذا؟

- لا أعرف، ربما الخوف على حياتي. رأيتكم تقتلون ببشاعة تفوق العقل، فأصابني الضعف الإنساني

- نعم نحن قوم قساة، هربت من ذلك بصنع تلك السفينة

- هرب من قتل رجل، لتصنع سفينة تقصف العشرات
- شيء عجيب، أليس كذلك؟ لكن عزائي أنني لن أقتلهم بيدي
- لكنهم سيقتلوهم بعقلك وصنعتك وخبرتك
- لن أرى ذلك
- لكن ذلك لا يغير الحقيقة
- أردت الهروب، أنت لا تعرف. جلوريا أسرة واحدة، تعشق إمبراطورية روما العظيمة، وتكره موسوليني، لكنهم مثله طغاة. أنهار الدماء، التي تسيل من جراء مدافعهم، هي ما توطد قواعد عرش موسوليني. جلوريا لا يؤمنون إلا بأنهم يستحقون حكم العالم
- و أنت، بماذا تؤمن؟

تعجب ماركو من السؤال، ونظر إلى عبد الله، قبل أن تغرورق عيناه بالدموع

- لا أؤمن إلا بعيني جينا، والبحر، وإصلاح السفن.. لا أؤمن إلا بحياة هادئة، وكوخ خشبي أحيىء فيه سعادتي

**

كان الغضب باديا على وجه أريجو، وهو يرفع عينيه في اتجاه فابيو، الواقف أمامه منتبها، ينتظر كلمات قائده، الذي استدعاه وطلب منه الحضور سريعا. الكلمات تخرج من وجه أحمر كأنها طلقات رصاص:

- ما الذي فعلته يا أحمق ، كيف تشيد مدافعك لتحطم قبرا؟
- سيدي أنت من أخبرتنا أن كبرياء الإيطالي يفوق كل شيء
- نعم قلت ذلك؛ لكنك لم تسأل نفسك لماذا وافقت على حفر القنوات في إثيوبيا. الشعوب براكين خامدة لا تثور مهما ضربت بالمعاول،

طالما بداخلها شيء تحميه.. فإن نزعت ذلك الشيء، فستلقى ما لا تحمده العقبى. هذا ما يحدث في مصر والسودان الآن.. ربما أنت لا تتابع الأخبار الواردة من هناك، بعد جفاف النيل وانتشار المرض والفقر صرخت البراكين، كبرياء بريطانيا يكاد ينكسر، فالمصريون والسودانيون لم يعودوا يخشون المدافع، فنيران الجوع أقوى. أنت تريد أن تفعل بنا كذلك هنا؟ الاستفزاز الديني لا يقل عن الجوع، سوف يوقظ المردة!.. انظر إلى ما نعانيه هنا من المحاربين القادمين من بطون الصحراء، غير عابئين بالموت.. سيصير كل ليبي كذلك إن فعلت ما كنت تنتوي. من حسن الطالع أن هناك من أوقفك

- سيدي...

- صه.. يبدو أنك في حاجة لإجازة. اذهب الآن، أنت في راحة مدة يومين، حتى يعود لك رشدك

**

تأكدت فرانشيسكا من أن باب الغرفة مغلق، فتوجهت إلى مكتبها، وأخرجت أوراقها، ثم أطرقت برأسها لتستجمع أفكارها، قبل أن تشرع في كتابة رسالة لاستيفانو

عزيزي ستيفانو

بالأمس همَّ أحد هؤلاء المغفلين بدك ضريح إسلامي، متحديا بذلك عقيدة المسلمين؛ ولكنني استوقفته. ربما إن حطمه، سيكون ذلك في صالحنا، لكننا لن نبني حضارتنا الجديدة على أنقاض حضارات قديمة.

استطعت استدراج العديدين هنا في ليبيا، ليؤمنوا بقضيتنا، ويحلموا كما نحلم بروما جديدة، تختلف كليا عن موسوليني، وبطشه الذي لا يرحم.

أسير على ذلك الخط الذي رسمناه، وأتمنى أن تكونوا في الداخل تقومون بالمثل. لا شيء يمكن أن يوقف غضب شعوب حلمت بالحرية.

فرانشي

أغلقت رسالتها، وكتبت على الظرف: إلى كلوديا صديقة الطفولة

**

فابيو غير راض عن طريقة التحدث من قائده، وهو الذي كان يمنِّي نفسه بمكافأة. لكن عزاؤه أن حصل على يومين راحة، اقتنصها في الرحيل نحو طبرق، حيث صديقه الصقلي هناك. الصقليون فقط هم من يربتون على أكتاف أصدقائهم.

كان ماركو منهمكا في عمله، فالأسطول الإيطالي هناك صار قوة ضاربة. لكن فابيو لم يهتم بالمشهد، قدر ما كان يتمنى أن يرتمي بين أحضان صديقه، ودموعه تغرق وجهه، مخبرا إياه كل شيء.. حتى قال له:

- ماذا فعلت يا ماركو؟ هل كنت مجرد أحمق بالفعل؟

- هل تذكر حين كنا أطفالا يا فابيو؟ كنت أنت دائما تقفز على سور منزل السيدة سوليري، وتلقي الحجارة محطما النافذة، وتركض بعيدا لتضحك. لم تكن تفعل ذلك لأنك تعشق التخريب، لكن تفعله لكي تضحك. أنت لم تتغير كثيرا يا فابيو؛ لكن ما خلفته من دمار لم يكن مجرد نافذة محطمة

تأمله فابيو بنظرة متأنية، كأنه يحاول استيعاب ما يقصده صديقه، قبل أن يهدأ قليلا ويقول:

- الآن بدأت أعرف ذلك الشعور الذي كان يسيطر على السيدة سوليري، عرفته حين حدثت فرانشيسكا

- فرانشيسكا؟

- نعم، السيدة الزرقاء.. صافية كالسماء؛ لكن حين تتحدث تتلبد الغيوم حولها، فتشعر أنك أمام كائن غامض لا تدري ماهيته. لقد وقفت أمام المدافع لتحمي قبرا، ألا يبدو لك ذلك غريبا؟

- كلا ليس غريبا، حين تكون سيدة صنعت في إيطاليا الحقيقية. جينا أيضا كذلك، صفعت لويجي ولم تخف.

قالها ماركو، لتترف عيناه الدموع حين ذكر اسمها، أترى مازالت تذكره رغم الأعوام المنصرمة؟ أم إن باريس حملت لها لقبا جديدا غير سيسليانتي، الذي صار مجرد سفينة تدميرية، فكيف تدنس جينا اسمها بذلك اللقب

**

أناملها الرقيقة تداعب الإبرة، وهي تغازل جسد (ماري) الفرنسية الجميلة، تضبط الفستان قبل بدء بروفات عرض الأزياء الخاص بتصميماتها مع صوفيا.

باريس، أرض الجمال الصاخب، هادئة الجمال كصقلية، لذا كانت حلم الكثيرين ممن يبحثون عن السكينة. الإبرة تعلو وتهبط مع أصابعها، قبل أن تبتسم تلك الابتسامة التي ترسل في نفوس من يراها الرضا؛ ولكنها لا تعكس حقيقة توتر صاحبتها.

دارت ماري حول نفسها، كعارضة أزياء سعيدة، وهي تشعر بالفخر أنها ترتدي تصميما مثل هذا، قبل أن تقترب من أذن جينا، الجالسة على ركبتيها تضبط الفستان قائلة:

- خلاب مثل عينيكِ يا صديقتي

جاوبتها نفس الابتسامة الصامتة، فأكملت ماري:

- هكذا يقول ريمون دائما أن لكِ عينين خلابتين (ثم غمزت بعينيها) ريمون يحبك.

- لم يعد بداخلي شيء لأقدمه له. استهلكت كل شيء في رحلتي من باليرمو حتى وطئت أقدامي باريس

- لا تقولي ذلك! الحياة لا تتوقف عند الذكريات، كل يوم هو ذكرى جديدة، وليس من السهل أن تجدي رجلا يحبك مثل ريمون

- صدقيني، لقد كرهت الحب، فهو لا يأتي إلا بالعذاب

- في بعض الأحيان يكون العذاب ممتعا

لم تجب جينا.. فقط كانت هناك تحلق في سماء باليرمو، تنظر للطفلة الصغيرة التي تبني على شاطئها قصرا من رمال، وتمضي راحلة عنه إلى لا شيء. قد منحتها باريس عملا وثروة وشهرة، ولكنها ترفض أن تمنحها رجلا غير ماركو.

**

أخفت الرسالة التي سلمها إليها الجندي القادم من روما، الذي تأكد من أن أحدًا لا يراه وهو يقابل فرانشي في مكان منعزل من مدينة البيضاء. اختطفت فرانشي الرسالة، وأسرعت في اتجاه منزلها. كانت تتوق أن تعرف أخبار روما، وتعليمات ستيفانو القادمة لها، لذا ما إن وصلت منزلها، حتى هرولت تجاه غرفتها، وأغلقتها خلفها، ثم بدأت تقرأ..

عزيزتي فرانشي

الوضع هنا في روما مقلق، المواطنون صدورهم بدأت تضيق بأصحاب القمصان السود، وبطونهم تكاد تختنق من الجوع وشظف العيش، فكل أموال الدولة تصرف على التوسعات والفتوحات. ربما كان هذا جيدا وفي صالحنا؛ لكن ما يقلقني هو غموض السياسة العامة. منذ شهور، قام موسوليني بتوقيع تلك المعاهدة مع ألمانيا واليابان، لمناهضة الشيوعية الدولية، والآن هتلر يغزو بولندا، فماذا سيفعل؟ لا أدري.. أخشى أن يتم استدراجنا لحرب ليس لنا قبل بها، لذلك أرجو منكِ مساعدة المقاومة الليبية في أن تشن هجومات على معسكراتنا هناك، ربما حين يجد موسوليني أكبر مستعمراته في خطر، يوجه جيوشه نحوها، دون خوض حروب جديدة.

ستيفانو

ما إن انتهت من القراءة، حتى شرعت في الرد.. الكلمات التي تمتزج بالخيبة كانت تسقط من حبر قلمها بتدافع عظيم..

عزيزي ستيفانو

ما تقوله من الصعب جدا، فأحوال ليبيا اليوم أكثر غموضا.. ثورة الجفاف في مصر تمنع المقاومة من جلب سلاح من مصر، وهجمات فرق المشاة –وبخاصة جلوريا– في الفترة الأخيرة على المقاومة أنهكتهم، كما أن ما تقوله ربما يودي بحياة الكثيرين من الجانبين، وكلهم أبرياء. لن أشترك معك في تلك الجريمة، لننتظر ردة فعل ذلك المجنون على غزو بولندا حتى نقيم الموقف.

فرانشي

ماركو، كعادته بعد انتهاء فترة عمله يوميا، يرتمي في حضن البحر يبث له أشواقه. الغريب أن الماء يطفىء النار، لكن البحر كان يؤجج نيران ماركو. هناك حيث جينا ومانياني وباليرمو، تسبح روحه هناك حيث صوفيا وريتشي تركها.. ريتشي!.. نعم ريتشي لماذا لا يراسله، ويطلب منه أن يحمل له أخبار جينا؟.. لم يضع وقتا، ركض نحو مسكنه، أخرج أوراقه، وشرع في كتابة رسالة لريتشي..

عزيزي ريتشي

لا أعرف كيف لم يخطر ببالي سابقا أن أرسل لك. ربما شعوري باليأس من الوصول إلى جينا هو ما جعل تفكيري جامدا. بالتأكيد أنت قد توصلت إليها، أو أنها قد راسلتك. أرجوك أبلغها أنني أحبها بعدد رمال شاطىء طبرق، الذي أقف عليه الآن، أنظر في اتجاه باريس، وأخوض ببصري البحر سابحا حتى يصل إليها. سلها هل مازلت فارسها؟ أم أنها الآن وجدت فارسا خيرا مني؟.. لن ألومها في ذلك، فقط سأتمنى لها السعادة .

ماركو سيسليانتي

**

مرسيليا ملاذ الحالمين الباحثين عن ذواتهم المفقودة، على شاطئها الخلاب مرفأ البهجة ومودع سكينتها، لذا كان اقتراح صوفيا هو قضاء الإجازة هناك، بعد نجاح عرضهما الراقي. لكن مارسيليا لم تكن ملاذا لجينا، التي ما إن رأت البحر، حتى اتخذت من إحدى الصخور مقعدا، وجلست تنظر إليه في صمت، قبل أن تخرج قلما يقطر حزنا أسود على الورقة البيضاء..

(حين غادرت بالأمس، لم أطلب منك غلق الباب خلفك، فتركته مواربا يتسلل منه طيفك بين الحين والآخر، مصطحبا معه أسلحتك. متى تعلمت القتل يا ماركو؟.. هل نسيتني؟ تلك الفتاة سمراء الشعر، التي تصنع من جدائلها حبائلا يتعلق بها الرجال، فتقص أطرافها ليتساقطوا من علٍ، هي نفسها تلك الفتاة التي صنعت من أحلامها طيورا، تتخذ من قلبك أعشاشها، فهجرت أنت وهاجرت طيورها في الشتاء القارس، فصارت وحيدة منكفئة على وجهها في الوحل، تنتظرك كي تغتسل فيك. لكنك لا تأتي أبدا، وتظل هي مدنسة، كتلك الأميرة التي طعمت تفاحة السم، فنامت تنتظر فارسها. لكن النوم لا يأتيني، ويبدو أنك لست فارسي. الأقدار لا تفرق بين حبيبين إلا إن كانا غير ممتلئين ببعضيهما.. أوه!.. في طريقي للكفر بك.

تلك الطائرات التي تحلق في السماء، تكشف عن بطونها الموت، وتحمل على جناحيها اليأس في الحياة، صارت مثلك كلما غزوتني. مارسيليا ليست مثلي، فمرساها هادىء، والريفيرا يعانقها بحنان، كما كنت تفعل في الماضي. كل شيء يذكرني بك.. كلما أردت الفرار، يبدو ألا ملجأ منك، حتى ريمون يحملني إليك كلما نظرت لعينيه.

لا يمكن لصقلية مثلي أن تحيا هنا. صقلية عاشت عمرها هاربة، تنتقل بين الجدران البائسة التي تحمل بداخلها قلوبا وجلة، وجيوفاني في قصره يربت على رأس كلبه، الذي يرغي بالأكاذيب فيصدقها، فيطلق وحوشه الضارية تنهش لحوما طرية، لم تستطع الحياة أن تمنحها القوة.. الرحمة كلمة لا تعني شيئا، وأنت صرت مثلهم، صقلي يعشق اللحم، يتلذذ كلما غزت أطيافه خلوتي، ولا يتركني خلفه سوى بقايا جثة محترقة.

أتدري فيما أفكر الآن أيها البحر؟ أفكر أن ألقي بنفسي بين ذراعيك، وأمنحك قبلة أَضع فيها كل آلامي، لتعلم ما صنعته بي، ولتتعذب معي.. نعم أيها البحر، أطفيء ناري واشتعالي، أو أعدني إليه)

ضمت رسالتها إلى قلبها، ثم بللتها بدموعها، قبل أن تغلق عليها الزجاجة، فتظل كلماتها حبيسة الجدران الشفافة، وتلقيها إلى ملح البحر، الذي ربما يمنح مرارتها بعض المواساة. وهي على صخرتها تراقب الزجاجة تقاوم الموج، ولم تدر بنفسها إلا وهي تقفز في البحر، كي يبلل الملح عيونها فيحرقها، ويعطيها سببا للبكاء. لكن الملح لم يكن هو الشيء الوحيد الذائب في البحر.. كانت هناك كلمات وأشواق وأحلام تحملها رسائل عديدة تكسرت جدرانها، فأذابت البحر في مرارتها، وعلمت جينا أنه حتى البحر لن يوصلها إليه.

**

قطعت السيارة السوداء في الليل البهيم الحاجز الحدودي بين مصر وليبيا، في تلك النقطة المتفق عليها. كانت تحمل بداخلها أربعة رجال، يتحدثون معا باللهجة المصرية العامية، بينما يصحبهم رجل ليبي، يوضح للسائق الطريق المتعرج بين الجبال المائلة على الوادي، تضيق عليه فرصته للهرب منها. حتى وصلت السيارة لجبل صغير، تختفي بداخله مغارات عديدة، دخل الرجال إحداها، ليجدوا في استقبالهم ثلاثة آخرين، يرتدون عباءات سوداء تحتها جلابيب بيضاء

جلس الجميع على أرض المغارة، قبل أن يتحدث رجل يبدو عليه وقار أكبر ممن حوله:

- أهلا بك أخي كامل وصحبك الكرام.. أنرتم أرضكم الثانية ليبيا

- شكرا أيها الشيخ الجليل، ما حملنا إليك اليوم هو أن نتذاكر معا ونفكر سويا ما سنفعله لمواجهة تلك الحرب المرتقبة، التي قد تتسبب في أن يقتل أحدنا الآخر، إن لم نوحد جهودنا

- اطمئن ، لا يرفع ليبي سلاحه في وجه أخيه

- أعلم ذلك جيدا، ولذلك أتيت هنا. يجب أن نستفيد من تلك الحرب كما ينبغي. مصر صارت مبتلاة بالجفاف، جنات أرضها صارت جرداء، وانتشر الفقر والمرض بين رجالها، ورغم كل ذلك لم ينحنِ المصري، بل الجوع حوله إلى أسد ضارٍ، وربما تصلك أخبار معاركنا ضد الإنجليز، الذين تركوا أرضنا تجف دون موقف حاسم. صار بيننا وبين الإيطاليين ثأر ودماء، فلقد علمنا أنهم من تسببوا في جفاف النيل.

- عدونا واحد يا صديقي، علينا مقاتلة الأيطاليين

- نعم عدونا واحد، ولكن ليس فقط الإيطاليون؛ لكن الاستعمار بشكل عام. الإنجليز أيضا أعداؤنا، وهم الآن في حالة حرب، لذا علينا أن نتعاون معا، ونختار من أعدائنا جانبا نسانده

- يبدو أن هناك خطة ما تختبيء بين تلافيف عقلك

- نعم يا شيخ (خالد)، أرى أن نعين إيطاليا ودول المحور في حربها، لعدة أسباب: أولها أن الدول الاستعمارية التي تقوم على الهمجية والوحشية كدولة موسوليني عمرها قصير، تنتهي بنهاية حياة الطاغية. أما غيرها ممن لها سياسة ثابتة، مهما اختلف الحاكم لا تتغير، فإن عمرها يطول دائما. ثانيا، هتلر يكره اليهود، وتصلنا أخباره وما يحدثه الآن في بولندا تجاههم، وذلك يعني أنه لن يكون مطالبًا بتنفيذ وعد بلفور، وهكذا نحفظ القدس وأهلنا في فلسطين. ثالثا، النيل يا صديقي هو حياة المصريين، وما

يتحكم بها الآن هم الطليان، لذا ننصرهم ليعيدوا إلينا ما أخذوه، ثم نقتص منهم

أطرق الشيخ خالد رأسه يفكر فيما يقول له السيد كامل، دون أن يتحدث.. فأكمل (كامل):

- أعلم أن نصرة إيطاليا اختيار صعب لكم، خصوصا بعد عودة جراتسياني – قاتل المختار – لكن صدقني، الإنجليز لا يقلون وحشية عن جراتسياني، لكنهم فقط يرتدون أقنعة

- صدقت

- أنا –كقائد في الجيش المصري– أحمل لك تعهدا من كل القادة أننا لن نطلق رصاصة واحدة ضد ليبي، بل أننا سنخالف حكومتنا، وننقلب على الإنجليز وحلفائهم من الهنود والأستراليين، الذين استباحت كتائبهم أرضنا لنصرة تاج مملكتهم. الإنجليز جبناء لا يستطيعون خوض الحرب بأنفسهم، دائما ما يتخذون دروعا من مستعمراتهم

ابتسم الشيخ خالد وقال: أعلم ذلك جيدا يا صديقي، ويشرفني التعاون معكم

**

دقات قلب ماركو تصاعدت، وصارت كأنها ناقوس في إحدى الكنائس، يحمل قدسية خاصة وهو يدوي، حين أعطاه جندي المراسلة تلك الرسالة القادمة من روما، لذا ركض سريعا نحو البحر، ليشاركه إحساسه وهو يقرأ..

عزيزي ماركو

كنت أريد إيصال رسالتك بنفسي، خصوصا بعدما عرفت عنوان جينا، الذي هو باريس شارع جان دارك، حيث أزياء فيليمون، لكن كل خطوط الاتصال بيننا وبين باريس صارت مقطوعة. أوروبا صارت قطعة نار ملتهبة.. في الشمال روسيا تقاتل فنلندا، بعدما حصلت على حصتها في بولندا مع ألمانيا، التي تضرب بقوة النمسا. الجنون يعم أوروبا المتحضرة، ليعيث الشيطان فيها فسادا

الرب يحفظنا ويحفظكم يا صديقي

ريتشي

خيبة الأمل اعتصرت قلبه، فرسالة ريتشي لم تشف تعطشه لجينا، بل زادت من قلقه وتوتره. نظر للبحر وصرخ فيه:

- إلى متى؟.. إلى متى ستفصل بيني وبينها؟!

قالها وانخرط في بكاء عظيم

**

أكملت السيارة السوداء طريقها بين دروب ليبيا وصحرائها، ويرى روادها آثار الدماء التي لم تجف، ولن تجف، شاهدة على همجية أحفاد قيصر. الديار المهدمة وشواهد القبور ولافتات تحذر من منطقة ملغمة.. الحرب في ليبيا لا تتوقف، ولم تتوقف منذ قرابة الثلاثين عاما، حين حطت إيطاليا بجيوشها هناك. وأخيرا، وصلت السيارة إلى قصر بنغازي العظيم، وهبط منها كامل ورفاقه، ليجدوا جراتسياني في انتظارهم، بملامحه الحادة ونظراته الثاقبة، التي تخلف انطباعا من التكبر والغرور

بدأ كامل في الحديث:

- نعلم أنكم أعداؤنا، وأنت بصفة خاصة بيننا وبينك دم المختار. لكن مصلحتنا تحتم وضع أيدينا في أيديكم، إن أعطيتمونا بعض الضمانات، أولها أن تردموا قنواتكم في إثيوبيا، وتلتزموا باتفاقاتنا الدولية في الماء. ثانيها، إن ربحتم، تضمنوا لنا استقلال مصر وترحلوا عن أراضينا

- بالنسبة للنيل، فلن يكون هناك داع أن تبقى القنوات بعد هزيمة الإنجليز، لذا أعتقد أنه مطلب مجاب. أما استقلال مصر، فأيضا نحن لا نسعى لاستعمارها، لكننا نريد دحر بريطانيا. لكن ستكون هناك اتفاقات بيننا بعد الحرب عن القناة ومصر، كن على يقين أننا الجانب الأقوى في ذلك الصراع أيها اليوزباشي. روميل قادم على رأس جيش عرمرم، وسننتصر على الإنجليز وحلفائهم على أرضكم، لذا اختياركم لنا هو ما يفرضه العقل

- أحيانا، حتى وإن كان العقل يملي علينا ما يجب، فعلينا عدم إغفال القلب، ذلك القلب الذي كاد يجف حين حفرتم قنواتكم. سنؤازركم، ليس لأنكم الأقوى، بل كي نروي قلوب أطفالنا بالحرية

**

امتطى فابيو ظهر السفينة مع بقية الجلوريين، بعيونهم التي تتقد بالحماس، يعتبرون الحرب نزهة؛ بينما هو جالس في مؤخرة السفينة وحده. هناك شيء ما يحترق بداخله، ودخانه يغشي عينيه عن رؤية الحقيقة الماثلة أمامه. الحقيقة الملطخة بالأحمر، ذلك الأحمر الذي دهنته يداه، الطريق إلى مالطة وعر، رغم أن ما يفصلهم عنها بحر، إلا أن أمواجه بداخله عاصفة، تفرض عليه العديد من الأسئلة (لماذا مالطة؟)

في السابق، قاتل في العديد من البلاد.. في إثيوبيا وليبيا.. إلا أن ألوان بشراتهم مختلفة، ولغاتهم مختلفة، وثقافاتهم مختلفة. لذا، من أجل روما، كل

دماء هؤلاء هون. أما الآن، فالمطلوب منه قتل المالطيين، مالطة القريبة من صقلية، مسقط رأسه ومنبت أهله.

الحرب تقترب، والقتل يدنو.. ربما قديما كان جده السابع مالطيا، وربما قضى وعمل بعض الوقت هناك. هو لا يدري، لكن بالتأكيد هناك شيء ما يربط بين الجارتين، صقلية ومالطة.. خيط خفي يحث الجيران على المودة.. إريجو، الذي قال له إنهم تم تكليفهم بتلك العملية لأنها صعبة. مالطة تغير على إمداداتنا القادمة من روما، لذا وجب ردعهم.

الخطة تقتضي أن نباغتهم من الجنوب، بينما أسطول روما يغزوهم من الشمال.. هكذا تسقط مالطة بين شقي الرحى، وينكسر صليب جورج، الذي اهداه لهم ملك بريطانيا (١) اعترافا بفضلهم في مجابهة الامدادات.

الحرب في ظاهرها سهلة.. من تكون تلك، مالطة، حتى تقف عائقا أمام فرسان روما؟.. لكن أحد فرسان روما يستند بظهره إلى حافة السفينة، وعيناه غارقتان في دموع. تمنى أن تكون عيناه كالنيل الذي جف، كي يرى حقيقة الأمور واضحة أمامه، ويعرف من المحق ومن المخطيء، وما الذي يتوجب عليه عمله.. لكن كل ذلك دون جدوى.

حطت السفينة بالجلوريين، بالقرب من بيزربوجا المالطية، فأعد الجلوريون مدافعهم ليدكوا مدن مالطة، مدينة بعد أخرى. حتى وصلوا إلى فاليتا، بينما الفيلق القادم من الشمال هبط على جزيرة كميونو وجوزو، قبل أن يتوغلا في الأرض المالطية، حتى انضموا لجلوريا في حصار فاليتا.

الدماء المتناثرة على أرض مالطة لا تعني إلا شيئا واحدا.. الحضارة لا تبنى على قتل الجار. هذا ما كان يراه فابيو في عيون من يقتلهم جنوده. الرصاص لا يرحم أطفالا رضعا، ولا يحمي عجوزا يتكيء على عصاه.

حصارهم لفاليتا طال، والمالطيون لا يستسلمون. إنها بلادهم، نابولي العتيقة تقاوم فيزوف.. هذا ما جال بخاطره في تلك الأثناء. هل كفرت بالإمبراطورية يا فابيو؟!

الكفر في زمن الطغيان إيمان، هكذا أجاب على نفسه، وألقى سلاحه، واتكأ على حائط يدندن بأغنية طفولية، كان يغنيها مع ماركو وجينا على شاطىء باليرمو:

اصنع من إبهامك وسبابتك حلقة

ضعها أمام عينيك حتى تضم القمر

القمر ليس صغيرا لأنه بعيد

بل هو أصغر من أحلامنا التي تحتويه

ظل يرددها وصوته يعلو، حتى أنه لم يستمع لصوت الرصاص والقذائف حوله!

**

في مكان ما تحت أرض مانهاتن الأمريكية، كان هناك معملا مجهزا بأحدث الأجهزة، وأحد العلماء الشباب يرتدي المعطف الأبيض. عيناه توحي بتوقد ذهنه، يستمع لأستاذه ذي الرأس الأشيب، الذي نحل العلم قامته، فكان يقول:

- دافيد، نحن أمام كشف عظيم.. عليك فقط أن تركز وتشحذ ذهنك. فما يفعله انشطار نواة، سيجعلنا نستقل قطار الزمن أعمارا كثيرة

(١) صليب جورج، أهداه ملك بريطانيا لمالطة نظير مساعداتهم واعتراضهم المعونات القادمة من ألمانيا وإيطاليا إلى شمال أفريقيا

- صدقت يا سيدي اوبنهايمر، إن استطعنا تنفيذ فكرتنا النظرية، فلن تعود الأرض كما كانت من قبل

قالها دافيد وهو يقوم بتعديل عويناته فوق أنفه، وينظر إلى عقرب المؤشر الذي بجواره، ويدون في أوراقه ملاحظاته.

**

تخفت فرانشيسكا عن الأنظار، وهي تراقب عن كثب السفن الألمانية، التي تحمل على متنها روميل وجنوده، قادمين لمؤازرة ذويهم من الطليان. يبدو أن الحرب هذه المرة ستكون حاسمة!.. هي تعلم أن الحرب في برقة لم تتوقف، وأن الإنجليز يقتربون من النصر، رغم أن المصريين يقفون على الحياد حتى الآن، يرفضون عروض بريطانيا للاستقلال بعد الحرب، لذلك استعان الإنجليز بجيش كامل من الهنود والأستراليين والنوزيلنديين، بالإضافة لجيشهم، ولذا دنا منهم النصر. فجلوريا الآن في مالطا، والجيش الإيطالي يترنح.

فرانشي بداخلها لا تعرف بماذا تصلي!.. هل تصلي لله كي ينصر إيطاليا ويتقوى موسوليني؟.. أم تصلي كي يخسر موسوليني، وتقع إيطاليا فريسة احتلال بريطاني، وتصبح مستعمرة أخرى مثل الهند وأستراليا، تقاتل عن التاج عوضا عن أبنائه؟!.. الأنباء من استيفانو تخبر أن انتصارات موسوليني في ألبانيا والصومال الإنجليزية عوضت خسارته في اليونان، كما أن اقتراب الجلوريين من فاليتا يوحي أن سقوط مالطا ما هو إلا مسألة وقت.

ماذا ستفعل بنا يا موسوليني إن انتصرت وركعت كل تلك الأمم ساجدة أمامك؟ هل حينها ستشبع، وتنتهي شهوة التملك بداخلك؟.. فقط

كنت تريد أن تثبت لنفسك أنك الأفضل في العالم، وهكذا أنت قريب من ذلك. هل ستعيد كل شيء إلى ما كان عليه، أم أنك ستبحث عن عالم جديد، تعمل فيه حربك؟.. هكذا كانت تحدث فرانشي نفسها، وبحور الحيرة تغرقها في وحل من الأفكار، وهي تراقب روميل العظيم يهبط من سفينته، لتلمس قدماه أرض ليبيا الحزينة، كأنها علامة على أن القادم لن يكون أفضل لها.

قطع أفكارها صوت روميل، وهو يصرخ في وجه جراتسياني قائلا:

- ما ذلك الجنون؟ كيف تبعث بأفضل عناصر جيشك إلى مالطة، تاركا برقة في مهب الريح؟.. يا عزيزي جراتسياني مصر هي مركز الكرة، من يملكها يربح الحرب

- لكن مالطة تقطع إمداداتنا، ولا نستطيع أن نكمل دونها

- الإمدادات ليس لها قيمة إن خسرنا تواجدنا هنا

كانت فرانشي تستمع بغضب.. لماذا ذلك الألماني يصرخ في وجه نظيره الإيطالي؟.. يبدو أن موسوليني أهدر كرامة شعبه، وجثا به على ركبتيه في خدمة هتلر!

**

كباقي فيلق اسكوالو، كان ماركو في برقة على سفينته، يحاول أن يدعم الحرب البرية غير المتكافئة.. الإنجليز يقسون عليهم، والإمدادات ضعيفة.. برقة تسقط تدريجيا، وماركو يراقب الدماء من البحر، لا يقوى على أن يترك سفينته، ويوجه سلاحه مباشرة إلى إنسان آخر، ينظر في عينيه قبل أن يقتله.

ماركو أجبن من ذلك، هو فقط يوجه مدافعه ويضرب، ربما خلّف العديد من القتلى؛ لكن على الأقل لا يرى أعينهم. العيون تقتل قاتلها قبل أن تموت.. هذا ما حدث في إثيوبيا. لذا كان يهرب من صورة المشهد حوله كل حين، بأن يرسم بداخله صورة باليرمو، السفن المخروقة هناك تحتاج لعامل مثله، وهو يبدو أنه لن يعود. منذ غادرت السفينة ميناءها، لم ترسُ في ميناء، حتى الحرب.

يصرخ الجنود: تراجعوا نحن نموت، يديرون دفة السفينة للتراجع، حتى يهربوا بأرواحهم، قبل أن تخوض في مزيد من الوحل وتموت. هل إن قتلوا في حرب مثل تلك التي هي حرب موسوليني، سيلقبون بالشهداء، وسينعتون بالشرف؟.. أم سيقولون ماتوا لينتصر طاغية؟

تمخر السفن البحر بسرعة كبيرة.. شعر بأنه أحسن الصنع حين اخترع تلك السفينة الانسيابية .

قذائف الإنجليز من كل جانب، لكن في النهاية استطاعوا الوصول لطبرق، لتنتهي جولة من الحرب بخسارة برقة.

**

كان دافيد ينظر يمنة ويسارا، ليتأكد أن لا أحد يراقبه، وهو يجلس في ذلك المقهى الفاره، في أكبر شوارع مانهاتن. حين اطمأن أن لا أحد ينتبه إليه ،أخرج من جيبه ظرفا ضخما، ووضعه على الطاولة أمام صديقه إيزاك، ثم قال:

- في ذلك الظرف كل احتياجاتنا، ورسوم تفصيلية للمعمل. استعنت بصديقنا رافي، الذي نجحت في تعيينه في طاقم الحراسة هناك. لا أثق في أن

أمريكا تستطيع الصمود كثيرا، ولو أن ما نصنعه وقع في يد هتلر ستكون نهايتنا

- نعم يا دكتور (دافيد) الوضع لا ينبيء بخير، سأستعين بالخبراء الذين أعطيتني أسماءهم، وسنصنع لك شيئا مثيلا، لكن ستظل المواد الخام عائقا

- لا عليك، سنبحث أمرها فيما بعد، فلدي خطة. فقط شيد المكان

قالها دافيد وهو ينظر في الفراغ، وعيناه تضيق وتضيق، ويزداد بريقهما كلما ضاقتا، ثم حدث نفسه: سننجح، أثق في ذلك.

**

ما زال استيفانو يجوب ضواحي روما، ويجلس على المقاهي الصغيرة، يستمع لأحوال الناس التي تئن من الحرب. الأبناء الذين يرحلون ولا يعودون، السماء التي تمطر قذائفا نارية، والجوع القاتل، والأسعار الباهظة.. كل ذلك ظهر على وجوه البائسين، من عبوس وتجهم وغضب صامت، وعيون أقرب للبكاء منها للثورة .

كان ذلك ليجعل ستيفانو سعيدا في ظروف مختلفة.. لكن كل ضحايا الحرب، الأنباء التي وصلته من فرانشي عن سقوط برقة وتقهقر ذويه إلى الخلف، جعله غاضبا ثائرا، يتمنى أن يقتل موسوليني الآن قبل غدا.

لكن المجد لا يرسم في ساعة ثورة.. المجد وليد هدوء ونتيجة صفاء نفسي، يقوده إلى تركيز في محاولة الاستفادة من الواقع، بما لا يضيع المستقبل.

ذهب إلى أحد الحوانيت القريبة، وطلب من البائع علبة من السجائر. نظر إليه البائع نظرة مستنكر، قبل أن يعطيه إياها قائلا:

- الناس لا تجد طعاما يكفيهم، وأمثالك يلوثون الهواء بأنفاسهم. لماذا لا يأخذونك أنت للحرب، ويتركون ابني ليونارو؟ لأنك ثري، أليس كذلك؟ أصحاب القمصان السود لا يعرفون إلا الفقراء

امتقع وجه ستيفانو محمرا.. يبدو أن الثورة القادمة التي يعد لها يجب أن تبدأ من الداخل لا من الخارج، ومنه أولا قبل أن يقنع الناس. لذا ألقى علبة السجائر بعيدا، ثم قبل رأس البائع، وأخرج بعض المال وأعطاه إياه، ثم قال:

- أعدك ألا ألوث الهواء ثانية، حتى يعود ليوناردو ورفاقه

و مضى بعيدا عن الضاحية، وهو يشعر أنه وضع قدمه على أول خطوات الثورة الحقيقية.. ثورة النفس!

**

تراجع الإيطاليون لم يقف عند طبرق، بل تواصل حتى بنغازي. حين تتراجع، فأنت أعمى، فقط تهرب من الموت، لكن الموت لا يتركك. هزيمة المحور في ليبيا صارت وشيكة، وهذا ما دعا والد فرانشي أن يأخذ ابنته ويهرب إلى روما. على ظهر السفينة، انعزلت فرانشي تحاول إعداد تقرير عما قامت به في ليبيا. يبدو أن كل جهدها هناك ذهب هباء، وأنها ستقع تحت طائلة الإنجليز.. عزاؤها الوحيد تلك الخلية التي صنعتها من جنود الجيش الساخطين على سياسة موسوليني

كانت تحاول أن تنمي تلك الخلية سريعا؛ لكن الحرب لم تمهلها.. آسفة يا استيفانو، يبدو أنني فشلت!

**

حصون فاليتا العتيقة تتصدع تحت القذائف، وحصون حلم الإمبراطورية تتهاوى داخل قلب فابيو. الجلوريون متحمسون، بينما هو يفعل ما يجبر عليه دون اقتناع. وجوه أهالي فاليتا البائسة، التي صمدت رغم كل شيء، حتى مات الكثير.. هل منهم من حلم يوما أن تصبح مالطة إمبراطورية؟ أم أنهم فقط كانوا يحلمون بأمطار السماء، والبحر الذي يأتي لهم بالأسماك؟.. حياة بلا جيوفاني وموسوليني.

الطغيان عدوى، ما إن يتواجد طاغ في مجتمع، حتى تنتقل عدواه لتعم الكثيرين. وهو كان يبحث عن ذلك في جفاف النيل، في محاولته لهدم ضريح الصحابي، في إجباره لليبيين واحتقاره للإثيوبيين.. فابيو كان مشروع طاغٍ صغير، بينما أريجو طاغ أكبر.

أريجو، الذي جمع رجاله بعد أن اقتنص النصر واستسلمت مالطة، ليشكرهم على بلائهم الحسن، ويخبرهم أنهم سيمكثون قليلا في فاليتا، حتى تأتيهم الأوامر، ويعلم أن ذلك على غير رغبة الأبطال، الذين يتمنون عدم التوقف عن القتال.. فالحرب شهوة، رواؤها الدماء، وهم يتعطشون للدماء.

أعلام إيطاليا تحلق في سماء مالطة، بينما في قلوب المالطيين توطأ بالأقدام. الآن لم يعد هناك جيران!.. كل تلك الخواطر يعاني منها فابيو، أوصلته أن يخبر نفسه أن الغزو الحقيقي يجب أن يكون غزوا يجتاح القلوب، فغزو الأراضي لا يدوم.

**

روميل كان داهية، فرغم انسحاب جيوش الإيطاليين من طبرق وبرقة، إلا أنه كان يعلم أن أغلب الإيطاليين لا يحاربون لإيمانهم بجدوى الحرب، بل

خوفا من الموت على يد طاغيتهم. ومن هنا، يتضح الفارق بين الجنس الآري، الذي يحارب لأنه الأفضل، وهؤلاء الخائفين من الموت، حتى إن جاءهم الموت هربوا.. لا يمكن الاعتماد على الطليان دائما.

حين استلم قيادة جيوش المحور، في تلك البؤرة من العالم، كان يعلم بأهمية تلك المنطقة، التي سيدافع عنها الحلفاء بكل قوقم. وخسارة طبرق وبرقة لم تفاجئه كثيرا، لذا فعل ما يتوجب عليه. قاد جيشه الألماني لاحتلال المنطقة الواقعة بين برقة ومرسى مطروح، وقطع الإمدادات بينهما، ليجد الإنجليز أنهم وقعوا بين المطرقة والسنديان، وحدود ليبيا المغلقة بداخلها، ورغم الغطاء الجوي البريطاني، إلا أنه لم يحمِ جنودهم، الذين ذبحهم روميل كالنعاج ولم يبالِ.

وعادت برقة وطبرق سريعا إلى أحضان المحور.. فكل ما تحتاجه الحرب قلب لا يخشى الموت.

**

اجتمع ستيفانو بمساعديه، ومن بينهم فرانشي، في أحد المنازل الفارهة، في أرقى أحياء روما. وقف في منتصف الحلقة، تداعب أصابعه لحيته الصغيرة وهو يقول:

- يبدو أن موسوليني وهتلر سينتصران، المحصلة تعني ذلك، والأنباء الواردة من الحرب الكبرى، في لكسمبورج وبلجيكا وهولندا وشمال فرنسا كلها في صالح الألمان، رغم تجييش الحلفاء لمئات الآلاف. أعتقد أنها الحرب الفاصلة

تنحنحت فرانشي قبل أن تقول:

- لا أعتقد يا استيفانو.. الحلفاء يشتهرون بسياسة النفس الطويل، وربما خسروا جولة، إلا أنهم يعودون، ومئات الآلاف التي تتحدث عنهم هناك، وراؤهم ملايين في مستعمراتهم الكثيرة يمكن الاستعانة بها، بينما إيطاليا وألمانيا لا تملكان إلا جنودهما

- وهذا بالتحديد ما يجعلني متعجبا. كيف تتساقط بريطانيا العظيمة ومعها فرنسا بتلك السهولة، ويفرون كالقطعان في هولندا وبلجيكا، تاركين باريس على مرمى حجر من الألمان؟.. وهذا ليس الشيء العجيب الوحيد هناك. ما هو أغرب، لقد صنعت دول المحور تحالفها في الأساس لمناهضة الشيوعية، ومع ذلك يتركون روسيا، ويضغطون بقوة على بريطانيا وفرنسا؟!.. حتى اليابان هاجم أمريكا، بينما روسيا تقتلع حصون فنلندا، وتخوض حروبا لتربح حصصا من العالم، دون أن يقترب منها أحد

- لا تصدق يا استيفانو أية شعارات. الأساس ليس مناهضة الشيوعية، إنما هو ترسيخ مبدأ البقاء للأقوى، ليتحول المجتمع البشري إلى غابة. الكل في تلك الحرب يموت، وأول من يموت هو العلم والأدب. لا أعرف إن كان أفلاطون حيا الآن ماذا كان سيفعل!.. هل كان سيظل مؤمنا أن هناك يوتوبيا؟.. لقد بدأت أكفر بالانسان نفسه يا ستيفانو، فهو لا يستطيع الحياة في يوتوبيا دون تحويلها إلى غابة

- كلا يا فرانشي، إياكِ أن تكفري بالإنسان. سيظل الإنسان قادرا على استصلاح الصحراء، وتقنين الغابات، وترويض الوحوش.. سيظل الإنسان سرا لا يعلمه سوى الرب.. ذلك الشيء بداخله يستطيع أن يدمر، ويستطيع أن يبني.. فقط يحتاج إلى توجيه

**

هذا الاجتماع لم يكن مثل أي اجتماع، كان رئيس أركان الجيش الإيطالي يجتمع بمساعديه، ليرسم الخطة النافذة، التي قد تنهي الحرب. فلقد توصل إلى تلك الفكرة الجهنمية، التي قد تغير موازين القوة. وقف أمام الخريطة الضخمة، التي تحتوي العالم كله، داخل مكتبه.. وأمسك بعصا رفيعة مدببة، وسلطها على جزء ما في الخريطة.. إنه اريتريا..

- هنا في أسمرة، يستقر فيلقنا باليني

ثم أشار إلى جزء آخر.. إنه مالطة..

- وهنا، في فاليتا، تستقر الفرقة جلوريا

ثم أشار إلى جزء آخر هو قناة السويس..

- سنأمر باليني أن تمر من الجنوب إلى قناة السويس، في ذات الوقت الذي تتحرك فيه من الشمال الفرقة جلوريا إلى الهدف ذاته، ليجتمعا في القناة ويهاجمان مصر من الشرق. في أثناء ذلك، سيكون روميل من الغرب يخوض حربا طاحنة مع البريطانيين، الذين سيجدون أنفسهم محاصرين بين الشرق والغرب

- سيدي، إنها خطة ذكية.. لكن هناك أمرًا أرجو ألا نغفله.. الجيش المصري يا سيدي حتى الآن لم يخض الحرب أو ينضم لفريق. رغم ضغط البريطانيين عليهم وحكومتهم، إلا أن الجيش ساكن. لو قرروا الانضمام للبريطانيين، عندها ستتدمر كل تلك الخطة

- لا عليك، لدينا ضمانات، من قيادات داخل الجيش ذاته، أنهم لن يقاتلوا في صف البريطانيين.؛ هذا بالنسبة لجبهة مصر أما الجبهة الأوربية، فنحن نخوض حربا ضروسا في شمال فرنسا مع الألمان، لو ربحناها ربما دنا

النصر لنا. لذلك أرى أن نشتت انتباه الفرنسيين، بأن نضرب من الجنوب إحدى مدنهم الكبرى؛ لكن يجب ان تكون ضربة مفاجئة سريعة لا يتوقعونها، حتى يكون تأثيرها أقوى، فيترنحوا. فهل لدى أحدكم اقتراح؟

وقف قائد سلاح البحرية وشد هامته قائلا:

- هناك سرب من السفن لدينا، يسمى سيسليانتي، سريعة وقوية ومختفية عن الأعين، فمدافعها مخبأة. لو شئت أمرتها بالخروج من ميناء روما

- حسنا، فكرة جيدة.. نفذ الآن

**

على شاطىء مرسيليا، كانت تغسل أحزانها في موجه الهادىء. لقد صادقت البحر الأيام الماضية.. حين ألقت نفسها فيه، وجدته مثلها، ينتظر يدا تنقذه. صوفيا تجلس بجوارها، ويبدو عليها الضيق.. هي لا تحب تلك الحياة الهادئة، دائما تحب الركض خلف أحلامها.. لذا قالت بغضب:

- لن نستطيع العوْدة لباريس الآن. سحقا لتلك الحرب، التي جعلت باريس ليست آمنة.

كلمتها استطاعت انتزاع جينا من توحدها، فقالت بكلمات صيغت من ألم:

- آمنة! أتدرين أنني لم أعرف تلك الكلمة أبدا، منذ صفعت لويجي!.. حينها كنت أظن أنني أستطيع الدفاع عن نفسي. وحين فررت مع ماركو، شعرت بالضعف، لكن كنت أعلم أن ماركو سيحميني، لذا كنت أحس بالأمان. ورحل ماركو، ومعه الأمان إلى شاطىء لا أعرفه، بينما الموت هو ما يرسو في مينائي الآن. الأمان كلمة بلا معنى، لأن الحياة والموت هي أشياء لا نستطيع مجابهتها. فقط نحيا لنموت، ونموت لنحيا. لماذا نهرب؟

ولماذا نهرب؟.. جيوفاني؟.. ما أقصى ما يستطيعه؟ أن يقتلنا؟.. نعم نموت معا آمنين، خير من أن نحيا مشتتين. ماركو هناك خلف البحر يصرخ، بينما أنا هنا أثرثر. لم أعد أعرف إن كنت أحبه أم كفرت به!.. الشباب يسقط مني، وتطأه الأعوام غير عابئة بقلبي. قلبي!.. أشعر أنني بلا قلب، أو بقلب غير حي.. كل الأمور سيان يا صوفيا

تمنت صوفيا لو أنها لم تنطق، حتى لا تزيد من أوجاع صديقتها، التي ما زالت تنظر للنوارس تحلق فوق البحر، بينما إحداها ينطلق نحو البحر فيخطف السمكة خطفة منه. ربما كان لتلك السمكة رفيق، اختطفت منه وهي بجواره. النوارس لا ترحم، لكن صوت محركات السفن أكثر إزعاجا، فتهرب النوارس بعيدا. حين لاح في الأفق سرب سفن قادم، شعرت صوفيا بالقلق؛ بينما جينا لم يعد يقلقها أو يخيفها شيء!

- هيا نذهب (هكذا تقول صوفيا)

بينما جينا لا تجيب، فقط تنظر للعلم الإيطالي المحلق فوق السفن، ذات العلم الذي كان يعلق على قصر عمدة باليرمو، الذي لم يكن يحكم شيئا، بل كان أحد رجال جيوفاني.

نظرت إلى جوانب السفن المصنوعة من خشب الصندل الصومالي، وكلمة صغيرة مكتوبة في جانبها. كلمة كانت تتمنى أن تصبح لقبها في أحد الأيام، وأن تقترن بها طوال الدهر. استغراقها في النظر إلى الكلمة منعها أن ترى المدافع تخرج من الكوة، ولم تعبأ بالقذائف وهي تقتلع حياتها، بل ابتسمت لأنها أخيرا اقترنت بها للأبد.. فهي الآن صارت (شهيدة سيسليانتي)!

**

على ظهر السفينة بميناء برقة، يقف الرفيقان (عبد الله) وماركو، ينظران إلى البحر عند الأفق، يراقبان طائرين يتنازعان على سمكة. فيحدث عبد الله نفسه أن المخطئة هي السمكة، من استسلمت لهما بلا مقاومة أو حتى محاولة هرب، ولم يشعر بالأسف عليها . بينما ماركو يأسف على السمكة التي وعت الحقيقة أنه لا مفر، ففي كل محاولة هرب سترتطم بمنقار أحد الطيور الجارحة.

ربما غدا سيكونان مجرد سمكة، تستسلم دون هرب.. في الغد سينطلقان مع الجيش إلى مرسى مطروح.. روميل لا يتوقف.

- غدا لو أمرتني يا سيدي بإطلاق رصاصة نحو المصريين، سأعصى أوامرك

هكذا خاطب عبد الله رفيقه..

- لماذا؟ أليست هي الحرب؟

- كلا يا سيدي. هي الحرب بينكم وليست بيننا. مصر وليبيا كيان واحد، لغة واحدة، دين واحد.. فلماذا نقاتل بعضنا؟

- كما تقاتل ألمانيا بريطانيا، وكما تحترق أوربا. الحرب لا تعرف حق الجار

- هذه شريعتكم أنتم أيها الاستعماريون، أما نحن، فلجيراننا حقوق. غدا لن أطلق قذيفة على المدينة، فقط سنقاتل الحلفاء، ونرعى حق أخوتنا

**

وقع الخبر كالصاعقة على فابيو، حين علم أن جلوريا مأمورة بالقتال داخل مصر. ذلك البلد الذي قتلها قبل أن يقاتلها، وقتلته قبل أن يدخلها.

كيف سيكون لقاؤك لي، هل سترحبين بي؟ يقولون إن أهلك مضيافين، ويتميزون بالكرم، ودروبك آمنة غير موحشة، ونيلك العذب دائم الابتسام. آه أيها النيل، كم كنت قاسيا عليك!.. العبث بالطبيعة بالتأكيد يودي بحياة الكثيرين، حتى أنا، يقتلني ذنبي، وإثمي أعظم من طلب المغفرة منك.

متى ينتهي كل ذلك؟.. أضناني الترحال والسفر والقتال. حيوات البشر صارت أرخص من ليرة، وقلوبهم أكثر قسوة من تماثيل روما.

إلهي، أخبرني هل ما زال في رحلتي الكثير، أم أن نهايتي هناك على الأرض التي أردت فيها أن أطمس إرادتك؟

كانت أفكاره كأمواج هادرة، أقوى من أمواج البحر الذي يصل به وبفرقته إلى بورسعيد. وما إن وصلت السفن هناك، حتى هبطوا منها جميعا. لم يجدوا إلا حامية صغيرة في المدينة. أما الجيش المصري، فوقف موقف الصامت المشاهد لكل ذلك، دون تحرك؛ رغم محاصرة الإنجليز لقادته بالدبابات. إلا أن الرجال لم يخوضوا حربا يعرفون أنها دمار لمن يقاتل، ولا جائزة لمن يربح. الأهم بالنسبة لهم هو التفكير فيما بعد أن تنتهي الحرب، ووضع سيناريوهات لكل احتمال.

جلوريا تبسط نفوذها على بورسعيد والإسماعيلية، بينما باليني تحاصر السويس. القناة صارت إيطالية تماما، رغم الغارات الجوية البريطانية التي لا تتوقف على القناة؛ ولكن خسائرها ليست فادحة. بينما في الغرب، احتشدت قوات الحلفاء في العلمين، بعد سقوط مرسى مطروح. لكنهم عرفوا الكمين الذي وقعوا فيه!

في الشرق عند القناة، هناك قوات لا ترحم. وفي الغرب جهة ليبيا، روميل وجيشه، وتوقف إمداد الحلفاء بالجنود من الهند وأستراليا، والجيش المصري يأبى أن يخوض حربهم. كل ذلك أوعز في قلوبهم اليأس.. لم يخوضوا حربا في العلمين للنصر، بل خاضوا حربا للفرار بحياتهم، لذا لم تستغرق الحرب كثيرا حتى سقطت العلمين.

**

مرت القوات الجلورية من بورسعيد تجاه القاهرة، بلا مقاومة تذكر. في حين تقدمت قوات روميل نحو الأسكندرية، والأنباء تأتي من فرنسا عن سقوط باريس.

يبدو أن الحرب قريبة من نهايتها.

حين وصلت فرقة جلوريا إلى القاهرة، ذهبت مباشرة حيث مقر المندوب السامي، وخاضت هناك تبادلا لإطلاق النار مع جنود الحراسة. الرصاصات تتناثر هناك في كل الاتجاهات، قتال اليائسين مع الواثقين هو قتال عشوائي. أحد المارين يرتدي عمامة الأزهر، يصاب في ذراعه بالقرب من فابيو، الذي يجري عليه.. لم يتحمل أن يتساقط آخر بلا ذنب.. إنه ورفاقه المذنبون، هم من تركوا سهول روما وتماثيلها ولوحاتها وفنها، والفاتيكان والمسرح وفيزوف.. كي يقتلوه! ركض نحو الرجل المسجى المثخن في دمائه، يحاول مداواة جرحه.. إلا أنه أصيب مثله، فرقد بجواره، تختلط دماؤه بدمائه.. الاثنين لهما نفس اللون. عيناه تحدق في السماء بعيدا، نحو يمامة بعيدة ترفرف بجناحيها، وتنتقل إلى أقصى العالم.. ربما إلى صقلية، حيث مترل السيدة سوليري، تصنع عشا على نافذتها الزجاجية، وترقد على بيضها. ستصلح زجاجه المكسور بأفراخها، وستداوي جرحه

الدامي من ذراعه، وتوقف سيل الدم الذي يغرق الأرض حوله. ويغشى عينيه عن الرؤية يمامة تعرف طريق جبل الجودي، حتى ترسو عليه السفينة، التي تكاد تغرق في طوفان الإثم. الصورة تزداد سوادا، وهو يستجمع قواه ويخاطب اليمامة:

– بلغي السيدة سوليري أسفي، وقولي للسيدة الزرقاء إنني فهمت؛ لكن بعد فوات الأوان

قالها، وتساقط في ظلمة حالكة، يضيئها حلم عن فرانشيسكا، التي تأخذه من يده، ويصعدان سلما نحو السماء، وتقول له: هناك في السماء تكون جلوريا الحقيقية

**

الغريب في الأنباء السعيدة أنها لم تصحبها فرحة في روما. رغم استسلام فرنسا وسقوط باريس.. رغم خضوع مالطة والاستيلاء على قناة السويس.. رغم تقدم جيوش هتلر نحو لندن؛ إلا أن روما كانت فيزوفا على وشك الثورة.

كما خطط استيفانو، بدأت محاولات الشغب، ومواجهات بين أصحاب القمصان السود والبسطاء، الذين لا يجدون قوت يومهم، ولا يتحملون تعنتا جديدا. القمع لم يعد يجدي، فسياط البركان بداخلهم أشد.

صرخاتهم القوية تصل إلى قصر موسوليني فتزلزله، فوقف فيهم خطيبا

(شعبي الحبيب، يا أبناء قيصر

كل ذلك كان من أجلكم، ومن أجل روما العظيمة

تحملنا الكثير، واقترب النصر. وعند النصر ستوزع الغنائم، وحينها ستظنون أن كل ما مر لم يكن إلا ساعة واحدة.. ساعة واحدة من جوع، ألا تتحملون؟

لندن تحتضر، وباريس استسلمت. أما موسكو فـــ..)

لم يكمل، فصرخات الاستهجان أوقفته عند ذكر موسكو، الذي ينبئ بخوض حرب جديدة. كانت تلك الصرخات أقوى من كل حروفه. دهشته صارت أكبر.. هذه أول مرة يواجه تلك القوة، التي لم يظن أنها موجودة. لذا أنهى خطابه، وأرسل إلى صديقه هتلر أنه اكتفى بما حقق، وأن الحرب يجب أن تكون نهايتها عند سقوط لندن، وأخبره أنه يعلم أن تحالفه في الأساس معاداة للشيوعية. لكن فليعادونها سياسيا، فالشعوب لم تعد تحتمل.

**

في تلك اللحظة، التي أعلن فيها المندوب السامي استسلامه، وأصبحت مصر مستعمرة إيطالية. انطلقت قوات من الجيش المصري الكامن من بداية الحرب، بقيادة اليوزباشي كامل، نحو الغرب حيث ليبيا. يمر من حدودها التي بلا دعم يذكر، ويقطع طرقها التي يخبرها جيدا، حتى التقى بقوات الشيخ خالد، لينضما سويا، حتى يصلا إلى قصر جراتسياني في بنغازي. لم تدم الحرب طويلا، حتى تم أسر جراتسياني والكثير من جنوده.

واختفى الأسرى وقوات الشيخ خالد في الجبال، بينما عاد الجيش المصري إلى قواعده.

أرسل الشيخ خالد رسالته إلى موسوليني قائلا:

إلى الطاغية موسوليني، لا تظن أن مؤازرتنا لك تعني ضعفنا، إنما لأننا نعلم طريقة التفاوض معك. فالهمجية لا تواجهها إلا همجية، والقوة لا

تدحرها إلا القوة، لذا عليك الاستماع لمطالبنا وتنفيذها، حتى يعود لكم جنودكم، وتحفظ ماء وجهك أمام العالم. ما حدث لجراتسياني ليس إلا عينة. وإن لم تنفذ مطالبنا، فسنرسل لك رؤوسهم.

أولا: ردم كل القنوات في إثيوبيا، حتى يعود النيل لسابق عهده

ثانيا: إعلان استقلال ليبيا ومصر، مع الاعتذار عما حدث لهما بسبب قراراتك، ودفع تعويضات لازمة حتى تصلح ما خربته فيهما

ثالثا: أن يغادر جنودك أراضينا، في موعد لا يتعدى آخر هذا العام

وعليك أن تعلم منذ الآن فصاعدا.. أنت لا تواجه مقاتلي ليبيا وحدهم، بل تواجه معهم جيشا نظاميا متكاملا في مصر. فإن رفضت، فاعلم أنما أنت قد أعلنت حربا أخرى.

**

يوليو ١٩٤٣

لندن لم تصمد طويلا، فالبريطانيون جبناء، لا يخوضون حربا على أرضهم، أو حتى برجالهم، لذا حين سقطت مصر وانقطعت إمداداهم بالجنود من المستعمرات، لم يجدوا بدا من الاستسلام في منتصف عام ١٩٤٣

وصل الخبر كأنه إعصار يضرب وجوه الأمريكان. الآن هم وحدهم في مواجهة المحور، خسائرهم الفادحة في بيرل هاربور لم تداوَ حتى الآن، وسلاحهم السري ما زال مجرد نظريات لم يكتمل عمليا.. لماذا يحاربون وحدهم؟!.. لذا أعلنوا موافقتهم على اتفاقية تنهي تلك الحرب وتعلن استسلامهم.

في تلك الأثناء، كان العالم دافيد ومعه حارس الأمن رافي يخرجان من المعمل، في انتظارهما بعض الرجال يساعدانهما في اصطحاب بعض الصناديق المغلفة بالرصاص، بينما جثث بعض الحراس ملقاة بجانب الحائط.

وبعد انصرافهم بدقائق، اندلع حريق ضخم، ابتلع مانهاتن كلها، بينما رافي ودافيد يصعدان إلى إحدى السفن من ميناء نيويورك، وكانت السفينة تتجه شرقا..

**

إنها أول مرة منذ تسعة أعوام يشعر بالهدوء. هرب من صفعة لويجي، ليخوض في بحر من الدماء. ماركو، أيها الطفل الذي وجد نفسه في عالم ليس منه، عالم لا يعترف بالأطفال، عالم ليس فيه قلب يحتضنك، وتضع فيه أفكارك الطفولية. قلب جينا على الشاطىء الآخر هناك، حتى تعود إليه يجب أن تخوض البحر ثانية. لا يهم ماهية البحر.. سيخوضه حتى لو كان بحرًا من الألم.

انتهت الحرب، ولم يعد هناك خطر. كما انتهت فترة تجنيده، وصار اليوم حرا. الحرية التي لم يتذوقها منذ ولادته، إلا حين يقذف بنفسه في البحر ليغسل نفسه من جروح العبودية، التي كانت تعم باليرمو بفضل جيوفاني، ليتطور جيوفاني ويصير موسوليني، نفس الرجل باسم آخر. يتذوق الحرية لحظة، لكنه يعلم أنه سيعود للعبودية على يد جينا. مذاق الأسماك التي تعشق البحر حد العبودية، وإن تحررت منه ماتت.

جينا ليست جيوفاني أو موسوليني. فعبودية الجبروت تختلف تماما عن عبودية تدفع مقابلها عمرك حتى تفوز بها. ماركو المسكين يتمنى لو يمنح

جينا عمره، كي يراها سعيدة. لذا صعد للسفينة من ميناء الأسكندرية، رأسا إلى فرنسا.. تلك السفينة التي لا يحملها البحر، لكنها تمخر في عباب أشواقه، التي تموج بكل ما واجهه، حين ابتعد عنها.

الرحلة طويلة يا جينا، والمسافة بين مصر وفرنسا بعيدة جدا. ربما هي المسافة بين الموت والحياة! غدا سأصل إليكِ، وأضمك إلى صدري، لأفوز بقبلة منكِ. أغسل فيها روحي من كل آثامي. لكن هل سأجدك تنتظريني؟ أم أن الحب قرر الرحيل عن قلبك الطاهر؟

أول مرة يرى فيها باريس، لكنها لم تكن سعيدة في استقباله. عاصمة النور صارت مدينة شاحبة، يسكنها أشباح. يسأل عن شارع جان دارك، لكن الباريسيون ما إن يسمعوا لكنته الإيطالية، حتى يصيروا أناسا غير ودودين. أنتم من كسرتم كبرياءنا.. كنا جارتين أعواما طويلة، حاربنا معا وقاتلنا معا في حروب عديدة على مر التاريخ، نؤمن بنفس الدين، ونتحدث بلغتين لهما والد واحد، وفي النهاية نقتتل.. لا لشيء نعرفه! أنت إيطالي، والإيطاليون غير مرحب بهم هنا.

كالمشدوه ينتقل من شارع لشارع، يعلم أن قلبه سيقوده إليها. لكن قلبه صار مغلغلا في آثامه، التي تمنعه من الحديث إليه. استند إلى أحد الجدران، وجلس ليستريح.. بعد أعوام من التعب كان متسخ الثوب، يظهر عليه الإنهاك، يتساقط من عينيه الأسى، فيظنه المارون متسولا. ربت أحدهم على كتفيه، قائلا: لا تبتئس، هذه حالنا جميعا بعد الحرب.

شعر أخيرا أنه اكتسب عطف أحد الباريسيين، لكنه خشي أن يتحدث فتنطلق من شفتيه الايطالية، فيخسر التعاطف. لكنه حسم أمره وقال: أبحث عن هوى، حين فقدته افتقدت معه روحي.

ابتسم الرجل الطيب، الذي يكسو شعره اللون الأبيض، وتكسو عينيه ابتسامة حزينة، ثم قال: أنت إيطالي؟ أتعلم أنني قضيت جزءا من حياتي في فينيسيا، حيث البيوت تخرج من الماء، والقلوب صافية كصفحة أرضهم المائية؟.. أحببتكم كثيرا، حتى حين حدث ما حدث، عذرتكم فيه، فاخبرني عم تبحث؟

- عنها، تلك التي أودعتها الخير، ورحلت بنفسي الشريرة، لأصنع نارا تأكلني، قبل غيري

- وهل هي هنا؟

- كل ما أعرفه أنها كانت هنا منذ بضعة أعوام، في أزياء فيليمون بشارع جان دارك

- سآخذك إلى هناك

**

قاومت عينا فابيو ليلا دامسا غشاها، وعادت من جديد نافذة تطل على من حولها، ليرى حوائط غرفة المستشفى، المتشققة كذكرياته المتصدعة، ويتحول بنظره إلى الكائن على السرير بجواره، ذلك الرجل الأزهري، الذي وقع قبله في أحداث السفارة. قليلا قليلا، بدأت تعود إليه ذاكرته، التي تمنى أن تسقط منه وتغادره.

- أين أنا؟

قالها بالايطالية بصوت متقطع، كأنه يخرج من بئر سحيق..

- لا أعرف الإيطالية؛ هلا تحدثت الإنجليزية؟

قالها الأزهري بالإنجليزية، وهو يرسم على وجهه ابتسامة مطمئنة:

- أعرف قليلا منها.. لا أجيدها تماما، فأين أنا الآن؟

- في مستشفى مصرية، حيث نقلوك بعد أن وقعت مصابا بجوار السفارة. كانت حالتك خطرة، لولا عناية الله وذلك الطبيب، ما عدت ثانية إلى الحياة

- أي طبيب؟

- الطبيب حسن عبد العظيم. لقد مكث أكثر من خمس ساعات وهو يجري لك عملية تعود بها إلى الحياة

- لماذا؟

- نعم؟!! ماذا تقصد؟

- ما الذي يجبره على ذلك؟ أنا إيطالي قادم لصنع إمبراطوريتنا الخاصة. كان أجدر به أن يتركني أموت

- حكوا لي ما فعلت.. كيف ركضت نحوي لتطببني، رغم الرصاصات المتناثرة حولك؛ فلماذا فعلت ذلك؟.. هي اسئلة بلا اجابات يا صديقي، سوى أن كل منا إنسان، يحمل بداخله قلبا يشعر بالأفئدة من حوله

كان فابيو يستمع إليه وعينه مسلطة إلى لا شيء، فقط حياته الخاوية، سوى من حلم زائف بالمجد. المجد ليس في الأرض، سوى في قلب ينبض بالانسانية. اغرورقت عيناه بالدموع، وتساقط العرق على وجهه زخات تقاوم حرارة الكلمات العاصفة، التي هي أقوى من فيزوف

- اسمي محمود علم الدين، عالم أزهري

- فابيو جالياني، تائه ضل الطريق.. ولد في صقلية، ثم ضاعت به السبل

- لا يظل التائه تائها.. إن علم بضياعه للطريق، فهو حتما سيعود

أطال فابيو النظر نحو الشيخ.. شيء ما يشده إليه، ويجعله يستمع إليه ويصدقه. لابد للتائه أن يعود.. نعم لا بد

- لكن ماذا تعني أزهري؟

- الأزهر جامع وجامعة، أنشيء منذ زمن بعيد، تتوالى فيه الأجيال كما تتوالى في مصر، حاملين مشاعل نور يهدي التائهين للحقيقة. بناه رجل مثلك من بلدك، يدعى جوهر الصقلي، ليشيد مجدا يظل يخلد اسمه للأبد. كلما مرت بنا الدهور، ستتوارث اسمه ألسنتنا بالعرفان لصنيعه. كيف لقادم أتى يغزو أرضنا في جيش المعز، وينشيء جامعا لنشر مذهب شيعي، يتحول كل ذلك لأكبر جامعة سنية. إنها يا صديقي الحياة، التي لا تسير أبدا في إتجاه واحد

- وإن كنت لا أعلم تلك المصطلحات سنية وشيعية، لكنني أفهمك.. الحياة ليست قطارا تستقله للوصول لمحطة معينة تريدها، بل هي قطار يوصلك إلى حيث هي تريد

- بالضبط.. لكن يجب أن تتسلح فيه بالايمان، وإلا سيقتلك التيه

**

حين وصل خبر اختطاف جراتسياني إلى موسوليني، أصابته ثورة عارمة. لقد تجرأ الرعاع عليه، وكرامة إيطاليا أصبحت على المحك. الآن يواجه العديد من الجبهات.. بالداخل مظاهرات وأعمال شغب، يقودها الفقراء المغلوبين على أمرهم. لقد كسروا حاجز الرعب، وتجرءوا على أصحاب القمصان السود. في الخارج، أصبحت أكبر مستعمراته ليبيا بلا قائد، بعد

أن سقط جراتسياني. لكنه رغم ذلك أمر بردم قنوات إثيوبيا، فمصر صارت خاضعة له وخيراهما له.

كل أمجاده أصبحت كغبار تذروه الرياح، لذا وجب عليه سرعة التصرف. أرسل لأصدقائه النازيين، كي يعينوه على تمشيط ليبيا، في غضبة قوية تزلزل الرجال. سيدمرها مترلا مترلا، حتى يجد رجاله. أما الداخل، فسيستعين بأعوانه، والمنتفعين من ورائه، كي يؤكد للشعب أن من يمقتونه هم قلة قليلة. حين تثور الشعوب، فأفضل الحلول هي أن تواجه نفسها، بينما الديكتاتور العادل يتدخل في اللحظة الأخيرة، كي ينقذ البلاد من حربه الأهلية.

عشرون عاما كان رئيسا للوزراء، وهذه أول مرة يستخدم فيها هذا الحل. يبدو أن كل شيء يتغير.. القوة الآن ليست هي الحل.. يجب العمل السياسي.

في ذلك الوقت، كان استيفانو وأصدقاؤه يجوبون شوارع روما، يوقظون النيام، يداوون القلوب المكلومة، يحيون في النفوس روح الانتقام.

إيطاليا تئن.. تصرخ.. وجراتسياني في الأسر، مكبل في أغلاله، يواجه الشيخ خالد الذي يبتسم متشفيا وهو يقول:

- أخيرا وقع الجرذ. حتى إن وافق موسوليني على شروطنا، فأنت لن تعود

- لم أعهدكم تنقضون مواثيقكم

- كذبت.. نحن لا ننقضها، لكن وجب القصاص. دماء المختار انتظرت عشرة أعوام على يديك، كي يأتي من ينتقم لها. ما زلت حتى اليوم

أذكر المحاكمة الهزلية، وما زالت كلمات سيدي في أذني وهو يقول: "نحن لا نستسلم.. ننتصر أو نموت.. وهذه ليست النهاية.. بل سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه. أما أنا، فإن عمري سيكون أطول من عمر شانقي".

فأخبرني كم عمرك اليوم؟ لأنه سينتهي؛ أما عمر سيدي، فسيظل باقيا يكبر معنا وبداخلنا، نتوارثه جيلا بعد جيل. لكن أنت ستنتهي بنهايتك، أو للصدق بنهاية قائدك، ولن يمجدكم أحد.

زاغت عينا جراتسياني، وهو يفكر هل سيموت بانقضاء أنفاسه؟.. لماذا لا أحد يحبه بذلك القدر الذي يغرم به تلاميذ المختار بأستاذهم؟.. كل شيء إلى زوال، والمجد ليس سوى سرابا، لا يصل إليه أحد. سيموت اليوم، ويقدم للرب قربانا من مئات الأرواح التي رحلت بأمره. ملايين الآثام تقوده إلى الليل المظلم بداخل القبر.. والغريب، لم يفكر لحظة في التوبة، بل كل ما يتمناه أن يخرج من هنا، ليلحق الشيخ خالد بأستاذه.

لكن لم يمهله القدر كثيرا، فقد هوى على عنقه سيف الشيخ خالد، وهو يردد كلمة المختار (لئن كسر المدفع سيفي، فلن يكسر الباطل حقي) ثم ردد: اليوم يوم القصاص، عودة الحق، اليوم كل ليبي سيرفع رأسه عاليا، حتى تعانق السحاب.

ثم وقع السيف على عنق جراتسياني، كي تنفجر منه الدماء السوداء.

**

هبط دافيد من السفينة، التي وصلت لميناء حيفا، ومعه صناديقه الرصاصية. كان إيزاك ومعه بعض الرجال في انتظارهم، وما إن رآهم، حتى ساعدهم في الانتقال خارج الميناء بتلك الصناديق، عن طريق بعض

السيارات التي نقلتهم إلى نتانيا، تلك المستوطنة التي انشئت عام ١٩٢٨ في شمال فلسطين.

كل شيء معد.. لم يكن ينقص هناك سوى تلك الصناديق، الآن سيكملون ما بدأه الأمريكان ولم يتموه، في ذات الوقت الذي تبدأ فيه هجرات اليهود لفلسطين من شتى بقاع الأرض.

سيتم إنشاء إسرائيل رغما عن أنف هتلر، ولن يوقفهم أحد. تلك أمانيهم التي يسعون من أجلها. قدر دافيد أن أمامهم ثلاثة أعوام فقط، ليصنعوا ذلك السلاح الرهيب.

تناقلت الصحف في أحد الصباحات مقتل العالم اوبنهايمر، على يد أحد الرجال السكارى، بينما دافيد يبتسم؛ فهو يعرف من يكون ذلك السكير الملقب بـ (رافي).

بعد استسلام أمريكا، وحريق مانهاتن، وقتل اوبنهايمر، يبدو أن أمريكا ستغيب في سبات طويل، وأن السي آي ايه لن يقوم من غفوته.

المجد يطرق أبوابكم يا دافيد.. أمريكا انتهت، وإيطاليا على صفيح ساخن، وفرنسا وانجلترا استسلمتا، بينما ألمانيا وروسيا تتناطحان، ولا أحد يراكم هناك في نتانيا.

**

حين نطق ماركو اسم جينا، لم يستطع ريمون أن يمنع نفسه من الانخراط في البكاء. كان بكائه كافيا لإثارة جنون ماركو، الذي ظل يردد كالمصعوق:

- اخبرني ماذا حدث لها؟ أين هي؟ لا تقل لي إنها رحلت ثانية؟ تسعة أعوام كافية من الهجران

- نعم رحلت على أيدي رفاقك

- ماذا تقصد؟

- قتلت، حين هاجم أصدقاؤك مرسيليا، ماتت تحت قصف مدافعكم

- لا تقل ذلك.. هي حية، بالتأكيد هي حية.. هي فقط تعودت على الرحيل.. ستعود، حتما ستعود

ظل ماركو يكرر كلمة ستعود، حتى انهارت قدماه وسقط على الأرض. دموعه تغرق ثيابه.. لماذا كل هذا يحدث؟ ماذا فعلت جينا لتموت؟.. ماذا فعلت لتقاسي كل ذلك؟.. جلس ريمون بجواره، يربت على كتفيه قائلا:

- كانت تحبك كثيرا. قاست من الهجران أكثر من قسوة الغربة. كانت نسمة ربيعية، تقاوم عاصفة الشتاء التي لا ترحم

أمسك ريمون بأحد الأثواب..

– هذا هو آخر ثوب صممته، كنت أحفظه لنفسي؛ لكنني أراك أحق به

كان ثوبا للزفاف، أبيض يمتزج به في بعض المناطق شرائط سوداء، وتتوسطه وردة بيضاء، رأى فيها حلما لا يكتمل. ضم الثوب إلى صدره، قبل أن يدفن فيه وجهه، ثم يقف مترنحا يجر قدميه نحو العدم.

**

نوفمبر ١٩٥١

ثمانية أعوام مضت، مليئة بالأحداث. فهتلر قد مات، البعض قال إنه مات مسموما، والبعض الآخر قال إنه فقط لم يستيقظ من غفوته. تعددت أفكارهم، لكنها لم تغير من النتيجة، وهي أنه قد مات. الغريب، أن الألمان لم ينتخبوا نازيا، بل انتخبوا رئيسا له ميول سلمية، كان أول ما فكر فيه هو تشييد منظمة تضم جميع الأمم، ليعم السلام الأرجاء.

أما موسوليني، لم يستطع المقاومة في جميع الجبهات. استغل معارضوه خبر مقتل جراتسياني، لتشتد ضغوطاتهم واتهاماتهم بأنه يترك ذويهم يقتلون في تلك المستعمرات. لذا اضطر أن يوافق مذعنا على اتفاقيات لاستقلال مصر وليبيا. لم يمهله ملك إيطاليا، الذي استيقظ على أصوات الجماهير، بعد أن غط في سباته أكثر من عشرين عاما. زئيرهم كان أقوى من كل شيء، حتى أنه ألقى الرعب في قلب الملك، وخاف على عرشه، فأقال موسوليني، وبحث عن رئيس وزراء جديد، يعيد لإيطاليا رونقها. كان يبحث عن رئيس حازم قوي، حتى يستطيع السيطرة على الفوضى، ويدعه يدير الحياة الايطالية، بينما هو يعود إلى نومه. لذلك لم يجد من هو خير من دون جيوفاني.. فصقلية كانت المنطقة الإيطالية الوحيدة، التي يعمها الهدوء بفضل جيوفاني!

**

استيقظ أهالي المناطق القريبة من صحراء النقب في أحد الأيام، على دوي قوي اجتاح أثره العالم، حتى هز أركان موسكو وبرلين، وأثار مخاوفهما، فلم يجدا بدا من الاعتراف بإسرائيل، كدولة تتمتع بكامل الامتيازات، بينما فلسطين فلتظل معلقة كما هي.

بعدما توفي هتلر، الشعب اختار رئيسا يرنو للسلام والدعة، رئيسا يستطيع أن يقود البلاد للرخاء الاقتصادي، لذلك اختاروا جيرد هيملر. كان أول ما فعله الرئيس الجديد هو أن دعا زعماء العالم في ذلك الوقت: رئيس الوزراء الإيطالي " دون جيوفاني"، والرئيس الروسي، والإمبراطور الياباني، ولم ينس أن يدعو مسئولا عن الحكومة الإسرائيلية. فما حدث في صحراء النقب كان مقلقا بحق. وفي نهاية الاجتماع، الذي تم في العاصمة الألمانية برلين، وقف الرئيس الألماني ليلقي بيانا للعالم، قال فيه:

" يا أبناء آدم، نعم كلنا أبناء نفس الرجل، لا تتعجبوا أنني لم أتباهى بجنسي الآري. كل ما مضى سينهال عليه تراب التاريخ ويزول، ولن يبقى إلا نحن. النازية كانت وهما صدقه هتلر.. ورغم أن مجدنا الألماني صنع به، إلا أن هناك أشياء يجب أن نأخذها في الاعتبار، وهي احترام الإنسانية، التي هي أهم بكثير من أن يسود الآري على ما سواه، وهو له حق لن أنكره؛ لكن الانسانية تحتضر، آلاف البشر قد انتهوا، اختلطت الدماء الآرية بما سواها أسفل الثرى. تأخرنا كثيرا في عجلة التقدم الحضاري للجنس البشري، حتى أننا صرنا كحيوانات تتناطح. كانت الحرب عاصفة عاتية، اقتلعت الأخضر واليابس، واستبدلتهما معا باللون الأحمر. وكما هي الطبيعة، فبعد كل عاصفة سكون؛ لكنه سكون الموت. آن لصفحة التاريخ أن تطوى، وطيها يجب أن يوافق عدم السماح بعودتها. لذلك اجتمعنا هنا كمسئولين عن أكبر أربع دول حاليا، استطاعت النصر في الحرب، بصحبة دولة حديثة استطاعت في بضع سنوات أن تصنع طريقها نحو المجد، ومضت سريعا في قطار الحضارة، وقررنا ما هو آت:

أولا: إنشاء منظمة مقرها فرانكفورت، تضم الأمم جميعها، تكون معنية بحماية المواثيق الدولية منبثقا منها مجلسا للأمن، يقتص من الظالم ويعيد الحق للمظلوم، قوامه خمسة عشر عضوا، ينتخبون بالتناوب، ونحن الخمسة

أعضاء دائمين فيه، حتى نضمن جدية القرارات ونزاهتها، كما يملك كل منا حق الرفض.

ثانيا: إعلان إسرائيل دولة، لها كل الامتيازات والصلاحيات

ثالثا: نعتذر عما بدر من جيوشنا تجاه الانسانية جميعها، واليهود خاصة، من جرائم الهولوكوست وغيرها، ونستعد لدفع جميع التعويضات.

**

كان اليوزباشي كامل حانقا، وجهه يتشرب بحمرة الغضب، وهو يجلس في رحاب الشيخ خالد، الهادىء في ذلك اليوم، بينما يقول:

- هل أخطأنا يا شيخنا، حين ناصرنا النازيين؟.. فلسطين تضيع اليوم، بعكس ما خططنا له

- كلا يا صديقي، كتب لبني إسرائيل أن يعلو في الأرض علوا كبيرا، وكتب علينا أننا من سندحرهم بأيدينا. نحن فعلنا ما تأمرنا به ضمائرنا، لذا سيحالفنا النصر في النهاية

- كنت أظن أنه بعد أن ملكنا حريتنا، سيكون لنا دور قوي في تطهير فلسطين. كنت أظن أن ملك مصر وأمير ليبيا لن يرضيا بإعلان إسرائيل دولة، ولن يعترفا بها، فإذا بهما راضخان صامتان، يشجبان بخنوع، يستنكران بضعف

- هذه حال السياسي يا بني، يبحث دوما عن بقائه في منصبه، لا يشغله إلا ما يهز كرسيه

- والشعوب؟ مظاهرات يومية صورية، شعارات وهمية.. كل ذلك لا يجدي

- صبرا يا بني.. لا تنس أننا لم نتعافى بعد استعمار طويل

- التسويف هو حال الخانعين يا شيخي، فاعذرني.

- الاندفاع هو حال الحمقى يا بني، فاعذرني

- نعم، لكن يجب أن تكون هناك بوادر

- ستكون، ثق في حديثي.. ستكون

**

فرانشي ترسم بقلمها دوائر ودوائر على أوراقها، تعلوها نظرة يائسة، وهي جالسة بجوار مجموعتها في مكان التقائهم في بيت استيفانو، الذي كان يتحدث عن المستجدات الأخيرة، وكيف وصل جيوفاني لرئاسة الوزراء. لم تجد فرانشي بدا من أن تصرخ:

- هل أخطأنا؟ كيف يذهب طاغية ويأتي طاغية آخر؟ لقد أضعنا عمرنا هباء، ويبدو أننا سننتظر عشرين عاما أخرى

- كلا يا فرانشي.. لم يضع أي شيء هباء. سيري في طرقات روما، شاهدي الناس هناك.. شيء ما استيقظ، ولن ينام ثانية

- ليتني كنت مثلك متفائلة. لكنني أعلم الناس، اسبارتاكوس ثار والعبيد معه، وحين فشلت ثورته، كل ما فعلوه حين رأوه معلقا مصلوبا أنهم وقفوا يمصمصون شفاههم، ومضوا في نير عبوديتهم، يشكرون القيصر أنه لم يمنحهم نفس المصير. عجلة التاريخ تمضي دوما إلى الخلف، ولكننا ننسى

- يكفينا أنهم استيقظوا مرة، وسيستيقظون ثانية.. فقط فلنساعدهم على ألا يخلدوا إلى النوم مجددا، وهذا لن يتم إلا إن ذاقوا طعم الآدمية. فلنهتم فقط أن يظلوا آدميين، وحينها لن يتخلوا أبدا عن ذلك المذاق

قالها استيفانو، وبدأ يشرح تلك الأفكار عن إنشاء منظمة تهتم بحقوق المواطنين، والحفاظ على آدميتهم، وتوعيتهم لحقوقهم.. لن يسمحوا أبدا بزمن موسوليني يعود

**

جلس فابيو على أحد المقاهي بجوار الأزهر، ينظر للصرح العظيم الذي بناه ابن جلدته. ومع كل لحظة ينظر فيها للجامع، يحتقر فيها نفسه، ويتمنى لو أنه قد قطع لسانه قبل أن يقترح حفر القنوات. قرر فابيو البقاء في مصر طيلة حياته. حاول أن يساهم في إعادة بناء ما هدمه، ربما حينها يستطيع أن يغفر لنفسه شيئا من آثامه. التحق بمدرسة الطب، وتعلمه سريعا، ثم لزم الطبيب حسن عبد العظيم، يعيد للوجوه البائسة ابتسامة حنونة.

وظل يتذكر موقف الأمس، حين كان هو وأستاذه يتفقدان مريضا مصابا بانسداد في الشريان التاجي، ورأى التوتر على وجه أستاذه، وهو يشعر أنه لن يستطيع فعل شيء. وصل به التوتر أن اغرورقت عيناه بالدموع، فتأثر فابيو وسأل نفسه: هل هو بالفعل بلا قلب؟

قال فابيو وهو يحدث أستاذه: لو أنه يمكن إجراء جراحة للقلب، حتى يتطهر من آثامه التي تسد شرايينه، وتمنع عنه الدم (١)

ابتسم استاذه لأول مرة منذ رأى المريض قائلا:

– نعم هناك جراحة، لكنها عسيرة.. اسمها توبة نصوح

احتسى بعضا من الشاي، وهو يتذكر ذلك المشهد، حتى أتى صديقه الأزهري وجلس أمامه، ثم قال له: كيف حالك.. (قالها بالعربية)

- بخير

ابتسم الصديق، وتهللت أساريره قائلا:

– مرحى.. أحب أن أسمع العربية من شفتيك.. لها مذاق خاص

ضحك فابيو ثم قال:

– أتعلم يا صديقي.. أنا أحبك جدا، وأحب مصر كثيرا. رغم كل ما فعلته بها، لم تضن عليّ بأصدقاء صدوقين، ولم تبخل عليّ بحياة جديدة

- لذلك نحن نسميها أم الدنيا، فلها قلب أم لا يعرف إلا الحنان والرأفة

- أتعرف أجمل شيء في مصر يا شيخ محمود؟

صمت محمود، بينما ينظر إلى فابيو بتعجب، ومحاولة للوصول إلى إجابة، فأكمل فابيو قائلا:

- أجمل شيء في مصر هي أنه لا يوجد فيزوف يحرق الأحلام

(١) أول عملية زراعة قلب قام بها الطبيب الجنوب افريقي كريستيان برنارد عام ١٩٦٧

**

على شاطىء باليرمو، جلس ماركو يراقب ذكرياته، التي تمر من أمامه وترحل بروحه. عاد دون أن يعلم أن جيوفاني كشف خدعة لويجي، بعد فراره مع جينا بأيام قليلة. علم جيوفاني أن لويجي وباستو يخدعانه ويسرقان من أمواله، وحين كشفهما كارلو قتلاه.

لذا كان عقاب جيوفاني صارما، فقتل لويجي وباستو بلا رحمة. كل ذلك عرفه ماركو من صديقه مانياني، بعد أن عاد لباليرمو.

تسعة أعوام مضت، وعمره قد رحل، لأنه لم يصبر أسبوعا على بطش جيوفاني.

قاطعه صوت صديقه مانيايي قائلا: دعنا نلعب طاولة، ونعيد الأيام الخوالي

قطع الصمت صوت النرد، يرتطم بجدران الطاولة، ويصطدم بالقطع البيضاء والسوداء، ويقف عند أرقام معينة.. توالى اللعب، حتى بدا أن ماركو في مأزق.. سمع صوت صديقه قائلا:

- لن تنجو اليوم، إلا إن أتى النرد بجوهار

- و حتى إن أتى بجوهار يا صديقي، فهو سيعطيني أملا زائفا، لن يلبث أن يتلاشى. كنت قديما أظن أن حدسي هو ما يمنحني ما أريد. لكن الآن أقولها لك.. لو أني رميت النرد مائة مرة، فلن أحصل على جوهار

قالها، وظل يرمي النرد مرارا وتكرارا، دون الحصول على جوهار.. يرميه بغضب وحزن وانفعال جارف، حتى صاح فيه مانيايي: كفى كفى

فقال له ماركو:

ألم أقل لك إنه مجرد حظ عاثر!

تمت